موسوعة

عالم الأديان

كل الأديان . المذاهب . الفرق . البدع في العالم

1



موسوعة عالم الأديان

كل الأديان والمذاهب والفرق والبدع في العالم

الفهرس العام - المقدمات -

مختصر الديانات ما قبل السماوية

مجموعة من كبار الباحثين

بإشراف

ط. ب. مفرّج

موسوعة

عالم الأديان

كُلُّ الأديان والمذاهب والفرق والبدع في العالم

الجزء الأوّل

الفهرس العامّ - المقدّمات

مختصر الديانات ما قبل السماويّة

NOBILIS

طبعة أولى ـ ٢٠٠٤

طبعة ثانية ـ ٢٠٠٥

إسم المجموعة	:	موسوعة عالم الأديان كُلُّ الأديان والمذاهِب والفِرَق والبِدَع في العَالم
إسم الكتاب	:	الفهرس العامّ ـ المقدّمات مُختَصَرُ الدِّيانَات مَا قَبل السمَاويَّة
الجزء	:	الأوّل
المؤلّف	:	مجموعَة من كبار الباحِثين بإشراف ط. ب. مفرّج
قياس الكتاب	:	٢٠ × ٢٨
مكان النّشر	:	بيروت
دار النّشر والتّوزيع	:	NOBILIS
تلفاكس	:	٩٦١ ـ ١ ـ ٥٨١١٢١
	:	٩٦١ ـ ٣ ـ ٥٨١١٢١

الفَهرَس العامّ

الجزء الأوَّل

مُختَصَرُ الدّيانَات مَا قَبل السمَاويَّة

الفصل السادس

المعتَقَدَات الدِّينيَّة عَندَ العَرَب قَبلَ الإِسلاَم ـ ص١٤٩.

ملحق للمعتقدات الدينيّة عند العرب:

الفصل السابع

الدِّيانَة والميثُولوجيَا اليُونانيَّة ـ ص١٧٦.

الفصل العَاشر

مُوجَز ديَانَات بَعض الشُعوب ـ ص٢٣٧.

ملاحق

الجزء الثَّاني

ديَانَات المجتَمعَات السَّاميَّة القديمَة

الفَصلُ الأوَّل

الشعوبُ السَّاميَّة القَديمَة

الفَصلُ الثَّاني

الديَانةُ السومريَّة

الفَصلُ الثَّالِث

المؤسَّسَة الدِّينيَّة السُّومَريَّة

الفَصلُ الرَّابع

الشَّعَائر الدِّينيَّة السُّومَريَّة

الفَصلُ الخَامِس

ديانات الأمُوريِّين والكَنعانيِّين ـ الفينيقيِّين

الفَصلُ السَّادِس

دِيَانَةُ الآرَامِيِّين

الجزء الثَّالث

دِيانَات المجتَمع المَصريّ القَديم

الفَصلُ الأوَّل

الدِّيَانَةُ المصريَّة القدِيمَةُ وخصَائصُها

الفَصلُ الثَّاني

الأساطيرُ والعِبَادَة والمعَابدُ

الفَصلُ الثَّالِث

التَّعاطي مَع مسألَةَ المَوت

الفَصلُ الثَّاني

الجينيَّة

الفَصلُ الثَّالث

السِّيخ

الفَصلُ الرَّابع

الزَّرَادَشتِيَّة

الفَصلُ الخَامِس

الكُونفُوشيُوسيَّة والتاويَّة

الفَصلُ السَّادِس

الشِّنْتُـــــــو

الجزءُ الخَامِس

البوذيَّـــــــــة

الفصل الأوَّل

البُوذِيَّة وبُوذا

الفَصلُ الثَّانِي

بُوذَا في حَيَاتِه وتَعَاليمِه

الفَصل الثّالث

تطوُّر البُوذِيَّة وتَنظيمُها

الفَصل الرَّابع

إنتِشَارُ البُوذِيَّة فِي الشَّرق

الفَصلُ الخَامِس

بَادمَا سَمبَاهَافَا والبُوذيَّة فِي التِّيبِت

الفَصلُ السَّادس

نَظرَةٌ إلى التُّراث البُوذيّ

الجزءُ السَّادس

دِيَانَاتُ المُجتَمعَات الغربيَّة القَدِيمَة

القِسمُ الأوَّل

اليُونَان القَديمَة

القِسمُ الثَّاني

دِيَانَاتُ الرُّومَانِيِّين

الجزءُ السَّابع

اليَهُـــود

الفَصلُ الأوَّل

الساميُّون في الهلاَل الخَصيب

الفَصلُ الثَّاني

من إبراهِيم إلَى يُوسُف

الفَصلُ الثَّالِث

من مصر إلى "أرض الميعَاد"

الفَصلُ الرَّابِع
عَصرُ القُضَاة

الفَصلُ الخَامِس
المَملكَة العبرَانيَّة

الفَصلُ السَّادِس
المَملكتَان

الفَصلُ السَّابِع
بَيَن اليُونَان والرُّومَان

الفَصلُ الثَّامِن

يَهُود الشَّتَات (دِيَاسبُورا)

الفَصلُ التَّاسِع

اليهُود في ظِلِّ المَسيحيَّة فالإسلام

الفَصلُ العَاشِر

دَولةُ إسرَائيل

الجزءُ الثَّامِن

نُشوءُ المَسيحِيَّةِ واضطِهادُها وانْتِشارُها

الفَصْلُ الأوَّل

يَسُــــــــــــوع

الفَصْلُ الثَّانِي

فَجْــــــرُ المَسِيحيّـــــــةَ

الفَصْلُ الثَّالِث

صِراعٌ بَينَ المَسيحِيَّة والوَثَنِيَّة

الفَصلُ الرَّابِع

الفَصلُ الخَامِس

الفَصلُ الخَامِس

الجزءُ التَّاسِع

الكَنيسَةُ البيزَنطِيَّةُ الأرثُذُوكسِيَّة

الفَصلُ الأوَّل

فـي مُـواجَهَــــةِ البِـــدَع

الجزءُ العَاشِر

كَنِيسَةُ رُومَا

الجزءُ الحَادي عَشَر

بطريركيّةأورشليم اللاتينيّة

الكنيسة الملَكِيّة الكاثوليكيّة

القِسْم الأوَّل

الفَصْلُ الأوَّل

كَنِيسَةُ القُدسِ اللاَّتِينِيَّة

الفصلُ الثَّانِي

مِنَ الفُرسِ إلى الصَّلِيبِيّين

الفَصلُ الثَّالِث

بعدَ الصليبيِّين

الفَصل الرَّابِع

في الشَّرق الحَديثِ والمُعَاصِر

القِسْم الثَّانِي

الفَصلُ الأوَّل

الكَنيسةِ المَلكيَّةِ الكَاثُولِيكِيَّة

الفَصلُ الثَّانِي

البَطرِيَركِيَّة المَلكِيَّة الكَاثُولِكِيَّة

الفَصلُ الثَّالِث

عَهدُ تحرُّرٍ وازدِهَار

الفَصلُ الرَّابع

في القَرن العِشرين

الفَصلُ الخَامِس

الكَنِيسَةَ المَلكيَّة الكَاثُوليكِيَّة في القَرنِ الحَادِي والعِشرِين

الجزءُ الثَّاني عَشَر

الكَنِيسَتَان القُبطِيّةُ والحَبَشِيَّة

الفَصلُ الأوَّل

بينَ النشُوء والمُونُوفيزيَّة

الفَصلُ الثَّاني

كَنِيسَةُ مِصر بعدَ الفَتح العَربِيّ

الفَصلُ الثَّالث

كَنِيسَةُ مِصر في العَهدَين العبَّاسي والفَاطِمي

الفَصلُ الرَّابِع

في عَهد الممَاليك

الفَصلُ الخَامِس

في عَهدَي العثمَانيِّين ومحمَّد عَليّ

الفَصلُ السَّادِس

في الزّمَن المُعَاصِر

الفَصلُ السَّابِع

التعدُّديَّة القُبطِيَّة

الفَصلُ الثَّامِن

الأقبَاط اليَوم

الفَصلُ التَّاسِع

الكَنيسَة الإثيُوبيَّة الحَبَشيَّة

الجزءُ الثَّالث عَشَر

الكَنَائِسُ السِّريَانِيَّةُ والأشُوريَّةُ والكَلدانِيَّة

الفَصلُ الأوَّل

الكَنِيسَةُ السِّريَانِيَّةُ الأرثُذُوكسيَّة

الفصلُ الثّاني

إنتشَار الكَنِيسَة السِّريانِيَّة المونُوفِيزِيَّة

الفَصلُ الثّالِث

الكنيسة السريَانِيَّة الكاثُوليكِيَّة

الفَصلُ الرّابِع

الكَنِيستَان الأشُورِيَّةُ والكَلدَانِيَّة

الفَصلُ الخَامِس

الكَنائس الهِنديَّة

الفَصلُ السَّادِس

الكَنائِسُ الشَّرقِيَّة والمَجمَع الفَاتِيكَانِيّ الثَّانِي

الجزءُ الرَّابِع عَشَر

الكَنِيسَةُ المَارُونِيَّة

الفَصْلُ الأوَّل

المَوَارِنَة ونِسبَتُهم

الفصل الخَامِس

المَوَارِنَةُ بَينَ الفَرَنجَةِ والمَمَالِيك

الفصل السَّادِس

فِي زَمَنِ المَمَالِيك

الفصل السَّابع

الحَقَبَة العُثمَانيَّة

الفَصلُ الثَّامِن

تبدّلاتٌ سياسيَّةٌ بدَايةَ القَرن التَّاسع عَشَر

الفَصلُ التَّاسِع

المَوَارِنَةُ والوَطَن اللبنَانيّ المعَاصِر

الفَصلُ العَاشِر

مِن النُّسك إلى الرَّهبانيَّات والمدَارِس

الجزءُ الخَامِس عَشَر

الكَنِيسَة الأرمنيَّة

الفَصْلُ الأوَّل

الجُذورُ الأرمَنيَّة

الفَصلُ الثاني

إستِقلاَل الكَنِيسَة الأرمَنِيَّة

الفَصْلُ الثَّالث

الكَنِيسَة الأرمَنيّة والعُهُود الإسلاميَّة

الفَصْلُ الرَّابِع

في ظلّ الحُكم العُثمَانيّ ومَذَابِحِه

الفَصْلُ الخَامِس

الحَرَكَة الوَطَنيَّة الأرمَنيَّة وتجَدُّد الاضطِّهَادَات

الفَصْلُ السَّادِس

جُمهُورِيَّة أرمينيَة وأرمنُ الشتُات

الفَصْلُ السَّابِع

الكَنِيسَة الأرمَنيّة الكاثُوليكيَّة

الجزءُ السَّادِس عَشَر

الكَنَائِسُ الإنجيلِيَةوالبُروتِستَانِيَّة

الفَصلُ الأوَّل

مَارتِينُس لوثِرُس

الفَصلُ الثَّاني

الإنشِقَاقُ عَن رُومَا

الفَصلُ الثَّالث

تعَدُّد الكَنَائِس البرُوتِستَانتِيَّة

الفَصلُ الرَّابِع

الكَنَائِسُ الإنجِيليَّة فِي القَرنِ الثَّامِن عَشَر

الفَصلُ الخَامِس

الإنتشَارُ البرُوتِستَانتيُّ في العَالَم

الفَصلُ السَّادِس

الكَنَائسُ الإنجِيليَّة والبروتِستانتِيَّة اليَوم

الجزءُ السَّابِع عَشَر

ظُهورُ الإسْلامِ وانتِشارُه

الفَصلُ الأوّل

مُحَمَّد

الفَصلُ الثَّانِي

أبُو بِكْر وأيــَّامُه

الفَصلُ الثَّالِث

عُمَر وأيــَّامُه

الفَصلُ الرَّابِع

عُثمَان وأيــَّامُه

الفَصلُ الخَامِس

عهدُ الإمام عَليّ

الفَصلُ السَّادِس

إنتِشَار الإسلاَم قبلَ منتَصَفِ القَرنِ السَّابع

الفَصلُ السَّابع

فَتحُ الأندَلُس

الجزءُ الثَّامِن عَشَر

السُّنَّـــــة

الفَصلُ الأوّل

بينَ الوحدَة والتفكُّك

الفَصلُ الثَّاني

السُنَّة وظُهورُ الفِرَق

الفَصلُ الثَّالث

فِي ظِلّ خِلافَةِ الأمَويِّين

الفَصلُ السَّابع

نصفُ الألفِ العثمَانِيّ

الفَصلُ الثَّامِن

فِي نِظَامِ الدُّوَل

الفَصلُ التَّاسع

رسَالَةُ الإسلاَم

الجزءُ التَّسِع عَشَر

الشِّيعَة(١)

الفَصْلُ الأوّل

نُشوءُ الشّيعَة

الفَصل الثَّانِي

الحَسَن والحُسين

الفَصْلُ الثَّالث

مأساةُ الحُسَين

الجزءُ العشرُون

الشّيعَة (٢)

الفَصْلُ الأَوَّل

مِنَ الإمَامِ السَّابِعِ إلى الإمَام المَهديّ

الفَصلُ الثَّانِي

المَهدِيّ المُنتَظَر

الفَصلُ الثَّالث

دُوَلُ الشّيعَـــة

الفَصلُ الرَّابِع

الخِلافَةُ الفَاطِميَّة

الفَصلُ الخَامِس

الشّيعَةُ في لُبنَان

الفَصلُ السَّادِس

في الزَّمَن المُعَاصِر

الجزءُ الحَادِي والعشرُون

العَلَوِيُّــــون

الفَصلُ الأوَّل

مَواطِنُ العَلَويِّين وأصولُهم وتَقَاليدُهم

الفَصلُ الثَّاني

في نِسبَتِهم النُصَيرِيَّة

الفَصلُ الثَّالث

فِي المُعتَقَـــــد

الفَصلُ الرَّابِع

فَتَاوَى وأقوَال فِي المَذهَبِ العَلَويّ

الفَصلُ الخَامِس

مِن تَارِيخِ العلَويِّين

الفَصل السَّادس

بَينَ المَماليكِ والزَّمَنِ المُعَاصِر

الجزءُ الثَّانِي والعشرُون

المُوَحِّدُون الدُّرُوز

الفَصلُ الأَوَّل

التَّعريفُ بالمُوحِّدِينَ الدُّروز

الفَصلُ الثَّانِي

أصُولُهُم العِرقِيَّة ونُزُولُهم فِي لُبنَان

الفَصلُ الثَّالِث

بَينَ الخُلَفَاء والمَمَاليك

الجزءُ الثَّالِث والعشرُون

فِرَقٌ ومذَاهِبُ إسلامَيَّة

الجزءُ الرَّابِع والعشرُون

البدَع الغربيَّة الحديثَة

الفَصلُ الأوَّل

جمَاعــَة العَصر الجَديد

الفَصلُ الثَّاني

المُورمُون

الفَصلُ الثَّالِث

شُهُود يَهْوَه

الفَصلُ الرَّابِع

عِبَادَة الشَّيطَان

الفَصلُ الخَامِس

البِدَع المستَوردَة إلى الغَرب

الفَصلُ السَّادِس

بِدَعٌ غَربيَّة مختَلفة

مقدّمة الناشر

متى هدفت رسالة دار النشر إلى تعميم المعرفة عن أهمّ المواضيع التي تفرض الثقافة الأساسيّة على المرء إدراكها، فقد تجد هذه الدار نفسها أحيانًا أمام تحدّيات كبرى، تجعل القيّمين عليها يتوخّون الحذر في اتّخاذ القرار بشأن نشر مادّة تتّسم طبيعتها بدقّة بالغة الخطورة. فكيف إذا كانت هذه المادّة تختصّ، ليس في دين واحدٍ من الأديان، بل في كلّ الأديان قاطبة، عبر مختلف مراحل التاريخ.

تلك التحدّيات لم تجعلنا نحجم عن محاولة أداء رسالتنا، بل واجهناها باعتماد المادّة الصادقة والمجرّدة، ولسان حالنا أنّه متى اقتنعنا بأنّ موضوع المادّة جدير بالتعميم، وأنّه معالج بدقّة وصدقيّة وتعمّق، فلا بدّ من نشره، تعميمًا للفائدة الثقافيّة وللمعرفة الصحيحة. تلك هي قناعتنا برسالتنا وبواجبنا، ولا يجوز أن تثنينا الهواجس عن تأديتهما في أيّ حال من الأحوال.

أمّا الدافع إلى اعتبار أنّ مادّة الأديان تشكّل حاجة أساسيّة للمكتبة العربيّة، فمردّه إلى أنّ موضوع الأديان، في اعتقادنا، قد بات يشكّل اليوم مطلبًا ثقافيًّا عالميًّا بامتياز.

وبما أنّ اللغة العربيّة هي لغة أبناء الأرض التي عُدّت مهد الديانات والمعتقدات البشريّة منذ القديم، ومهد الأديان السماويّة خاصّة، بات من واجب الناشر العربيّ الموسوعيّ أن يعير هذا الموضوع أولويّة أساسيّة في تراتبيّة اهتماماته.

وما يزيد في شأن هذه الأولويّة إلحاحًا، شعورنا بأنّه من حقّ المكتبة العربيّة علينا تعزيزها بمثل هذه المادّة الخطيرة الشأن، متمتّعة بشموليّة وتعمّق وترابط تسلسليّ، يطال موضوع الأديان في مختلف مراحلها وكلّ البوتقات والحقب دونما أيّ استثناء. وأنّه من حقّ القارئ العربيّ الباحث عن ينابيع المعرفة ومناهل الثقافة، أن تتوافر له مثل هذه الموسوعة الدينيّة الشاملة والكاملة، التي تغنيه عن البحث الشاقّ والمضني، عن مئات المؤلّفات المتفرّقة المتناثرة والمتعدّدة المصادر واللغات، في هدف إرواء حاجته إلى الإحاطة بموضوع الأديان. ناهيك عن أنّ مثل تلك المؤلّفات كثيرًا ما لا يخلو بعضها من الغرضيّة غير المنزّهة، إيجابًا وسلبًا، ما يجعلها بحاجة إلى غربلة واعية ومدركة في عمليّة الاختيار، فتُنزع عنها القشور والزخارف والتشنيعات، ليبقى منها اللبّ الأصيل، يقدّم نقيًّا على مائدة الفكر.

من هذه المنطلقات، جاء قرارنا بتكليف مجموعة من كبار الباحثين إعداد دراسة شاملة مفصّلة معمّقة ومنزّهة، في موضوع كلّ الأديان عبر تاريخ مختلف حضارات الشعوب، بهدف تقديمها في موسوعة غنيّة بمضمونها، رائدة بجرأتها، عمليّة بتبويبها، أنيقة بمظهرها، ميسّرة الاقتناء لكلّ باحث عن المعرفة من قرّاء العربيّة.

هكذا تكوّنت الموسوعة الدينيّة التي تعتزّ دار نوبلِيس بإصدارها، آملة في أن تكون قد أدّت من خلال هذا الإصدار قسطًا من رسالتها في خدمة المعرفة على مستوى دنيا العرب.

نبيل عبد الحقّ

مقدّمة عامّة

إعتبر معظم المفكّرين لردح طويل من الزمن أنّ ما يميّز الإنسان عن سائر الكائنات الحيّة إنّما هو النطق، فقالوا إنّه حيوان ناطق. بينما وجد بعض الموسوعات أنّ من أهمّ خصائص الإنسان ما يتمتّع به من عاطفة وشعور، فعرّف عنه بأنّه حيوان يضحك ويبكي. إلاّ أنّ بعض المحدثين وجد أنّ هذا الإنسان الذي فكّر بما يتميّز به، بمجرّد أنّه فكّر بذلك، يكون قد برهن على أنّ أبرز ما يتميّز به هو الفكر. فالفكر عند هؤلاء هو أساس النطق والعاطفة والشعور، إضافة إلى أنّه الأداة الوحيدة للفلسفة.

إلاّ أنّ الفلسفة، التي هي وليدة نظرة العقل البشريّ إلى الوجود في أصله وجوهره ومصيره، وتطلّع العقل إلى إدراك المبادئ الأولى فيه، قد وجدت أنّ العقل هو قبس من نور الله، يرسله الإنسان في مجاهل الوجود وشعابه، فيتتبّع الموجودات ويحاول أن يدرك ماهيّاتها وشكلها، مرتقيًا من علّة إلى علّة، مقلّبًا كتاب الكون صفحة بعد صفحة، حتّى يصل إلى الغاية القصوى التي هي العلّة الأولى، والتي كان كلّ شيء بها ومن أجلها؛ ثمّ يرتدّ على أعقابه محلّلا العناصر والطبائع، كاشفا عن حقيقة الأعراض والجواهر، مقسّمًا ومرتّبًا ما استطاع التقسيم والترتيب، حتّى يكوّن له صورة واضحة عن الكون، ويفسّر كيفيّة انسجام الأشياء في ذاته وفي ما حوله ممّا هو خارج عن ذاته. وكثيرًا ما يضلّ الطريق، وكم من مضلاّت في طريقه، فيتخبّط في ظلمات شتّى، ويقف أمام بعض القضايا، حائرًا في استجلاء حقيقتها، عاجزًا عن إدراك كنهها، ذلك

لأنّه محدود لا يستطيع استيعاب كلّ الجزئيّات ولا يتمكّن من إدراك الكليّات، وهذا ما جعل الفلسفة كثيرة الشعاب، متعدّدة المذاهب، متباينة النظريّات. وما تلك النظريّات والمذاهب، وفق تعبير أندريه كرسون، سوى أصداء لميل جامع لا يُكبت، نشأ في الإنسان منذ طفولته ويرافقه حتّى آخر رمق من حياته.

وإذا ما حاول الباحث أن يقلّب صفحات كتاب الكون، باحثًا عن أصل الفلسفة، التي وُصفت بأنّها كانت مُذ كان العقل البشريّ، وجد أنّ نشأتها قد كانت منذ فتح الإنسان عينيه على الوجود، ومُذ فاه العقل بالـ"لماذا!" الكبرى.

هنا، أمام نشأة هذه اللماذا الكبرى، لا يعود بوسع السابر آثار غياهب معارج دروب الفكر مذ بدأ السؤال، أن يفصل ما بين الدين وبين الفكر والفلسفة.

وأنّى بحث الباحث، في أيّ معتقد قديم عند أيّ شعب من الشعوب التي تدّعي لنفسها العراقة الفكريّة والحضاريّة، سواء في مصر أو بلاد ما بين النهرين أو بلاد كنعان أو الهند أو الصين أو فارس أو اليونان...، وجد الشعوب تسير، بداعي تفكيرها الدينيّ، على طريق المعرفة النظريّة، فتنشأ الأساطير التي كثيرًا ما يُتناقل بعضها بين شعب وآخر، وتنظّم لها الآلهة، وتحدّد العلاقات بينهم وبين البشر، وتقول بحياة أخرى، فتنشأ عن ذلك قضيّة الثواب والعقاب المنوطَين بالطقوس تارة وبالسلوك طورًا، ثمّ يبرز الاعتقاد بخلود النفس واعتبارها مغايرة للجسد، فتنشأ العقيدة الثنائيّة التي تُرجع ما في الكون إلى جوهرين أحدهما روحاني والآخر مادّي...، وتتعدّد النظريّات والمعتقدات في مصير الروح بعد الموت، فيقول بعضها بانتقالها إلى عوالم أخرى، ويقول بعضها الآخر برجوعها إلى الأرض عبر تقمّصها جسدًا جديدًا...

فلطالما كانت الماورائيّات الدافع الأهمّ لتحريك الفكر ولا تزال.

فهي التي حرّكت الفكر المصريّ وجعلت المصريّين، بداعي تفكيرهم الدينيّ، يسيرون شوطًا بعيدًا في حقل المعرفة النظريّة.

وهي التي حرّكت الفكر السومريّ والبابليّ والأشوريّ في بلاد ما بين النهرين، ما جعل منها بؤرة إشعاع مركزيّة أنارت العالمَين اليونانيّ والرومانيّ في الغرب، وامتدّت أنوارها إلى الشرق الأقصى تبعث في الأجواء دفئًا وحياة؛ ففيها نشأت نظريّة الزمان المبنيّة على النظام الكونيّ، وأصبحت عبادة الشمس أساسًا للديانات الفلسفيّة الشمسيّة التي انتشرت في الهلال الخصيب وتغلغلت في الفكر اليونانيّ من جهة، وفي الفكر الهنديّ عن طريق إيران من جهة أخرى؛ وفيها أيضًا نشأ الاعتقاد بالقدر المسيطر على نظام الكون وعلى المصير الإنسانيّ، وكان الاعتقاد بأنّ هذا القدر هو ناموس إلهيّ يسيّر كلّ كائن ويعيّن اتّجاه تطوّره، وقد أخذ اليونان هذه الفكرة وجعلوا منها "الكلمة المولّدة"، كما أخذها الهنود فأصبحت عندهم "المرسوم الإلهيّ".

تلك الماورائيّات، هي التي حرّكت الفكر الإيرانيّ حيث نشأت مذاهب فكريّة عديدة أقدم ما وصل إلينا منها عبادة النار وعبادة بعض القوى المجرّدة، ثمّ تمخّضت، في فارس، المعتقدات القديمة ذات المصادر المختلفة، عن الديانة المزدكيّة التي انتشرت في إيران أوسع انتشار، إلى أن قامت "الزردشتيّة" في منتصف القرن السابع قبل الميلاد تنادي بالإصلاح، محافظة على فكرة الصراع الناشب بين الخير والشرّ، حاملة بعنف على القرابين الدمويّة، داعية إلى إحلال الطهارة الخلقيّة وتنقية النوايا محلّ الطقوس الخارجيّة والعبادة الشكليّة، داعية إلى ما يشبه التوحيد، ثمّ إلى مقاومة مبدإ الشرّ واستئصاله ومساعدة مبدإ الخير بأعمال يكون من ورائها الفوز والانتصار والتطهير الداخليّ الذي يقود إلى السعادة. وفي إيران أيضًا كانت قد نشأت فكرة "الزرافيّة" التي استُمدّت من المعتقد الكلدانيّ في السماء والزمان، فكانت أساسًا لنظريّة

"كرونس" التي حلّت في الفكر اليونانيّ محلاً رئيسيًّا؛ وعن الزرافيّة أيضًا أخذ بعض مفكّري اليونان، كما أخذ بعض الشعوب وبعض الفرق، فكرة العوالم المتعاقبة التي يخرج أحدها من أنقاض الآخر، أي فكرة "الرجعة".

تلك الماورائيّات، هي نفسها، كانت الدافع الأهمّ لتحريك الفكر الهنديّ أيضًا، حيث نشأت فكرة التناسخ في خلال القرنين الخامس والسادس قبل الميلاد،واتّخذت شكلاً واضحا، وإن كانت معروفة منذ أقدم العصور. وإنّ كلّ المشكلات التي تعرض للعقل البشريّ من حيث المعرفة الحقّ والاتّصال بالمبدأ الأوّل، قد عرضت للعقل الهنديّ منذ أقدم العصور، وكانت موضوع تأمّل عميق عند حكمائه. فكانت المدرسة اليوغيّة أبرز المدارس الهنديّة في هذا الميدان، ويرمي تصوّفها في الدرجة الأولى إلى اتّصال النفس البشريّة بمبدئها الروحانيّ. وقد علّمت اليوغيّة أنّ مختلف أشكال الحياة، من حياة الآلهة إلى حياة أحقر الخلائق، ذات وحدة جوهريّة. ووحدة الوجود هذه هي التي تُعدّ حجر الزاوية عند أهل التصوّف، فهم يبحثون عن الواحد فيجدونه في كلّ شيء: كلّ هذا هو "برهمان"، "إنّه أنا في داخل قلبي، أصغر من بزرة أصغر البزور، وهو أيضًا أنا في داخل قلبي أكبر من الأرض وأكبر من السماء وأكبر من كلّ السموات وأكبر من كلّ العوالم".

تلك الماورائيّات، هي التي حرّكت الفكر اليونانيّ أيضًا، فكان في بزوغ فجره فكرا دينيًّا أسطوريًّا، يعمل على تفسير الوجود عن طريق الآلهة. وتدرّج الفكر اليونانيّ صعودًا عبر المدرسة الأيونيّة، فحاول تفسير العوالم: الطبيعيّ والعقليّ والخلقي، وافترض في الكون أربعة عناصر هي النار والماء والهواء والتراب، منها كانت المادّة الأزليّة التي نشأ عنها العالم، ومن تحوّلاتها وتمازج أجزائها كانت الكائنات. وفي اليونان أيضًا نشأت المدرسة الفيثاغوريّة التي قالت بأنّ "العدد عنصر

كلّ الكائنات"، وأسّست مدرسة علميّة جعلت من الرياضيّات علمًا برهانيًا ذا قوام ذاتيّ. وقد مثّلت الفيثاغوريّة التيّار الأساسيّ في الاتّجاه الصوفيّ الذي يميل إلى البحث في العالم الآخر، و"جعلت القيمة، كلّ القيمة، للوحدة الإلهيّة التي لا تبصرها العيون"، ونعتت العالم المحسوس بـ"الفساد والزّيف لأنّه سطحٌ عكر تتكسّر عليه الأشعّة العلويّة وتضيع في ضبابه وظلمته الأنوار السماويّة". وقالت بـ"الاعتقاد بخلود الروح ووحدة الكائنات... فالروح تنتقل في عالم الكائنات الحيّة من حيّ إلى آخر، وكلّ كائن يظهر ويتلاشى ثمّ يعود إلى الظهور في دورة معلومة مدّتها ثلاثة آلاف سنة... وهكذا فلا جديد تحت الشمس... فكلّ مولود حيّ حلقة من سلسلة الأسرة الواحدة الشاملة". ونظرت الفيثاغوريّة إلى "الحدس الإشراقيّ" نظرة اهتمام خاصّة، بل جعلته أعلى منزلة من منازل الفكر والحسّ. والنفس، في مذهبها، جوهر مغاير للجسد، مركزه الدماغ، وهي آلة الوظائف العقليّة من حكم وتفكير وما إلى ذلك، وبقاؤها بعد فناء الجسد يمكّنها من النقلة بين الأجساد، فهي أبدًا من واحد إلى آخر حتّى يتمّ تطهيرها، والتطهير الحقيقيّ ما كان عن طريق التحصيل العلميّ والفلسفيّ.

وتبقى مسألة الدين مترافقة مع مسألة الفلسفة في مسار واحد على مدى التاريخ المديد، وفي مختلف بقاع الأرض، حتّى ظهور الأديان السماويّة التي وضعت مفترقًا يسلكه الإيمان النابع من القلب، تاركة للعقل طريقه.

غير أنّ الأديان السماويّة لم تستطع أن تمنع العقل عن سلوك طريق العقل، للبحث في غير لماذا جديدة تداعت عن تعاليم الديانات السماويّة نفسها. فكانت المذاهب والطوائف والملل والبدع...، واستمرّ العقل، غير قابل للترويض، يشقّ له دروبًا ومسالك وشعبًا، ولا يزال.

وإذا ما تأمّل الباحث في شأن الديانات بشمولِيّة وعمق، لوجد أنّ الأجدر بتاريخ البشريّة أن يُقرأ من منظار دينيّ قبل أن يُقرأ من أيّ منظار آخر. ذلك أنّه يجد من خلال هذا المنظار أنّ عامل الدين لطالما كان المحرّك والمقرّر لمصائر الشعوب، إيجابًا وسلبًا، أكثر من كلّ عامل آخر في تاريخ الحضارات عمومًا.

من هذا المنطلق، حاولنا أن ندرس ونجمع وننقل لقرّاء العربيّة، بشموليّة مفصّلة، كلّ ما تيسّر إدراكه عن مختلف الأديان ودعاتها ومريديها وأتباعها عبر التاريخ، واعين ضرورة التجرّد والأمانة اللذين حرصنا على جعلهما أساسًا لمنهجيّة البحث.

وقد اتّبعنا الأقدميّة في توزيع المواضيع على أجزاء هذه الموسوعة، بدءًا بديانات المجتمعات الساميّة والمصريّة القديمة، وصولاً إلى البدع الغربيّة الجديدة، مرورًا بأديان الشرق الأقصى، وبالأديان القديمة للغربيّين، مفصّلين بتوسّع مميّز مواضيع المذاهب والملل والفرق والبدع في المسيحيّة والإسلام.

أمّا المراجع التي اعتمدنا في مجمل هذا العمل الموسوعي، فهي كلّ ما تيسّر الوصول إليه من بحوث رصينة، معروفة بأمانتها، معترف بكلّ منها من جانب المرجعيّات المعنيّة بالدين المعيّن.

لقد أردنا من خلال هذا العمل تيسير أمر المعرفة بشأن معتقدات الشعوب عبر التاريخ، لقرّاء العربيّة. ولم يقتصر بحثنا على الأديان والمعتقدات في حدّ ذاتها، بل تناول أصول كلّ من الشعوب وفق أديانها ومذاهبها، وأحوالها كافّة في جميع مراحل تطوّر معتقداتها. فجاء هذا البحث الموسوعيّ قراءة جديدة لملحمة تطوّر البشريّة جمعاء من خلال موضوع الأديان.

يهمّنا أن ننقل للقارئ الخلاصة الشعوريّة لتجربتنا الفريدة ونحن في صدد إعداد هذه الموسوعة الدينيّة الشاملة. نقول الفريدة، اعتقادًا منّا بأنّ قلّة من الناس هم الذين تمكّنوا من التفرّغ لدراسة كلّ الأديان التي عرفتها المجتمعات البشريّة مذ كانت فكرة الدين حتّى يومنا الحاضر، حيث لا تزال تنشأ هنا وهناك ملل ومذاهب وبدع، بعضها يأتي نتاج فكر أو تأمّل أو وحي أو اقتباس...، وبعضها الآخر، وهو كثير، ناتج دجل أو تضليل أو إرادة تخريب وهدم وتآمر.

تلك الخلاصة مفادها أنّه ليس أمتع للفكر من مطالعة موضوع معتقدات الشعوب، سواء أكانت تلك المعتقدات قديمة قدم تأليه الحجر، أم حديثة حداثة عبدة الشيطان، أو ما بين هذه وتلك. ولا يقتصر جنى هذه المطالعة على المتعة الفكريّة وتوسيع المعارف، بل يتعدّى ذلك إلى رحاب الإحاطة بأديان الآخرين ومعتقداتهم، سواء أكان هؤلاء الآخرون بجوارنا، أم في المقلب الآخر من الأرض، خاصّة أنّ كلّ جهات الأرض اليوم قد تقاربت، إلى حدّ بات معه كلّ البشر متجاورين بشكل أو بآخر.

ط. ب. مفرِّج

مجموعة من كبار الباحثين

بإشراف

ط. ب. مفرّج

موسوعة

عالم الأديان

كلّ الأديان والمذاهب والفرق والبدع في العالم

مقدمة

مختصر الديانات ما قبل السماوية

بقلم العميد الدكتور سامي ريحانا

مدير دار نوبليس

NOBILIS

المحتويات

ملاحق

مقدّمَة

منذ أن وُجد الإنسان على الأرض بدأ في في صراع ماديّ مع عوامل الطبيعة من أجل إثبات نفسه كجنس أعلى، وفي صراع معنويّ وعقليّ مع القوى والظواهر المميّزة، وذلك من أجل اكتشاف الكون ومعرفة خفاياه والخضوع لكل ما هو قويّ وفائق للطبيعة.

ورغم ظهور الإنسان منذ أربعة ملايين سنة، فإنّ تصوّره الماورائيّ لا يرقى إلى أبعد من مائة ألف سنة فقط. فقد اكتُشف أوّل ضريح لإنسان نيادرتالي في العام ١٩٠٨ ويعود إلى إنسان مدفون منذ ٤٥ ألف سنة ووجهه نحو الشرق. كما اكتُشف العديد من المدافن في أوروبّا وآسيا تعود إلى ما بين ٨٠ ألف و ٦٠ ألف سنة. وفي فلسطين اكتُشف قبر لطفل يعود إلى حوالى ١٠٠ ألف سنة، ممّا يظهر إمكان اعتقاد الإنسان بالحياة بعد الموت.

من جهة أخرى، راقب الإنسان الظواهر الطبيعيّة وأُعجب بها واعتبرها متفوّقة عليه، من النجوم والشمس والقمر والمطر، إلى العواصف والأنهار والبحار والجبال والمرتفعات والصخور الضخمة. كذلك أُعجب بالحيوانات السريعة والقويّة، كالأسد والنمر والفيل ووحيد القرن وفرس النهر، وحتّى بالحيّة والتمساح والزواحف الضخمة.

ومنذ العصور الحجريّة اعتقد الإنسان بالآلهة وبالحياة الثانية بعد الموت، فعبد الظواهر والحيوانات واعتبرها آلهة، وآمن بها وطلب منها المساعدة، وأدخلها ضمن

مفاهيمه للحياة والموت والخلود، وحتّى في ميثولوجيّته وفي حروبه ضدّ الغير. وهكذا تدخّلت الآلهة، التي تعدّدت اختصاصاتها، في قضايا البشر ومشاكلهم.

والمثال الصارخ على هذا التدخّل يأتي من إلياذة هوميروس وحصار طروادة حيث كان كلّ بطل، من أخيل إلى هكتور وغيرهما، محميًّا من إله يُعتبر مسؤولاً عن دعمه في القتال وحمايته من البشر ومن غضب الآلهة. والتاريخ حافل بالأمثلة التي تُظهر الأبطال وكأنّهم أبناء الآلهة، من جلجميش البابليّ الذي خلّدته ملحمة شهيرة، إلى هرقل الإغريقيّ الذي قام بأعمال يعجز عنها البشر العاديّون...

لقد ساهمت الحضارات الإنسانيّة في بناء صروح الديانات وبلورتها. فاكتمال تحقيق الحضارة يفرض توافر عوامل أربعة تُدعى "عوامل الحضارة"، وهي: الموارد الاقتصاديّة، والنظم السياسيّة، والأخلاق والعادات والتقاليد، وأخيرًا المعارف العقليّة والعلميّة والفنيّة. وتأتي الديانة في أعلى سلّم هذه العوامل، أي أنّه عند اكتمال الحضارة بمعارفها العقليّة يأتي الدين ليتوّج مرحلة النضوج الإنسانيّ وبلوغ المجتمع المرحلة المتطوّرة والحضاريّة التي تسمح لأبنائه بالتعاطي بالشؤون العقلانيّة، وأبرزها الديانة.

فأوّل دوافع الإنسان الحضاريّة كان يقضي بتأمين طعامه وحماية مجتمعه من الإنسان الآخر ومن الحيوان وكوارث الطبيعة. ثمّ انتقل إلى تنظيم أمور مجتمعه البدائي سياسيًّا من خلال استنباط قوانين ونظم تنظّم علاقة أفراده مع بعضهم أو حقوقهم وواجباتهم. بعد ذلك اعتمد الإنسان عادات وتقاليد دخلت ضمن حضارته وأورثها لأجياله اللاحقة. وفي مرحلة أخيرة من الحضارة تعاطى الإنسان بالعلوم والفنون والآداب وأبرزها الدين والآلهة.

ومن أهم القضايا التي شغلت عقل الإنسان الأوّل لغز تكوين العالم الذي دخل ضمن عالم الأساطير في القديم، وتوارثته الشعوب والحضارات، فتفاعل معها الإنسان

وطوّرها في انتظار وصول الديانات السماويّة إلى عالمه. والباحث المتعمّق في أسرار الشعوب البدائيّة يلاحظ في تراثها الأدبيّ ثمرات الفكر الخياليّ ومبتكرات ماورائيّة دخلت في دنيا التاريخ واعتمدتها المجتمعات الإنسانيّة لاحقًا. فما نعتبره اليوم أسطورة أو ملحمة، أو حتّى خرافة، كان سببًا للتطوّر الدينيّ الذي أوصل المجتمعات القديمة إلى الديانات السماويّة.

وبرز نوع من الوعي والإيمان البدائيّ بالحياة بعد الموت، من اعتماد عادة دفن الموتى من حوالى ١٠٠ ألف سنة ق.م بالقرب من المسكن العاديّ وداخل المغاور في بلاد ما بين النهرين...

إنّ اكتشاف الإنسان الزراعة وتدجين الحيوانات أدّيا إلى اعتماده مكان إقامة دائمًا حرّره من التنقّل طلبًا للطعام، فخزّن الحبوب وبنى المساكن البدائيّة من الأكواخ. وهذه الاختراعات أمّنت له التقدّم الروحيّ الذي أدخله في عالم الدين فاعتقد بالآلهة وبالحياة الثانية. ويدلّ على ذلك وجود أواني الطعام في المدافن المجاورة للأماكن السكنيّة.

وعرف الشرق الأدنى القديم خلال العصور الحجريّة المعابد، اكتُشف أحدها في أريحا ويعود تاريخه إلى ٦٠٠٠ سنة ق.م، من الممكن أن يكون للإله القمر الذي كان يُعتبر أفضل إله في هذه المنطقة الحارّة، إذ إنه يأتي بالبرودة ليلاً. كما عُرف، خلال هذا العصر، نظام العائلة من الأب والأم والأبن، وكان له في البداية مفهوم طقسيّ مقدس، فانتقل المجتمع بصورة مؤكّدة من نظام الأمومة، الذي ساد العصر الحجريّ القديم، إلى نظام الأبوّة ومسؤوليّة الأب عن العائلة مباشرة.

الفَصلُ الأوَّل

التَّرَاثُ الدِّينِيّ
لشُعُوبِ بِلادِ مَا بَينَ النهرَين

عرف الشرق الأدنى القديم أولى الحضارات التي عُرفت في العالم وشعّت على الحضارات الأخرى. وكانت هذه المنطقة قد عرفت مجموعات من الشعوب شكّل بعضها أمبراطوريّات عظمى كبابل وأشور وفارس.

وبلاد ما بين النهرين كانت وما تزال من أخصب مناطق الشرق الأدنى، لذلك عرفت أولى الحضارات الزراعيّة مع ما يعني ذلك من خصب للأرض ومن مفاهيم ماورائيّة تعود إلى العالم الزراعيّ. وهذه المنطقة اعتُبرت هبة نهرَين عظيمَين طبعاها بطابعهما المميّز، وهما دجلة والفرات.

وقد كان الدين أبرز مظاهر النهج الفكريّ العامّ الذي ساد بلاد ما بين النهرين مترافقًا مع العلاقات الاجتماعيّة للسومريّين وللتنوّع الحضاريّ الذي طبع حدث تلاقي الشعوب الساميّة والسومريّة والهندو ـ أوروبيّة في هذه المنطقة من الشرق الأدنى، حيث سُجّل أوّل استقرار سكنيّ زراعيّ في العالم. فالمفاهيم الماورائيّة وعالم ما بعد الموت والأساطير وعلاقات الإنسان بالآلهة بدأت لدى الشعوب السومريّة منذ العصور الحجريّة. كما أنّ التراث الأدبيّ والدينيّ الذي نلتقي به في الشرق الأدنى القديم يمكنه

أن يكون مفتاحًا لدراسة التكوين العقليّ للإنسان والمراحل التي مرّت بها علاقاته مع الإنسان الآخر ومع الطبيعة والآلهة في سبيل قيام المجتمع المتكامل الذي يحقّق عوامل الحضارة الأربعة.

لذلك، رأينا أن نبدأ رحلتنا في عالم نشأة الديانة في الشرق الأدنى القديم وخاصّة في بلاد ما بين النهرين.

الفِكر الدينيّ

السومريّ

السومريّون هم الشعوب التي سكنت بلاد الرافدين منذ العصور الحجريّة وعرفت حضارة متطوّرة منذ عصور ما قبل التاريخ لا سيّما في المدن السومريّة الكبرى مثل أوروك وأور وأريدو ولارسا ولكش ونبّور.

ففي هذه المنطقة من العالم أقامت الشعوب السومريّة، منذ العصور القديمة، صرحَ حضارةٍ هي أوّل ما عُرف في التاريخ من حضارة واسعة وشاملة وفذّة ومبدعة. ومصدر هذه الشعوب ما زال غامضًا حتّى الآن رغم تساؤل العلماء عن المكان الذي قدموا منه والطريق التي سلكوها حتّى دخلوا بلاد سومر. إنّما المؤكّد أنّهم من غير العرق الساميّ، وأنّ اندماجهم بشعوب هذا العرق، التي سيطرت في ما بعد على بلاد ما بين النهرين وطبعتها بطابعها وبحضارتها، إنما جاء في زمن لاحق.

لقد غالى الكهنة كثيرًا في قدم حضارتهم، إنّما يمكننا إعادتها إلى ٥٠٠٠ سنة ق.م، لكنّ عصر فجر السلالات السومريّة خلال العصور التاريخيّة، يعود إلى بعد ذلك بكثير.

ومع السومريّين، وحوالى ٢٣٠٠ سنة ق.م، حاول الشعراء والعلماء استعادة تاريخ بلادهم القديم، فكتبوا قصصًا عن بداية الخلق والجنّة وطوفان مروّع غمر هذه الجنّة وخرّبها عقابًا لأهلها عن ذنب ارتكبه أحد ملوكهم. وتناقل البابليّون والعبرانيّون قصة الطوفان الذي دخل بعدئذٍ ضمن العقيدة الدينيّة المسيحيّة. وأسطورة التكوين السومريّة تقسم إلى ثلاثة أقسام: يُعنى القسم الأول بخلق الكون، والقسم الثاني بتنظيمه، والقسم الثالث بتكوين الانسان. وحاول الكهنة المؤرّخون، في تلك الأثناء، خلق ماضٍ يتّسع لجميع عجائب الحضارة السومريّة، فوضعوا قوائم بأسماء ملوكهم الأقدمين، ورجعوا بالأسرة المالكة، التي حكمت قبل الطوفان، إلى ٤٣٢ ألف سنة. وجاؤوا بأخبار عن اثنَين من الحكّام هما تمّوز وجلجميش من القصص المؤثرة، ما جعل ثانيهما بطل أعظم ملحمة في الأدب البابليّ. أمّا تمّوز فانتقل إلى مجمع الآلهة البابليّة وأصبح في ما بعد أدونيس اليونان.

أ ـ خلق الكون

تذكر الالواح المسماريّة أنّ الإلهة "نامو **Nammu**" أو البحر هي الأمّ التي تولد عنها الأرض والجنّة. وفي كتابات أخرى يظهر أنّ الأرض والجنّة هما، في الأصل، جبل واحد قاعدته الأرض وقمّته الجنّة. والجنّة اعتُبرت إلها اسمه "آن **An**" وجُسّدت الأرض بالإله "كي **Ki**". وباتّحاد هذين الإلهَين خُلقت "الآلهة العظمى" "**Les Grands Dieux**" التي ينحدر منها "إنليل **Enlil**" إله الهواء الذي فرّق الجنّة والأرض وأوجد الكون بشكل جنّة، والأرض والهواء ما بينهما.

ب ـ تنظيم الكون

في القسم الثاني تشير الأسطورة إلى تنظيم الكون بعناصره الإلهيّة. فبعد أن اغتصب "إنليل" الإلهة "ننليل Ninlil" أُقصي إلى العالم السفليّ. لكنّ "ننليل" رفضت أن

تبقى وحدها فلحقت به حيث أعطت مولودًا ذكرًا هو الإله القمر "نانا Nana". كما أنجب، بعد ذلك، "إنليل" ثلاثة آلهة من "ننليل"، في العالم السفليّ، للحلول مكان "نانا" إله القمر الذي صعد إلى السماء، أي الجنّة، فأصبح سيّد الآلهة الكوكبيّة، ومنها "عشتار Ishtar" ابنته و"شمَش Shamash" ابنه.

بعد ذلك اهتم "إنليل" بتنظيم الأرض بآلهتها، ومنها "إنكي **Enki**" الذي يرمز إلى المياه الهادئة التي تطفو على وجه الأرض، وينبع من الشرق بالقرب من جبال الشمس، ويلفّ العالم كنهر دائريّ، وهو الذي وزّع الوظائف والمهمّات على الآلهة وهي:

- الرعد للإله "إشكور Ishkur"
- دجلة والفرات للإله "إنبيلولو Enbilulu"
- البحر للإلهة "سيرارا Sirara"
- ريّ المزروعات للإلهة "إنكيمدو Enkimidu"
- الإسطبلات والحظائر للإله الراعي "داموزي Dammusi"
- الدواب للإله "لاهار Lahar"
- القرميد للإلهة "كابتا Kabta"
- الحبوب للإلهة "أشنان Ashnan".

ويُلاحظ أنّ اختصاصات الآلهة تتجاوب مع الحاجات الإنسانيّة خلال هذه المرحلة.

ج ـ تكوين الإنسان

تذكر الأسطورة أنّ الإله "لاهار" والإلهة "أشنان" استسلما للملذّات الجسديّة والسكر وأهملا عملهما الأساسيّ في تأمين احتياجات الآلهة. ولحلّ هذه المشكلة خُلق الانسان.

فبالنسبة للتاريخ السومريّ، يُذكر أنّ الملوكيّة هبطت، منذ البداية، من السماء في فجر السلالات الأولى التي غطّى الطوفان الأرض في آخرها.

ثمّ ذكرت لائحة الملوك السومريّة عن بداية فجر السلالات الثاني الآتي:

"بعد أن غطّى الطوفان الأرض ونزلت الملوكيّة من السماء من جديد،...."

وأسطورة الطوفان تُظهر ملك مدينة شروباك "زوسودرا" بطل الطوفان أي نظير "أوثانبيشتيم" في التقليد البابليّ (نشيد جلجميش) ونوح في العهد القديم. وممّا لا شكّ فيه أنّ الطوفان كان فيضاناً غريبًا أغرق المدن البابليّة الجنوبيّة ونجت منه المرتفعات، كما تدلّ الآثار. وهناك دلائل أكيدة على أنّ الرسوبات الوحليّة، التي اكتُشفت في "أور" و"كيش" و"شروباك" من المدن السومريّة، تتطابق مع ما تصفه ملحمة جلجميش التي انتقلت بواسطة الميثولوجيا الكنعانيّة إلى قصّة الكتاب المقدس.

د ـ الآلهة السومريّة

نشأت الآلهة في بلاد ما بين النهرين، في الأصل، من القوى والظواهر الطبيعيّة البارزة في الكون، لا سيّما التي تؤثّر منها في حياة الأنسان كالكواكب والظواهر الجويّة المتنوّعة وفي مقدّمتها الشمس والقمر والسماء والهواء والأرض والحياة. كما خُصّص لشؤون الحياة الهامّة آلهة تتحكّم فيها وتسيّرها كالموت والولادة والخصب والغلال والأمراض..الخ.

ولمّا كانت ظواهر القوى تتفاوت في أهمّيتها وتأثيرها في حياة البشر، كانت الآلهة التي عُبدت متفاوتة في أقدارها ودرجاتها ومنزلة عبادتها.

أهمّ آلهة هي العظمى التي عمّت عبادتها وتقديسها كامل القطر ولآماد طويلة، وعلى رأسها الثالوث الإلهيّ المؤلف من ثلاثة عظماء هم "آنو" إله السماء و"إنليل" إله الجو و"أنكي" إله الأرض، الذين يقتسمون الكون.

والسومريّون هم الذين رفعوا المفهوم الدينيّ وسموا بالآلهة التي أعطوها ميزات بشريّة وجعلوها على صورة العائلة من الأب والأم والأبن. واعتمدوا آلهة لكلّ مدينة تنتصر، وعندما تنتصر المدينة تفرض عبادتها على الشعوب المغلوبة. وعمد السومريّون إلى عبادة الأبطال من البشر الذين رفعوهم إلى مراتب الآلهة.

أمّا التصوّر الماورائيّ، فرغم ظهور الإنسان منذ ملايين السنين على الأرض، فانّ عادة دفن الموتى تعود فقط إلى ١٠٠ ألف سنة. فالحياة بعد الموت لم تكن واضحة في ذهن الإنسان البدائيّ قبل ذلك، وقد يكون السومريّون أول من آمن بالحياة الثانية بعد الموت، إذ اكتُشفت مقابر أثريّة لملوكهم دُفن فيها معهم أفراد حاشيتهم وبعض من حيواناتهم الداجنة وأموالهم وحليهم وما شابه. والآلهة تقدّم لها القرابين من مال وطعام وحتّى من الآدميّين. ونصّت الألواح الأركائيّة "Archaiques" على الأشياء التي ترتاح لها الآلهة، ومنها الثيران والمعز والضأن والدجاج واليمام والبطّ والسمك والبلح والتين والخيار والزيت والزبدة والكعك.

يرعى الشؤون الدينيّة في المدن السومريّة الكهنة الذين كانوا يعلّمون الناس العلوم ويلقّنونهم الأساطير. وما من شك في أنّهم كانوا يتّخذون من هذه الأساطير سبيلاً إلى تعليمهم ما يريدون وإلى إحكام سيطرتهم عليهم. وكانت تلحق بالهياكل مدارس يعلّم فيها الكهنة الأولاد والبنات، الخطّ والحساب والوطنية والصلاح والهندسة.

الكاهن الأكبر "إين En" هو حاكم المجتمع المعبديّ ومعه كان يجمع أيضًا السلطة الزمنيّة حتّى بدأ الإنفصال بين الوظيفتَين في وقت متأخّر من عصر فجر السلالات السومريّة، حين ظهر، إلى جانب الكاهن الأعلى، حاكم زمنيّ "إنسي Ensi" وأعقبه ظهور الملك "لوكال".

وكان المعبد مركز الحياة الحضاريّة منذ ظهور أولى المستوطنات في السهل الرسوبيّ في الألف الخامس ق.م.، وفي كنفه ظهر أعظم اختراع حضاريّ منذ منتصف الألف الرابع ق.م، وهو الكتابة لتدوين واردات المعبد وأملاكه والقرابين التي تقدَّم له. وقد أثرى الكهنة من هذه القرابين حتّى أضحوا أكثر الطبقات مالاً وأعظمها قوّة في المدن السومريّة.

وكان يتّصل بالمعبد نساء "خادمات المعبد" ومنهن سراري للآلهة وللكهنة. ولم تكن الفتاة السومريّة ترى شيئًا من العار في أن تخدم الهياكل على هذا النحو. وكان أبوها يفخر بأن يهب جمالها ومفاتنها لتخفيف ما يعتري حياة الكهّان من الملل. من هنا نشأ البغاء المقدّس الذي بقي حتّى ما بعد المسيح، وندّد به بولس الرسول في رسائله إلى أهل كورنثوس.

هـ - الشياطين والغيلان

إعتقد أهل بلاد الرافدين أنّ في الكون قوى فوقيّة، منها ما هو للخير ومنها ما هو للشر. ومنها الشياطين الذين يلاحقون الإله دموزي (تمّوز) للقضاء عليه، والغيلان الذين لا ينامون وليس لهم امرأة لم تفقد بكارتها، ويعيشون في الأمكنة المهجورة. وكل واحد من الغيلان مسؤول عن مرض من الأمراض. وكان المريض يحتمي بالآلهة أو بالطبيعة اتقاءً لخطرهم، ويمارس أحيانًا الرقى التي كان يردّدها الكهنة:

"السيد العظيم إنكي أعطاني تفويضًا،
"فجعل لعنته المقدّسة مع لعنتي،
"ووضع فمه المقدّس في فمي،
"كما وضع سحره مع سحري،
"وشفاعته وضعها مع شفاعتي،
"وبالتأكيد، سيترك الذي في جسد الرجل المريض المعبد
"وبالترنيم للإله ابا، عسى الأمراض هذه أن تطرد"[1].

التراث الدينيّ البابليّ

أخذ البابليّون التراث الدينيّ السومريّ وطوّروه فبلغوا فيه درجة متقدّمة، وأمسى الكهنة يمثّلون سلطة القانون والهياكل مقرًّا للمحاكم. وعرف البابليّون التحكيم الإلهيّ للدلالة على براءة المتّهم أو إثبات التهمة عليه.

سلطة الملك البابليّ كانت مستمدّة من إله المدينة الذي كانت تُفرض الضرائب باسمه. ولم يكن الملك يُعدّ ملكًا إلاّ إذا خلع الكهنة عليه سلطة "مردوك".

كانت الآلهة كثيرة العدد، إذ بلغت، في القرن التاسع ق.م، ما يقارب خمسة وستّين ألفًا، فكان لكلّ مدينة آلهتها التي تخضع للإله الأعظم. أقدمها إله السماء "آنو" وإله الشمس "شمَس" وإله القمر "تنار" وإله الأرض "بعل".

---

١ Bolangdon Steeven, *semitic*, ed. Archeological Institute of America, *The Mythologie of all Racesston* (1931) P. 107.

ولم يعرف البابليّون دين التوحيد كالفينيقيّين رغم اعتمادهم إلهًا أعظم هو "مردوك" إله بابل وإلى جانبه "إشتار" أي النموذج البابليّ لأفروديت اليونانيّة ولعشتروت الكنعانيّة. وكانوا يمجّدونها بتسبيحاتهم وكأنّها مرفوعة إلى مريم العذراء.

واتّخذ البابليون شخصيّات للآلهة نسجوا حولها الأساطير التي أخذها العبرانيّون وأصبحت جزءًا من القصص الدينيّة، كقصّة الخلق التي كُتبت على سبعة ألواح، وكلّ يوم من أيّام الخلق على لوح، وُجدت في خرائب مكتبة أشور بانيبال، وقصّة الطوفان وموت الإله تمّوز وانبعاثه حيًّا.

وقدّم البابليّون القرابين للآلهة، من المواشي والجواهر وخيرات الأرض، وكانوا يقتسمون أرباحها مع الآلهة التي بنوا لها الهياكل وأمدّوها بالأثاث والعبيد والطعام ووقفوا عليها مساحات واسعة من الأرض. وبعد كلّ معركة رابحة كان أوّل سهم من الغنائم والأسرى من نصيب الهياكل التي تكدّس في خزائنها الذهب والفضّة والجواهر والأخشاب والثروات، فأصبح الكهنة أكبر الملاّكين الزراعيّين والصناعيّين والماليّين في بلاد بابل.

وكان للكهنة نفوذ كبير لدى الاهالي يفوق أحيانًا نفوذ الملك، وشكّلوا هيئة دائمة لوضع خطط طويلة الأمد، ممّا جعل لهم سلطانًا فوق كلّ سلطان. ومن الإحتفالات التي تُظهر أهمّيّة الكاهن نذكر عمليّة تقدّم الملك من الإله بواسطة الكاهن ليغفر له خطاياه، والتي تماثل حاليًّا سرّ الإعتراف لدى الطوائف المسيحيّة. وتقضي هذه العادة بأن يقوم الكاهن بسؤال الملك عمّا فعل من شرٍّ وعمّا أهمل من واجباته الملكيّة والدينيّة وإعلامه أنّ الإله سيستمع إلى صلواته ويباركه. فإذا طفرت الدموع من عينَي الملك فذلك يعني أنّ الإله رضي عنه، وإلاّ فإنّه ينوي نزع ملكه منه.

وعرفت المعابد عادة تقضي بأن تجلس كلّ امرأة بابليّة في هيكل الزهرة مرّة في حياتها وأن تنتظر أول رجل غريب يختارها ويلقي قطعة من الفضّة في حجرها ويضاجعها خارج المعبد قبل أن تعود إلى بيتها. كما عُرف البغاء المقدّس وعاهرات المعبد، ومنهنّ من كانت تحصل على بائنتها من الدعارة المقدّسة هذه.

الأدب والملاحم

ملحمة جلجميش

عرف البابليّون مفهوم المصير مع الخضوع الكلّيّ للقدر والعلاقة الخاصّة بين الآلهة والبشر، من خلال طبيعة ما وصف به الأدب الأسطوريّ السومريّ والبابليّ، وعلاقات الآلهة في فرحها وغضبها، المشابهة لعلاقات البشر مع بعضهم بما فيه قصّة الخلق والتكوين وقصّة عشتار وتمّوز وبطولات مردوخ وغيرها.

وأبرز ما وصلنا من الأدبّ البابليّ الميثولوجيّ ملحمة جلجميش التي تُعتبر اقدم الملاحم التي عرفها الأدب الإنسانيّ، إذ إنّها سابقة للملاحم اليونانيّة بحوالي ألف وخمسماية سنة. وهي اشتملت على رؤية متقدّمة في فلسفة التاريخ الإنسانيّ وعلى تصوّر عميق لفلسفة الحضارة الإنسانيّة، فضلاً عن احتوائها على كنز من الدلالات التاريخيّة والدينيّة والسياسيّة والأخلاقيّة[1].

هذه الملحمة هي من أصل سومريّ أُضيفت إليه تعديلات وزيادات أكاديّة وبابليّة. وهي تبدأ بوصف جلجميش المكوّن من ثلثَي إله وثلث إنسان متفوّق على أقرانه، ممّا

---

١ ـ ملحمة جلجميش، ترجمة توما الخوري، دار الحكمة، (بيروت، ١٩٨٣)

يجعله يستبدّ، فيتذمّر سكّان مدينــة أوروك إلــى "آنـو" إلـه السماء، فتقوم الإلهـة "أورو" الخالقة بخلق نسخة أخرى عنه تنافسه. لكنّ النسخة الجديدة التي دُعيت "انكيدو" كـانت متوحّشة، لذلك بدأ صـراع بينهمـا مثل الصـراع الـذي نشـب بيـن الشـعوب السـومريّة المتحضّرة والشعوب الساميّة البدويّة التي غزت بلاد ما بين النهرين.

الأمثولة الثانية من الملحمة جاءت على لسان جلجميش الذي راح يتساءل عن سـرّ الخلود موجّهًا الحديث إلى صديقه "انكيدو":

"مَن يستطيع التسلّق إلى السماء، يا صديقي؟

"الآلهة وحدهم يعيشون خالدين تحت الشمس،

"أمّا البشر، فأيّامهم معدودة،

"وكلّ ما يعملونه ليس إلاّ كالريح،

"وحتّى هنا فأنت تخشى الموت،

"فما فائدة عنفوان بطولتك؟"

ومع تأكّد جلجميش من أنّ الخلود وقف على الآلهة وليس على البشر، نراه يتمـرّد على الإلهة عشتار رافضًا إقامة علاقة جنسيّة معها. ويظهر هذا التمرد كأنّه ثورة على أحد طقوس الزواج المقدّس التي كانت متّبعة في بلاد ما بين النهرين.

اللوحة الأخيرة من الملحمة تمثّل محـاولات جلجميش الحصـول علـى الخلـود مـن خلال استشارة "أوثانبيشتيم" بطل الطوفان والذي يقابل نـوح فـي العهـد القديـم. وخـلال تفتيشه يتلقّى الحكمة من امرأة ساقية خاطبته قائلة[١] :

---

١ ـ ملحمة جلجميش، المرجع نفسه.

"أينما تجولت يا جلجميش،
"فالحياة التي تبحث عنها لن تجدها،
"لأنّ الآلهة عندما خلقوا البشر،
"جعلوا الموت نصيبهم، وأبقوا مصير الحياة في أيديهم."

لا يستمع جلجميش للنصيحة ويتابع تفتيشه عن الخلود فيكشف له "أوتانبيشتيم" سرًّا الهيًّا وهو وجود نبتة في أعماق البحر تجدّد شباب الإنسان. وبعد عناء كبير يحصل جلجميش على النبتة ، إلاّ أنّه، وأثناء عودته، يضعها قرب بحيرة وينزل إلى المياه ليستحمّ فتسرق حيّة ضخمة النبتة. وهكذا يعود جلجميش فاشلاً من رحلته ليطلق الحكمة النهائيّة من ملحمته والتي هي أنّ الإنسان لا يمكن أن يحصل على الخلود الذي هو فقط من صفات الآلهة.

وهكذا يظهر أنّ هذه الملحمة عمل تاريخيّ مهمّ يمجّد شخصيّة من أهمّ الشخصيّات التاريخيّة التي عاشت في بلاد ما بين النهرين حوالى الألف الثالث ق.م. لقد أثبتت الآثار والوثائق الوجود التاريخيّ لجلجميش الذي يحتلّ المركز الخامس في قائمة ملوك سومر الذين حكموا مدينة أوروك، والذي امتدّ حكمه ما يقارب ١٢٦ عامًا، ثم أصبح، بعد وفاته، البطل المطلق للأسطورة السومريّة، فنُظمت فيه القصائد والملاحم.

مردوك في ملحمة التكوين البابليّة

تُعتبر ملحمة التكوين البابليّة أعظم الملاحم الرافديّة على الإطلاق، وتدور وقائعها في بابل، مدينة مردوك المقدّسة، حيث بنى منزله الفخم فوق نهر "الأبسو Apsou" حيث تجتمع الآلهة كلّ مساء لترتاح.

وتبدأ الملحمة بهذه الكلمات:

"عندما لم تكن قد سُمّيت بعد السماوات في الأعالي

"ولا الأرض تحت أُعطيت اسمًا...."

وتعزّز الملحمة مكانة الإله مردوك وتجعل منه محور تفاعلها. فهو الذي قام بمختلف لأدوار في الخلق وحافظ على لوحات المصير.

١) اللوحة الأولى، من اللوحات السبع التي اكتُشفت في مكتبة "اشوربانيبال" وترجمها البريطانيّ جورج سميث ونشرها سنة ١٨٧٦، ترسم صورة الكون حيث المياه الأوّليّة وهي عنصرَين أساسيَّين:

الذكر: "أبسو Apsou"، أي المياه العذبة؛ والأنثى: "تيامات Tiamat"، أي المياه المالحة.

ومن اتّحادها وُلد إلهان، (ملتقى البحر بالنهرَين)، "لهمو Lahmou" و"لهامو Lahamou".

ومن هذَين الإلهَين تولّد الافق الدائريّ للسماء والأرض: "أنشار Anchar" و"كيشار Kichar".

وعن اتّحاد "أبسو" و"تيامات" تولّد أيضًا "مومو Moummou" أي الأمواج الصاخبة، ومن هذه الأخيرة تولّدت باقي الآلهة. ومومو هذا كان وزيرًا لـ "أبسو".

وعن "أنشار" و"كيشار" تولّد "أنو Anou" السماء و "نوديمود Nudimoud" الأرض، ومن هذَين الأخيرَين وُلد "مردوك".

٢) اللوحة الثانية تصف مجمع الآلهة ومناقشاته لمواجهة "تيامات" أي "المياه المالحة"، التي أخذت تتهيّأ للقتال.

واستقرّ الرأي على تكليف مردوك بهذه المهمّة الذي طلب أن يكون على نفس الأهميّة التي تتمتّع بها سائر الآلهة:

"... كلمتي تحلّ مكانك في تقرير المصير

"ما تلفظه شفتاي لا يتغيّر أبدًا ولا ينقص...".

٣) اللوحة الثالثة تخبر عن موافقة مجلس الآلهة على شرط مردوك.

٤) اللوحة الرابعة تبدأ بتتويج مردوك ملكًا وإعطائه الرموز الملكيّة، فيتسلّح بقوس وسهم وهراوة في يده اليمنى، والبرق أمامه، وفي جسده تضيء شعلة لا تنطفئ، ووضع شبكة ليصطاد بها "تيامات". وأخذ أسلحة وصعد إلى عربته العاصفة تجرّها أربعة أعاصير: القاتل وغير الرحوم والراكض والمجنّح.

وقتل مردوك "تيامات" وشق جسدها إلى اثنَين، وضع الجزء الأول منه فوق الأرض كالسماء ودعّمه بألواح ووضع عليه حرّاسًا مشدِّدًا عليهم بعدم السماح لمياهها بالشرب.

٥) اللوحة الخامسة تهتمّ بتنظيم الكون واهتمام مردوك كملك على بابل بروزنامة السنة وفق الأشهر على أساس تغيّر القمر، وبتنظيم المسارات الكوكبيّة الثلاثة، مسار "إنليل" في الجنّات الشماليةّ، ومسار "أنو" في السمت "Zenith"، ومسار "إيا" في الجنوب. أمّا كوكب المشتري فقد وُضع بتصرّف النظام السماويّ.

٦) اللوحة السادسة تقدّم وصفًا لخلق الكون. وتذكر، كالملحمة السومريّة تمامًا، أنّ الإنسان وُجد أصلاً لخدمة الآلهة وتأمين قوتهم اليوميّ.

٧) أمّا اللوحة السابعة فتنتهي بذكر أسماء مردوك الخمسين.

وهكذا تنتهي ملحمة التكوين البابليّة.

مقارنة مع الملاحم الأخرى

إذا قابلنا بين هذه الملحمة والأساطير الإغريقيّة التي تتكلّم عن سرّ التكوين، للاحظنا التشابه الكبير، ما يعني أنّ الحضارات المتتابعة أخذت عن بعضها البعض وصولاً إلى الديانات السماويّة.

أسطورة التكوين الإغريقية جاءت على لسان الشاعر "هزيود"، الذي بدأ سرده بهذه الجملة التي تشبه بداية سفر التكوين في العهد القديم[1]:

"في البدء وُجد الخواء"

بعد الخواء تأتي "هيا" الأرض، و"ترتاروس" العالم السفليّ، و"إيروس" الرغبة أو إله الحبّ وفق أفلاطون، ثمّ "إيروبوس" ظلمة العالم السفليّ والليل ظلمة الأرض. وعن "إيروبوس" والليل يتولّد الأثير، الهواء الأعلى المضيء والنهار أو النور.

عن "هيا" تولّد "أورانوس"، الذي يلفّ الأرض ويحيط بها كليًّا، فيكون المنزل الآمن للآلهة. ومن ثمّ تولّد عنها الجبال والبحر والمياه.

أمّا سفر التكوين في العهد القديم فيذكر[2]:

"في البدء خلق الله السموات والأرض. وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة، وروح الله يرفّ على وجه المياه. وقال اللّه: ليكن نور فكان نور. ورأى اللهّ النور أنّه حسن، وفصل بين النور والظلمة. ودعا اللّه النور نهارًا والظلمة دعاها ليلاً....."

---

١ - Graves Robert, *Les Mythes Grecs*, tome I, Ed. Fayard (Paris, 1967)

٢ - العهد القديم.

الرواية الأولمبيّة تذكر التكوين كالآتي:

"في البدء انبثقت الأرض الأم من الخواء ووضعت ابنها أورانوس أثناء نومها. ومن الأعالي نظر أورانوس إلى والدته النائمة وأنزل عليها مطرًا مخصبًا، ومنها تولّد العشب والزهر ولأشجار وكلّ الحيوانات وكلّ الطيور. وملأ هذا المطر الوديان والحفر فكان البحر والأنهر والبحيرات...".

ونورد أيضًا رواية فلسفيّة إغريقيّة حول الموضوع ذاته، جاء فيها:

"في البدء كانت الظلمة، ومن الظلمة الخواء، ومن اتّحادهما تولّد الليل والنهار وظلمات الجحيم السحيقة والهواء.

من اتّحاد الليل وظلمات الجحيم الساحقة تولّد المصير والشيخوخة والموت والاغتيال والعفّة والنوم والأحلام والخلاف والألم والطغيان والفرح والصداقة والعزاء. ومن اتّحاد الهواء بالأرض الأمّ تولّد الرعب والمهارة والغضب والكذب والانتقام والنسيان والخوف والاعتداد والقتال والمحيط والجبابرة.

ومن اتّحاد البحر والأنهر ولدت آلهة بحريّة ـ حوريّات البحر الأبيض المتوسّط ـ منزلهنّ قعر البحر في قصر مشعّ بالأنوار..."

كلّ هذه الروايات التي ركّزنا عليها تُظهر بما لا يقل الشك أخذها عن بعضها البعض. فمصدر الميثولوجيا والأساطير واحد، بدأ في بلاد ما بين النهرين وامتدّ إلى الشرق الأدنى وبلغ أوروبّا مع الإغريق.

نموذج عن ملاحم ما بين النهرين:

ملحمة جلجميش: الصراع مع القدر

هذه الملحمة الطويلة هي من أصل سومريّ، أُضيفت إليه زيادات وتعديلات أكاديّة. وعنوانها الأكاديّ يوحي بالغاية التي وُضعت لأجلها "شا نقب أمورو" أي الذي ينقِّب عن كلّ الأمور.

تبدأ الملحمة بوصف جلجميش بأنّه مكوّن من ثلثَي إله وثلث إنسان. ولذلك هو متفوّق في كلّ شيء. وهذا التفوّق يجعل لجلجميش امتيازات، فيصل بعدها إلى الاستبداد، بحيث أصبح يسلب الآباء أبناءهم والأمّهات بناتهنّ والأزواج زوجاتهم. فيعلو التذمّر ويستمع الإله "آنو" لشكوى سكّان مدينة "أوروك". وعندئذ تقوم الإلهة "أورورو" الخالقة بخلق "نسخة" أخرى عنه، لها نشاط مثله، كي يتنافسا وتحصل المدينة على الاستقرار بينهما.

تأخذ "أورورو" طيناً وتصنع إنساناً يُدعى إنكيدو. ويكون هذا الانسان بدائيًّا متوحّشاً في البريّة، الشعر يغطّي جسمه، وشعر رأسه كشعر المرأة، ولا يعرف الناس والمدن. كان يسرح مع الوحوش ويرعى الأعشاب كالغزلان، ويرد منابع المياه مع حيوانات البريّة.

وفي أحد الأيّام رآه صيّاد كان ينصب فخاخاً للوحوش، فخاف منه. ولاحظ الصيّاد، بعد ذلك، أنّ جميع الأشراك، التي كان ينصبها فخاخاً، كانت مقطّعة، وجميع الحفر مردومة. وقد تكرّرت هذه العمليّة وأصبح يعود فارغ اليديَن، دائمًا، إلى بيته. فشكا هذا الأمر لوالده، واصفًا له قوّة "إنكيدو" الخارقة. وقد طلب مشورته.

وهنا تبرز الحكمة في حلّ أوّل مشكلة تعترض في القصّة. فالصراع يبدأ بين الحضارة والتوحّش. الحضارة سلاحها الفهم والمحبة، والتوحّش سلاحه العنف. والمبدأ الذهنيّ العامّ كان يعتبر القوّة غير صالحة دائمًا لحسم الصراع. ولذلك كان لا بدّ من البحث عن طريقة متحضّرة لترويض إنسان متوحّش يعيش في الغابة. واهتدى الوالد الحكيم إلى السلاح. فالرجل يخضع للمرأة بالحبّ وليس بالعنف، فنصح ابنه بالذهاب إلى جلجميش وإطلاعه على الموضوع، ثم الطلب إليه أن يرسل معه "حرمتو"، فتاة من نساء الهيكل، اذ هي وحدها تستطيع السيطرة على الرجل المتوحّش.

واصطحب الصيّاد الفتاة معه ونجحت خطّته، إذ ما إن رأى انكيدو الفتاة تبتسم له وتغريه بمفاتنها حتّى أقبل نحوها مستسلمًا خاضعًا. وقد لازمها طول ستّة أيّام، كان يجامعها فيها. وأخيرًا خارت قواه الجبّارة، ولم يبقَ متوحّشًا كما كان، بل اتّسعت مداركه، وظهرت لديه الحكمة، ونفرت منه الحيوانات التي كانت ترافقه عندما حاول الاتّجاه نحوها، فعاد إلى الفتاة يجلس عند قدميها، كما يقول النصّ.

بدأت الفتاة تحدّثه عن مدينة أوروك وعن معبدها، ثم عن جلجميش الجبّار وسطوته، فأثارت غيرته وشعر برغبة في المبارزة مع جلجميش. ولمّا قرّر مرافقتها إلى المدينة، ألبسته قطعة من ثيابها، وقادته بيده، كطفل، إلى كوخ أحد الرعاة، حيث علّمته كيف يأكل ويشرب الخمر، كما يفعل الناس. وقد راح يساعد الرعاة في الحراسة الليليّة، فيقتل الأسود والذئاب التي تنقضّ على القطعان.

وهكذا انتهى أوّل فصل من الصراع بانتصار المدنيّة على التوحّش، والمعرفة على الجهل بواسطة سلاح المرأة، الذي هو الجنس والإغراء والحبّ.

أمّا الموقف الثاني في الصراع فكان مع جلجميش، وهي الغاية التي خُلق إنكيدو لأجلها. فهو خُلق للحدّ من طغيان جلجميش، وليس للقضاء عليه والحلول محلّه. ويحلّ

الكتاب هذه العقدة بأن يجعل إنكيدو يلتقي بجلجميش ويتصارعان صراعًا طويلاً وبعنف، انتهى بأن تصادقا معًا صداقة حميمة، وقرّرا التعاون للقضاء على الأشرار في الأرض وتخليد اسميهما بأعمال البطولة.

ونشأ صراع في نفس جلجميش هو صراع الإنسان مع وجوده ذاته، المحدود بالولادة والموت. إنّه التساؤل. وأوّل تساؤل إنسانيّ مكتوب عن معنى الحياة. فقد وجّه جلجميش هذا الحديث لانكيدو:

"مَن يستطع التسلّق إلى السماء، يا صديقي؟

"الآلهة وحدهم يعيشون خالدين تحت الشمس.

"أمّا البشر، فأيّامهم معدودة.

"وكلّ ما يعملونه ليس إلاّ كالريح.

"وحتّى هنا فأنت تخشى الموت.

"فما فائدة عنفوان بطولتك؟

"دعني أسير أمامك.

"واجعل فمك يصرخ بي: تقدّم ولا تخف.

"فأنا يجب أن أصرع، وسيكون لي اسم:

"سيقولون: جلجميش ـ لقد صرع في القتال مع "هواوا" الشرس،

"حتّى وبعد زمن طويل.

"لقد وُلد لي نسل في منزلي".

لقد غدا إنكيدو حليفًا مخلّصًا وحافزًا له لتخليد ذكره بعد أن حقّق استمرار وجوده كإنسان عاديّ خلال نسله. أمّا "هواوا" هذا، الذي قرّر جلجميش الصراع معه لإثبات بطولته وتخليد اسمه، فهو كائن جبّار ، كان يحمي غابات الأرز التي كانوا يأخذون منها ما يلزمهم من أخشاب لبناء المعابد. وقد حاول إنكيدو ثني صاحبه عن هذه المغامرة، ولكنّه لم يستطع لأنّ جلجميش كان قد ابتدأ نوعًا جديدًا من الصراع، رآه حلاً لمشكلة قلقه أمام المصير. وهذا الصراع هو طموحه إلى المجد وتخليد اسمه. فهو كما قال:

"كذلك الذي يتحدّثون عنه، أنا، جلجميش، سأراه.

"ذلك الذي تضطرب الأرض لاسمه،

"سأقهره في غابة الأرز.

"وكم هم أقوياء أبناء أوروك،

"سأجعل البلاد تسمع.

"(...) وسأجعل لنفسي اسمًا خالدًا".

ويلتقي جلجميش بـ "هواوا" الرهيب، ويبدأ الصراع. ولا يكون الانتصار بغير أسلوب الحكمة ذاتها. فقد هبّت الرياح عاصفة في وجه "هواوا"، وفي عينيه، حيث راحت تضربه فيهما، فتمنعه من الحركة. وعندئذ يستسلم إلى جلجميش، الذي يقضي عليه برغم توسّله كي يبقي على حياته.

وبعد انتصار جلجميش هذا يعود إلى أوروك مع رفيقه ليواجه نوعًا آخر جديدًا من الصراع. وهذه المرّة يكون صراعه مع طقوس الدين في أوروك. ويتشخّص هذا الصراع بالإلهة عشتار. فهذه، بعد أن عاد جلجميش إلى عرشه وتزيّن بتاجه، أبصرته

فهامت به ودعته للزواج منها، كي تحمل منه. وراحت تغريه بما يمكن أن تقدّم له. ولكنّه يرفض، مذكرًا إيّاها بمصير مَن استسلموا لها من المحبّين، وكيف أنّها قضت عليهم جميعًا.

وهنا يبرز تساؤل عن معنى رفض جلجميش: هل كان يرفض اغراءات الجنس والاستسلام لها؟ أم كان يرفض طقسًا من طقوس الزواج المقدّس، الذي يُقام في الهيكل ويمثّل هو فيه دور الإله والكاهنة الكبرى دور الإلهة؟

فهو يكون قد تمرّد إذا كان رفضه يتعلّق بطقوس الهيكل، وهذا ما يفسّر انتقام الإلهة عشتار منه. فهي طلبت إلى الإله "آنو" أن يرسل معها ثور السماء لمصارعة جلجميش. وقد اصطحبت الثور فبدأ الصراع: إنكيدو وجلجميش من جهة، والثور من جهة مقابلة. ويتغلّب البطلان على الثور ويقدّمان قلبه قربانًا للإله "شمش"، الذي رعاهما في رحلتهما، كما يقدّمان ملء قرنَيه من الطيب للإله "لوغال بندا".

وعندئذ تُفجع عشتار بمقتل الثور، وتجمع ذوات النذور ونساء الهيكل وحريمه، على اختلاف رتبهنّ، ليبكين على فخذ الثور الأيمن الذي قذفه إنكيدو في وجهها. بينما أقام جلجميش حفلة كبرى في قصره لهذه المناسبة. وقد ترنّم المغنّون فيها بمجده.

لقد انتصر جلجميش وتمرّد على الإلهة هذه المرّة. ولا بدّ من معاقبته مع رفيقه إنكيدو، إذ للآلهة حرمة ولا يجوز للانسان أن ينتهكها.

وينتقل الصراع إلى قدر الإنسان، إلى الموت وكيف يواجه، فيرى إنكيدو حلمًا مرعبًا، حيث يقرّر مجمع الآلهة أن يموت أحد الرفيقَين عقابًا لهما على قتل ثور السماء وقتل "هواوا". ويقع الاختيار على إنكيدو ليكون الضحيّة، بعد نقاش بين الآلهة.

يسقط إنكيدو مريضًا، ويروح يتأمّل في معنى حياته والأعمال التي حدثت معه. فيبدأ بمخاطبة الباب وكأنّه كائن حيّ، فيتذكّر كيف حمل أخشابه النادرة من مسافات بعيدة. ثمّ يستعيد ذكرياته في الغابة، وكيف أنّ الفتاة "البغي" قادته إلى المدينة، فيصبّ نقمتة عليها. يلعنها ويدعو لأن تحرم من منزل يأوي سحرها، لتكون الطرقات سكنًا لها، وظلال الجدران محطّ رحالها، ويمتصّ السكّير والعطشان وجنتيها.

وأمام غضبة إنكيدو هذه على الفتاة، يحتجّ الإله "شمش" وهو حامي العدالة. فيذكّره بأنّها، إنّما جعلته يأكل طعامًا يصلح للآلهة، ويشرب شرابًا يقدّم على موائد الملوك، ويلبس ثيابًا ممّا يلبسه النبلاء، وجعلته يكون رفيقًا لجلجميش، ويكون جلجميش صديقه الحميم، ويتّكئ على سرير الشرف، ويجلس في المقعد المريح إلى اليسار، بحيث يمكن لأمراء الأرض أن يقبّلوا قدَميه. وهو سيجعل شعب أوروك يبكيه ويندبه بعد موته.

ولمّا يسمع إنكيدو هذا القول يتراجع عن نقمته ويهدأ. ثمّ يقلب لعنته إلى بركة، فيدعو لها أن تكون موضع حبّ الحكّام والنبلاء، ويُعجب بها الناس، فيأتون إليها من مسافات بعيدة. ويسمح لها الكاهن بأن تدخل إلى حضرة الإله، وأن يتخلّى الرجل لأجلها عن زوجته، حتّى ولو كانت هذه أمًّا لسبعة أولاد.

أجاد إنكيدو في وصف الأفكار التي يمكن أن تراود ذهن الإنسان في مواجهة الموت. والحوار مع الإله شمش ليس سوى صراع داخليّ يطرح التساؤل عن قيمة حوادث حياة الإنسان وما هي الخسارة فيها؟ وما هو الربح؟ ومَن هو المسيء" ومَن هو المحسن؟

ويمرض إنكيدو طوال اثنَي عشر يومًا، ثمّ يموت، وهو آسف، لأنّه لم يمت في قتال، لكي يباركَ، بل في فراشه. وهنا يُصاب جلجميش بصدمة وجدانيّة بسبب موت صديقه. فتصوّره لنا النصوص كأوّل عملية انسحاب من نشاط الحياة وعلاقتها. أوّل

انقلاب وجدانيّ في التاريخ، كالذي أصاب القدّيسين الذين انقطعوا إلى العبادة أو كبار رجال الفكر، فتحوّلوا إلى نهج حياة جديد، مثل القدّيسين بولس وأوغسطينوس وباسكال، وكالغزالي وأمثالهم.

ومن خلال تفجّع جلجميش نكتشف المثال الأعلى الذي كان يرافق الصداقة بين رجلَين، حيث تكون هذه الصداقة من العلاقات الرئيسيّة التي تشدّ الإنسان إلى الحياة. فما أن يفقد جلجميش صديقه حتّى يتخلّى عن كلّ مطمع دنيويّ ويصبح مطمحه الوحيد الذي يستحقّ الصراع والتضحية هو البحث عن سرّ الخلود. يذهب في رحلة خطرة بعيدة ليقابل "أوثانبيشتيم" الناجي من الطوفان، ويسأله عن سرّ الحياة والموت. ويكون هذا خلف غابة كثيفة مظلمة يجتاز مَن يريد الوصول إليه خلالها اثنَي عشر فرسخاً دون أن يرى النور.

وأثناء بحثه عن "أوثانبيشتيم"، أي "نوح" السومريّ، يلتقي بالمرأة الساقية "سيدوري"، فتروح هذه تخاطبه بنصائح، هي أنموذج للنظرة الفلسفيّة التي كان إنسان أرض الرافدين القديم يرى بها الكون. إذ بعد أن يروي لها سبب قلقه وتشرّده وحزنه تجيبه بالنصيحة التالية:

"أينما تجوّلت يا جلجميش،

"فالحياة التي تبحث عنها لن تجدها.

"لأنّ الآلهة عندما خلقوا البشر،

"جعلوا الموت نصيبهم، وأبقوا مصير الحياة في أيديهم.

"إملأ بطنك يا جلجميش، ولتكن لك بهجة في الليل والنهار.

"أرقص واعزف. وليكن كلّ يوم كأنّه عيد سعيد.

"(...) دع زوجتك تفرح في أحضانك، لأنّ هذا هو عمل البشر".

ولكنّ مثل هذه النصيحة لم تكن كافية لتهدئة صراع جلجميش وحمل الطمأنينة إليه. فهو تجاوز كلّ بهجة في الحياة، وحقّق كلّ مجد يمكن لإنسان أن يتطلّع إليه. وغدا تطلّعه الملح إلى ما بعد علائق الأرض. لم يبق أمامه سوى الصراع العبثيّ مع المستحيل، بعد أن نجح في كلّ صراع مع الممكن.

كان "أوثانبيشتيم" الخالد يقيم فوق جزيرة بعيدة في البحر، فصنع جلجميش قاربًا وسافر إليه. وعندما التقى به سأله عن كيفيّة حصوله على الخلود مع الآلهة، برغم كونه إنسانًا مثله، فروى له قصّة الطوفان واختيار الآلهة له ليخلد، مبتعدًا عن الناس. ويصف له جلجميش صراعه الداخليّ مع فكرة الموت.

يكشف لنا "أوثانبيشتيم" سرًّا الهيًّا يعرفه، وهو وجود نبتة في أعماق البحر يمكنها أن تجدّد شباب الإنسان الذي يأكل منها، وترجمة اسمها "عودة الشيخ إلى الصبا". ويغوص جلجميش في البحر، فيحصل على النبتة الشائكة، ويعود قاصدًا مدينته. ولكنّ الخلود الذي يبحث عنه هو للآلهة وليس للانسان. ففي الطريق ينزل إلى بئر ليستحمّ ويترك النبتة عند حافة البئر، فتأتي حيّة وتسرق النبتة، فلا يبقى لجلجميش، بعد هذا الصراع من أجل تجديد شبابه، سوى البكاء والأسى.

وهكذا يكون جلجميش فشل في الصراع نصرًا للحيّة التي سرقت النبتة، حيث أصبحت هذه رمزًا لتجدُّد الشباب كلّ سنة عندما يسقط عنها جلدها القديم، بعد أن يكون قد نما لها جلد جديد أكثر حيويّة. وتكون قصّة جلجميش أنموذجًا واقعيًّا للصراع الذي كان يواجه الإنسان، ويرسم له حدود هواجسه وتطلّعاته وأمانيه. وهي وإنْ لم تكن نصًّا دينيًّا يُتلى في المعابد، فهي ملحمة حضارة ضخمة، تعبّر عن نظرة الإنسان لمصيره، حيث ترينا خاتمتها أنّ سهوًا بسيطًا هو الذي أفقد الإنسان خلوده، وحرمه من أمانيه.

وإن يكن هناك من تفسير للتشديد على التوازن في الصراع وعلى دور الحكمة في الصراع، فهذا التفسير لا يأتينا من نضج التجربة الذهنيّة بقدر ما يأتي من عمق التجربة اليوميّة المباشرة، بدون وصاية غيبيّة متعالية، تؤمن بالمعجزات والخوارق. فكما رأينا كأنّ الانسان يعير حكمته الواقعيّة للآلهة ذاتهم في صراعهم، فيتخيّلهم أقرب إليه، وبذلك يجعل نفسه أكثر مسؤوليّة عن قدره وما يطرأ عليه.

الفصل الثاني

عَالَمُ الأسَاطِير

الأسطورة هي تجسيد للحياة الانسانيّة في جميع تطلّعاتها، وهي تعكس مراحل تطوّر الفكر الإنسانيّ مع الزمن منذ أن كانت الآلهة التي تمثّل القوّة السحريّة والغامضة، وحتّى انبعاث الأديان السماويّة المناصرة للإنسان مرورًا بالعهد البطوليّ أو عصر الأبطال.

وهي تستمدّ جمالها من سحر حكايتها وتشويقها وفكرها الإنسانيّ الذي جعل منها نبعًا للفكر والأدب والفنّ. كما أنّها، ومنذ نشأتها، ركّزت على الفضيلة عبر التاريخ ورفضت الشرور. وهذا ما دفع الإنسان إلى التعلّق بها ودرسها والانكباب عليها كونها تنسجم مع مفاهيمه للخير والشر.

كما أنّ الأسطورة تجسّد معاني وتعاليم تتعدّى مفهوم صراع الآلهة أو الأبطال، لتشكّل مدرسة أخلاقيّة وحضاريّة وتربويّة تتعلّم منها الأجيال المتعاقبة. ففي الأسطورة دروس وحكم نتعلّم منها. وفيها عقاب للظالم ومساعدة للملهوف، وكرم وعادات قويمة. ومنها يتعلّم الإنسان فلسفة الحياة والوجود والماورائيّات.

فلقاء الحضارتَين الفينيقيّة واليونانيّة تمثّل بأسطورتَين، الأولى أسطورة "أوروبّا" التي خطفها ربّ الأرباب "زفس" بعد أن تحوّل إلى صورة ثور، والتي ولدت له في جزيرة "كريت" ولدَين هما "رادامانت" و"مينوس" اللذَين قاما بأعمال عظيمة. واللقاء تمّ

في جزيرة كريت أي المكان الذي جرت فيه المواجهة بين الحضارتَين المذكورتَين، ما يؤكّد على انعكاس الواقع على الأسطورة[١].

الأسطورة الثانية تروي وقائع رحلة شقيق "أوروبّا" قدموس للتفتيش عن شقيقته، حاملاً معه الحرف إلى البلاد اليونانيّة ومجسّدًا اللقاء الحضاريّ بين فينيقيا واليونان، أو بين الشرق والغرب، منذ آلاف السنين[٢].

علاقة الإنسان بالطبيعة انعكست أيضًا على الأسطورة: فقد اعتبرت الطبيعة الأمّ التي تعطي الإنسان قوته من خلال الصيد والزراعة. لذلك أضفت الأسطورة على الطبيعة والأرض والريح والبرق والرعد والصاعقة وعالم تحت الأرض وغيرها صفات الألوهة، كما أضفتها أيضًا على الحيوانات التي عايشت الإنسان كالثور والكبش والذئب والنسر[٣].

١ ـ المرحلة الأولى من الأسطورة

هذا ما يفسّر تجسّد الآلهة خلال هذه المرحلة بهيئات مختلفة. فـ "زفس" يظهر في هيئة صخرة، و"هيرا" في هيئة جذع شجرة أو لوح خشبيّ، و"أبّولون" في صورة حجر، وأخته "ارتميدا" بهيئة عمود خشبيّ، و"أثينا" بهيئة قطع من الخشب... الخ.

ونُسبت أيضًا القوى السحريّة إلى جماد الأشياء التي استخدمها الأبطال مثل هرقل وسهامه المسمومة، والسلاسل التي قيّد بها "زفس" "هيرا" لترويضها، والملابس التي

١ ـ حاتم د. عماد، أساطير اليونان، الدار العربية للكتاب (ليبيا، ١٩٨٨) ص ٢٠٤ ـ ٢٠٦.

٢ ـ حاتم، أساطير اليونان، مرجع سابق، ص ٢٠٧ ـ ٢١٢.

٣ ـ الحوراني د. يوسف، البنية الذهنيّة في الشرق المتوسّطيّ الأسيويّ القديم، دار النهار (بيروت، ١٩٢٢) ص ٤٢ ـ ٤٦.

قدّمها قدموس هديّة زواج لزوجته والتي وُهبت لاحقًا لمعبد دلفي، وأسلحة أخيل وعربته التي صنعها له إله الحدادة والنار "هيفست".

كما نُسبت هذه القوى إلى النباتات فتأثّرت أشجار الكرمة بعبادة "ديونيسيوس"، واعتُبرت شجرة الدلب تجسيدًا لبعض الآلهة كأبّولون وهرقل، وأشجار السرو رُبطت باحتفالات الوفاة فأصبحت تُصنع منها توابيت الموتى. وكما رُبط اسم "زفس" بشجرة البلّوط وضعت "لاتونا" طفلَيها "أبّولون" و"أرتميدا" تحت أغصان شجرة الغار فأصبحت هذه الشجرة تمثّل الانتصار وتكريم الأبطال العائدين مظفّرين من ساحات القتال.

وكما ظهر النبات في الأسطورة، نُسبت إلى الحيوان خواصّ سحريّة ولعب بعضه أدوارًا مهمّة كالحيّة في ملحمة جلجميش التي ابتلعت زهرة الخلود التي أحضرها البطل الأسطوريّ[1]. والحيّة هذه التي كانت أوّل المخلوقات الحيوانيّة، نُسبت إليها قدرات سرمديّة هائلة اعتُبرت تجسيدًا لقدرة الأرض وحكمتها، فجعلها الإغريق مرافقة لأثينا واتّخذ هيئتها عدد من الأبطال كقدموس وزوجته.

كذلك الطيور كعقاب زفس الذي هو زفس نفسه، وطيور البجع والغربان والخيول والنمور والذئاب والفهود التي أصبحت مرافقة للآلهة وارتبطت بهم. وهذه القوى السحريّة أُضيفت أيضًا إلى أعضاء الجسم البشريّ كهامة "أورفيوس" و"زفس" وفروة أسد "تيميا" التي حمت "هرقل"، وجلد "مارسياس" الذي علّقه "أبّولون" في مغارة فأصبح يتحرّك راقصًا عند سماع المزمار، وعين السيكلوب التي تحمل قوّة سحريّة، وأنياب التنّين التي ولدت محاربي قدموس الأبطال.

---

١ ـ ملحمة جلجميش، مرجع سابق.

هذه المرحلة الأولى من مراحل الأسطورة انتهت ببدء الوعي وتكوّن المجتمع البشريّ المفكّر. لكنّ الأسطورة، بمفهومها الأفضل، لم تكن قد بدأت خلال هذه المرحلة.

٢ ـ المرحلة الثانية من الأسطورة

مع المرحلة الثانية من مراحل الأسطورة ظهرت الزراعة وتدجين الحيوان بهدف تحسين وضع الإنسان الذي بدأ بفصل الروح عن الشيء الذي تمثّله. هذه الروح التي دُعيت الشيطان أو العفريت أو التابع، تطوّرت في ما بعد لتصبح "زفس" أو "أبّولون" أو "أرتميس" أو غيرهم. كما أصبح الجماد يملك قدرات خارقة يمكنها شفاء المرضى وإعطاء الحياة، كرمح "أخيل" الذي شفى جرح "تيليف"[1].

وهكذا بدأ الاعتقاد بعالم الأرواح التي تجسّدت على مرأى الإنسان مثل ثيران "هيليوس" التي غضبت الآلهة على أصحاب "أوديسيوس" لأنّهم ذبحوا بعضها. أمّا "بينيلوب"، فقد تحدّثت إليها الأرواح وأعلمتها عن الكوارث التي ستحلّ بطروادة. كذلك ولدَا "أوديب" اللذان دفعتهما الأرواح الشرّيرة التي تسكنهما إلى التناحر، و"أندروماك" التي رأت الروح التي أدّت بها إلى العبوديّة.

والأرض الأم اعتُبرت أيضًا مختصّة بالقوّة الروحيّة العظمى تهبها إلى أبنائها الذين يخرجون من جوفها. ففي قلب الأرض يظهر "زفس" لـ "دانايا" في صورة مطر من ذهب ويستولدها البطل "بيرسيوس". أمّا النبع السحريّ النابع من الأرض، فإليه تهبط "هيرا" وتستحمّ فتعود عذراء دائمًا. وقد نشأ عن الأرض أرباب أرضيّون

---

١ ـ إلياذة هوميروس، مرجع سابق.

ومخلوقات شرّيرة مخيفة، كالكلب "كيربير" والأفعوان "ليرنا" والثعابين التي تُخرج اللهب من أفواهها، وأبو الهول الذي يفتك بأعدائه، والحصان المجنّح "بيجاسس".

خلال هذه المرحلة سيطرت فكرة الأرض ـ الأمّ العظمى وذلك قبل سيطرة "زفس" ربّ الأرباب والآلهة الأولمبيّة. وسبق اليونان إلى هذا الاعتقاد الفينيقيّون في أسطورة أدونيس وعشتروت وعودة أدونيس مع عشتروت من باطن الأرض في الربيع، حيث اعتبرت الأرض أنّها الأمّ العظمى. وترافق هذا الاعتقاد مع مرحلة الأمومة التي سادت المجتمعات البشريّة البدائيّة والتي سبقت مرحلة الأبوّة ومرحلة العائلة التي تتألّف من الأب والأم والأولاد[1]. وتمثّل مرحلة الأمومة صورة الأمازونات المحاربات اللواتي تصدّين لـ "أخيل" في الإلياذة وساعدون الطرواديّين[2]، كما قاتلوا هرقل وتيسيوس أيضًا.

وخلال مرحلة الأمومة هذه تقبّل الفكر البشريّ انتساب كثيرين من الآلهة إلى أمّهاتهم كـ "أبّولون" و"أخيل"، وزواج آخرين زيجات غريبة كزواج "زفس" من شقيقته "هيرا"، و"ريّا" من ابنها "أوران"، وأبناء "ريّا" من بعضهم. هذه الفكرة من زواج الأقارب رفضها المجتمع اليونانيّ اللاحق فأُدين زواج أوديب بوالدته.

٣ ـ المرحلة الثالثة من الأسطورة

أمّا المرحلة الثالثة من مراحل الأسطورة، فقد ارتقى خلالها الفكر البشريّ من مرحلة القتل والعنف إلى استقلال الإنسان وأساطير الأبطال الأفراد الذين تدور القصّة

---

١ ـ ريحانا العميد د. سامي، شعوب الشرق الأدنى القديم، دار نوبليس (بيروت) ص ٢٤.

٢ ـ إلياذة هوميروس، مرجع سابق.

حولهم كملحمة جلجميش وقصص هرقل وزفس وتيسيوس، وحيث تسود العلاقات بين القوى مراحل من العداء ومراحل من الصداقة، وحيث يتصدّى البطل للقوى الشرّيرة في سبيل حماية المجتمع والأفراد.

وخلال هذه المرحلة، ومع انتقال المجتمع نهائيًا إلى مرحلة سيادة الأب، اتّخذت الأسطورة شكلها النهائيّ مع ظهور مفهوم المدينة التي تحوي تجمّعًا سكنيًا كبيرًا. وسيطر الإله الذكر "زفس" على جميع القوى الشرّيرة وحارب العمالقة والجبابرة وأدخلهم باطن الأرض قبل أن يتربّع سعيدًا على عرش الأوليمب، تعاونه الآلهة ويتغنّى به الشعراء.

كما ظهرت أيضًا القوى الأولمبيّة والآلهة الإنسانية التي انسجمت مع الأدوار الجديدة، فسيطرت الآلهة الذكور، فيما تخصّصت الإلهات بشؤون نسائيّة كالزواج والإخصاب والمواسم والحبّ والجمال والحكمة. فـ"هيرا" أصبحت حامية الزواج، و"ديميترا" مخصبة الزرع، و"أفروديت" إلهة الجمال والحبّ، و"أثينا" ربّة الحكمة الجميلة.

ومع خلق "زفس" لـ "بندورا" الفاتنة، التي أطلقت الشرور في العالم بعد فتحها صندوقها، انتهى عهد سيطرة الأمّ نهائيًا وبدا المجتمع الذكوريّ في أبرز حلله، وراحت الآلهة تظهر بمظهر المهتمّ بأمور البشر وحاميهم وميسّر زراعاتهم. لقد قدّم "برميثيوس" النار للبشر وعلّمهم معالجة الأمراض، وبنى "بوسيدون" و"أبّولون" أسوار طروادة، وأخضع "أورفيوس" الطبيعة والوحوش لموسيقاه، وروّض "هرقل" أفراس "ديوميد" الجامحة.

وبدأ الإنسان يسيطر على الكون في الأسطورة، فقام هرقل بالقضاء على الشرور، وذلك في سبيل سعادة الإنسان وإيمانه بالقوّة التي لا حدود لها. وارتفع هرقل

الأسطورة إلى مراتب الآلهة، فاستطاع أن يرفع القبّة السماويّة على منكبَيه بعد أن سلّمه إيّاها "أطلس". وهكذا لم تعد دنيا الأرض تتّسع لطموح الإنسان والآلهة الذين تعدّوا حدود اليونان، مع أسطورة سفينة "أرغوس"، إلى حدود القوقاز لجلب الجزة الذهبية[1]، ومع حصار طروادة الكائنة على الجانب الشرقيّ من المضائق.

كلّ هذه المراحل اجتازتها الأسطورة، قبل أن يكتشف الإنسان أنّه سيّد وأنّ الآلهة هي وثنيّة راح يصوّرها باستهزاء في مسرحيّات "أسخيل" وبانتقاد في أدب العهد الهلَينيّ المتأخّر. حتّى الآلهة راحوا يختلفون مع بعضهم وينصرفون إلى الطعام والشراب ويهملون واجباتهم، فيتحدّاهم أبطال من بني الإنسان. وهكذا شتم "أخيل" "أبولون" لإخفائه "هكطور"، وحارب "ديوميد" "آريس" وجرح "أفروديت".

٤ ـ الناحية الإنسانيّة للأسطورة

هذه المواقف تظهر نفسًا جديدًا في الأساطير اليونانيّة؛ كما تظهر الحكمة والعلم والمعرفة والخبرة. فـ "هاديس" أحضر زوجته من الجحيم، لكنّه نظر إليها قبل وصوله إلى وجه الأرض، خلافًا لتوصيات الآلهة، فعادت إلى الجحيم[2]. وفي ذلك من الحكمة ما يظهر قسمة الإنسان على هذه الأرض، وأنّ عليه أن يقبل حقيقة الموت كما هي. كذلك جلجميش الذي قاسى الأهوال للحصول على زهرة الخلود، لكنّه فقدها قبل عودته إلى "أوروك" ممّا أكّد له عدم إمكان وصول الإنسان إلى الخلود[3].

---

١ ـ حاتم، أساطير اليونان، مرجع سابق، ص ٣٤٧.

٢ ـ للمزيد من التفاصيل حول هذه الأسطورة، راجع الملحق الثامن في هذا الكتاب.

٣ ـ ملحمة جلجميش، مرجع سابق.

أمّا "بندورا" الحسناء، التي فتحت الصندوق دون أن تعرف محتواه وطارت منه الشرور، فإنّها أقفلته بسرعة فبقي فيه الأمل الذي يرافق الإنسان في جميع مراحل حياته. "أوديسيوس" من جهة، لمّا لم تعرفه زوجته "بينيلوب"، كشف لها عن سرّ مخدعهما الزوجيّ الذي لا يعرفه سواه، وهذا يعكس حكمة أنّ لكلّ زوج وزوجة سرّهما الخاصّ. حتّى "زفس"، استعمل الجمال والقوّة والحكمة لإغواء المرأة[1].

للمواقف الإنسانيّة العاطفيّة أيضًا دور في عالم الأساطير، ممّا يساهم في طبع الآلهة بطابع الإنسانيّة، خاصّة بعد تزايد أعداد الأبطال أنصاف الآلهة في الميثولوجيا اليونانيّة. وهذا ما صبغ عالم الآلهة بالعاطفة والحبّ والمشاعر التي نجدها طبيعة في عالمنا الأرضيّ. ضمن هذا الإطار نجد الآلهة، أحيانًا، كالبشر يتفجّعون لفقد ولد أو حبيب ويتألّمون لفراقه ويفرحون للقائه أو لانتصاره في الحروب[2]. كما أخذت الآلهة، ضمن هذا الإطار، أشكال البشر، ممّا رفع هؤلاء إلى مصافهم ومنحهم أهميّة كبيرة[3].

هذه الناحية الإنسانيّة، التي صنعت عالم الأساطير، ساهمت في انتشاره وفي دخوله المجالات الأدبيّة والفنيّة، في العالم القديم، حيث درجت الأناشيد والملاحم التي دمجت عالم الآلهة بالعالم الأرضيّ مستعملة نوعًا من الرهبة والتشويق على قصصها وأخبارها. وهذا ما ساهم في تخليد أبطال الميثولوجيا في الأدب والشعر، وحتّى الفنّ، حيث رأينا العديد من التماثيل والتيجان والأعمدة والرسوم والأشكال والكؤوس والمزهريّات وأواني الزينة، وكلّها مستوحاة من عالم الميثولوجيا والأساطير[4]، وكلّها

---

١ ـ فرجيل، الانياذة، ترجمة عنبرة الخالدي، دار العلم للملايين (بيروت، ١٩٧٥) ص ١٢٣ ـ ١٢٥.

٢ ـ فرجيل، الانياذة، مرجع سابق، ص ١٢٣ ـ ١٢٥.

٣ ـ الالياذة، مرجع سابق، ص ١١٥.

٤ ـ ريحانا، شعوب الشرق الأدنى القديم، مرجع سابق، ص ٢٣٠ ـ ٢٣٢.

تجسّد معاني إنسانيّة كالأمومة والعظمة والمجد والفرح والحزن والأسى والتفجّع والغناء والرقص وغيرها ممّا عرفه عالم الآلهة والأبطال أنصاف الآلهة.

أخيرًا نرى أنّ عالم الأساطير والميثولوجيا كان نتيجة حتميّة لتطوّر فكريّ وفلسفيّ وحضاريّ طويل، بدأ لدى حضارات بلاد ما بين النهرين، من السومريّين والبابليّين والحثيّين والآشوريّين، مرورًا بعالم البحر المتوسّط الشرقيّ، من الكنعانيّين والآراميّين والفراعنة، وصولاً إلى العالمَين الإغريقيّ والرومانيّ حيث اكتملت مظاهر العالم الميثولوجيّ بشكل يدعو إلى الإعجاب.

الفصل الثالث

إرتباط الدّيانة بالجنس المقدّس

إرتبط الدين القديم، منذ نشأته، بالجنس والخصوبة، ورافقت هذا الإرتباط ممارسات وشعائر أظهرت أهمّيّة المحافظة على الجنس البشريّ من خلال عمليّة التوالد. وتخيّل الإنسان القديم أنّ الآلهة قد يتّصلون مباشرة بالناس في عمليّة الجنس إذ جاء في سفر التكوين:

"إنّ أبناء اللّه رأوا بنات الناس أنّهن حسناوات فاتّخذوا لأنفسهم نساءًا من كلّ ما اختاروا... ودخل بنو اللّه على بنات الناس وولدن لهنّ أولادًا"[1].

ونجد إشارة إلهيّة في أرض الرافدين أنّ الملوك كانوا يقومون بممارسة بعض الطقوس الدينيّة ومنها الجنس، وذلك بإشراف الكاهن الأكبر[2].

وفي أريحا اكتُشف معبد من أقدم المعابد التاريخيّة المعروفة يعود إلى الحقبة النطوفيّة، وُجدت فيه تماثيل لحيوانات وأشكال لعضو ذكريّ. كما وُجدت تماثيل متعدّدة في اليونان ركّز فيها على العضو الذكريّ حيث ظهر بشكل مضخّم، وذلك تمثيلاً لقوّة الإنجاب والتناسل محافظة على المجتمعات البشريّة، ممّا يعني أنّ عمليّة الجنس كان لها مفهوم طقسيّ.

---

١ ـ سفر التكوين، ٦: ٢ ـ٤.

٢ ـ الحوراني، البنية الذهنيّة...، مرجع سابق، ص ٢١٥.

لقد كان استمرار الخصب، إن في تناسل الإنسان والمواشي أو في خصب الأرض، من أولى اهتمامات الإنسان القديم ومن أبرز طقوس التديّن لديه المرتبطة بالجنس. فاستمرار قوّة المجتمعات متوقّف على قدرتها على التكاثر من خلال التناسل. لذلك نشر الإنسان القديم رموز الجنس من خلال التماثيل التي وصلتنا من أرض كنعان وبلاد الرافدين وأبرزها تمثال الإلهة الأم[١].

وما يُظهر أهميّة التناسل في المجتمعات القديمة جواب إنكيدو لجلجميش في الحكمة الشهيرة التي أخذت اسمه. فقد سأل جلجميش شبح رفيقه إنكيدو العائد من العالم السفليّ عن مصير الآباء في العالم الآخر. فأجابه إنكيدو بأنّ الآباء الذين جاؤوا بأبناء كثيرين يعاملون بإكرام، والذين لهم سبعة أولاد يعاملون كأنّهم آلهة، والذين ليس لهم من يدفن جثثهم تبقى أشباحهم قلقة[٢].

وعندما أراد الإنسان تخيّل آلهة الشرّ، تصوّرها محرومة من صفة الخصب، إذ إنّها سكنت الصحاري والكهوف والغابات، ولم يكن لها عائلات أو أبناء. وهم ليسوا ذكورًا أو أناثًا. ففي وصف الشياطين الذين يلاحقون "دموزي" للقضاء عليه، ورد ذكرهم كالآتي[٣]:

"لا يأكلون طعامًا ولا يشربون ماءً،

ولا يقبلون هدايا تهدّئهم،

ولا يجلسون ببهجة في حضن الزوجة،

ولا يقبلون الأطفال، العذوبة..."

---

١ - ريحانا، شعوب الشرق الأدنى القديم، مرجع سابق، ص ٢٣.

٢ - ملحمة جلجميش، مرجع سابق.

٣ - Kramer Samuel, *Sumerian mythologie*, (Philadelphia, 1944) P 158.

أمّا الشيطانة الأنثى "اردة" فتوصف بأنّها لم يجامعها أحد ولم يمزّق صديقها غشاء بكارتها، والتي لا تحوي أثداؤها حليبًا، ولا يقع بغرامها رجل. وفي الأساطير اليونانيّة للشاعر "هزيود" (هسيودوس) أنّ "كرونوس"، عندما سيطر على والده "أورانوس" وسلبه سيادته، كان أوّل عمل قام به هو سلبه رجولته إذ بتر قضيبه وألقى به في البحر.

وفي الطقس الكنعانيّ، امتُحنت قوّة الخصب والجنس في داود العبريّ للتأكّد من استمرار قدرته على السيادة. فقد أُحضرت له فتاة بعد أن هرم. ولمّا فشل في مجامعتها طالبه ابنه "أدونيا" بالسلطة. أمّا ملك كريت، فقد أغار على أبعد المدن للحصول على زوجة يثبت بواسطتها رجولته.

لقد دخل الجنس في مفهوم الدين منذ العصور الأولى للحضارت. جاء في كتابنا "شعوب الشرق الأدنى القديم" ما يلي[1]:

"كانت تتّصل بالمعبد نساء خادمات المعبد، ومنهنّ سراري للآلهة وللكهنة. ولم تكن الفتاة السومريّة ترى شيئًا من العار في أن تخدم الهياكل على هذا النحو. وكان والدها يفخر بأن يهب جمالها ومفاتنها لتخفيف ما يعتري حياة الكهّان من الملل. من هنا نشأ البغاء المقدس الذي بقي حتّى ما بعد السيّد المسيح وندّد به بولس الرسول في رسائله إلى أهل كورنثوس".

وهذا البغاء المقدّس وصفه "هيرودوت" في بابل كالآتي[2]:

---

١ ـ ريحانا، شعوب الشرق الأدنى القديم، مرجع سابق، ص ٧٤.

٢ ـ هيرودوت، ١: ٢٠٠.

"وهناك عادة مخجلة تمامًا بين هؤلاء القوم. وهي أن كلّ أمرأة عليها أن تذهب مرّة في حياتها إلى معبد عشتار فتسلّم نفسها هناك لرجل غريب...

"وعندما تأخذ المرأة مجلسها لا يبقى مسموحًا لها بالعودة إلى البيت حتّى يلقي أحد الرجال قطعة من الفضّة في حضنها ويقودها إلى الخارج ليضطجع معها. ويكون عليه وهو يلقي قطعة الفضّة أن يقول:

"باسم الإلهة ميليتا"[١]. ولا أهميّة لقيمة قطعة النقد لأنّ مجرّد أن تُلقى للمرأة تصبح مقدّسة. ويمنع القانون رفضها منعًا قاطعًا. ولا يكون للمرأة حقّ الاختيار لأن عليها أن تذهب مع أوّل رجل يلقي لها النقود. وعندما تضطّجع معه تكون قد أدّت واجبها للآلهة، ويمكنها عندئذٍ العودة إلى بيتها، بحيث يغدو من المستحيل إغراؤها بأيّ مبلغ مهما يكن ضخمًا". أمّا الفتاة التي لم تستعمل هذه العادة بعد، فتضع إكليلاً على رأسها شعارًا للعذريّة. هذا الإكليل ما زالت العروس حتّى الآن تلبسه على رأسها في عرسها.

هذه العادة تأتي ضمن مفهوم تقديم باكورة كلّ شيء للهيكل، وليس ضمن مفهوم الإباحيّة الجنسيّة. وهي تبدو عادة ديموقراطيّة بدل عادة حقّ الأرستقراطيّ بالليلة الأولى لكلّ عروس في المنطقة التي يسيطر عليها، والتي بقيت قائمة حتّى القرون الوسطى في أوروبّا. فقد جاء في وصف حقّ جلجميش في الليلة الأولى ما يلي:

"فهو يضاجع النساء الشرعيّات،

"ويكون هو الأوّل،

"ثمّ يأتي الزوج بعده،

"وذلك قرار مجمع الآلهة."

---

١ ـ ميليتا: هي عشتار المولّدة، وهو الإسم الأشوريّ لـ "أفروديت".

وحقّ جلجميش هذا لا يُعدّ اغتصابًا قهريًا، إنّما حقًّا الهيًا مقدّسًا. ويمكننا التصوّر أنّ تخلّي الفتاة عن عذريّتها بهذه الطريقة الإلهيّة اعتُبر حلاً في الحضارات القديمة لمشكلة البغاء الذي شغل المجتمعات اللاحقة.

وفي قبرص أيضًا تعوّد السكّان الكنعانيّون إرسال بناتهم البالغات إلى الشاطئ للالتقاء بالبحّارة الغرباء وتسليم أنفسهنّ لهم إكرامًا للآلهتين عشتروت وأفروديت. وقد عمدت "إليسار" الصوريّة، عند فرارها من شقيقها ملك صور، وتمهيدًا لإنشاء مدينة قرطاجة، إلى خطف عدد من هؤلاء الفتيات وتزويجهنّ لرجالها[١].

أمّا النبيّ إرميا فيصف مراكز طقوس الزنى المقدّس بأنّها في الجبال العالية وتحت الأشجار الخضراء[٢]. والشجرة الخضراء كانت مقدّسة عند الكنعانيّين. وما زال بعضها، حتّى الآن في لبنان، يُعتبر مزارًا مقدّسًا. فبالقرب من نبع أفقا شجرة تتوجّه إليها المرأة العاقر، تغتسل بمياه النبع وتعلّق قطعة من ثيابها على أغصانها لاعتقادها بأنّها تشفي من العقم.

وفي ملحمة "البعل وعناة" الأوغاريتيّة، جاء في ترنيمة انتصار البعل، تشديد على كون الإلهة "عناة" ستلد له عجلاً بحيث يكون رمزًا لانتصار الجنس والتناسل. وفي ملحمة التكوين الكنعانيّة، عندما ابتعد أورانوس (السماء) عن هيا (الأرض) راح يواصلها بالقوّة عندما تكون لديه رغبة. وهذا التشخيص الجنسيّ لعمليّة المطر ووصفه بالجماع بين السماء والأرض، يبرز الناحية الطقسيّة في العمليّة الجنسيّة.

---

١ ـ أبي فاضل د. وهيب، حضارات الشرق القديم، مكتبة حبيب (١٩٨٥) ص ٢٤٨.

٢ ـ إرميا، ٣: ٦.

أمّا المياه، التي تتدفع في بلاد الرافدين لتروي الأرض وتخصبها، فقد شبّهت بتدفّق بذور الخصب من ثور إلهيّ يقف فوق النهر، كما يفعل الذكر مع أنثاه. فالعقيدة القديمة في ديانة الخصب فسّرت مياه الريّ بأنّها نتيجة جماع إلهيّ[1].

وفي آثار هيكل عشتروت في مدينة "ماري" على الفرات، رُفعت جدران البناء على أعمدة سبعة تمثّل العضو الذكريّ، ممّا يعني أنّها رموز جنسيّة تشير إلى الخصب وُضعت في أساس الهيكل تيمّنًا برمزها المقدّس، وكانت تحمل شعار الإله "دموزي" إله الخصب.

حتّى دوران الفصول اعتقدت الشعوب القديمة أنّه يتمّ بسبب علاقات جنسيّة بين الآلهة، وصولاً إلى الزواج بينها. لقد ذكر في رسالة أحد ملوك "أوروك" السومريّة الزواج الإلهيّ في الشعر التالي[2]:

"الرجال الذين ولدهم دموزي إلى النور من رجال

أنانا الذين أحبّهم دموزي حبًّا عظيمًا،

فجرت مياه الحياة لأجلهم،

وأنتجت أشجارًا لأجلهم في كلّ مكان من الأرض...

في ساحة دموزي، الجداء والخراف،

البذرة القويّة، البذرة في الرحم بواسطة دموزي."

وكلّ إله ذكر بحاجة إلى إلهة أنثى لتكتمل مملكته. حتّى "زفس" كان له زوجة "هيرا"، والعديد من النساء استولدهنّ من خلال احتفالات دينيّة رافقت العمليّة الجنسيّة.

---

١ ـ الحوراني، البنية الذهنيّة...، مرجع سابق، ص ٢١٤ ـ ٢١٥.

Kramer, op cit, PP 42 - 43. - ٢

وهو لم يكن يتراجع عن هذه العمليّة عند إعجابه بأيّ أنثى، أكانت إلهة مخلّدة أم أرضيّة فانية.

ودرجت الآلهة على الانتقال الاحتفاليّ إلى مدينة أخرى للاجتماع بزوجة إله آخر. وكانت كاهنة الهيكل الكبرى تمثّل دور الإلهة في الاتّصال الجنسيّ بالملك الذي كان يقدّم لها هدايا بالمقابل. لقد وُجد في مدينة "أوروك" كتابان كُتب على أحدهما: "أبابا شتي، الكاهنة الناديتو محبوبة شوشن الإلهيّ (الملك)"، وعلى الثاني "كوباتم الكاهنة محبوبة شوشن الإلهيّ"[1].

جلجميش وصف أيضًا بأنّه عريس إلهيّ[2]:

"سوف يعد سريرًا للبطل الذي ملامحه،

"لجلجميش وكأنّه إله،

"لأجله يتمّ إعداد الأشياء،

"من أجل عشارا غرفة النوم،

"وفي الليل هو يضمّها وينام".

وفي بابل، كان الاتّصال الجنسيّ يجري من خلال طقوس واحتفالات مقدّسة وفق هيرودوت الذي كتب[3]:

"عندما يريد البابليّ الاتّصال الجنسيّ بزوجته يجلس فوق مبخرة ليطيّب نفسه، بينما تكون زوجته قبالته تفعل مثله. ويكون عليهما أن يستحمّا في الصباح الباكر. وقبل الاستحمام يمتنعان عن ملامسة أيّ شيء من أمتعة المنزل. وهم هكذا يشبهون العرب".

---

١ ـ الحوراني، البنية الذهنيّة...، مرجع سابق، ص ٢٥٨.

٢ ـ ملحمة جلجميش، مرجع سابق.

٣ ـ هيردوت، ١: ٩٧.

فالمحافظة على الطهارة عند اتمام العملية الجنسيّة هو اقتناع دينـيّ، وليس بسبب النظافة، وذلك نظرًا للحضور الإلهيّ، خلال هذه العلاقة، بهدف الخصب وليس الجنس وحسب. فللجنس بُعد لاهوتيّ وظيفـيّ، وكـلّ سلوك اجتمـاعيّ انسـانيّ مرتبـط بـه كـان يرتكز على هذه العقيدة.

والذي يُظهر أهميّة الجنس في المفهوم الدينيّ القديـم أنّ أهـمّ التضحيـات الإنسـانيّة هي التضحية بالرجولة، وهي التعبير الأفضل عن علاقة الإنسان المطلق بالألوهيّة. فقد أحسّ الإنسان أنّ أهمّ ما يقدّمه، كتضحية للإله، هـو رغباتـه الجنسـيّة. مـن هنـا نشـأت طقوس الختـان للذكـور والاخصـاء للكهنـة ونـذور العفّـة للكهنـة والراهبـات، وكذلـك الاحتفال بالزواج احتفالاً دينيًا يظهـره كسرٌ مقـدّس. فالختـان طقـس دينـيّ يقـترب بـه الإنسان من الإله نظرًا لما في هذه العمليّة من تضحية وألم.

كما كان يتبع الهياكل أحيانًا خصيان أقدموا على ذلك بإرادتهم إظهارًا لمدى تعبّدهم وحماسهم الدينيّ. كذلك راهبات نذرن العفّة، ومنهنّ على سبيل المثال والدة "سـرجون" الأكاديّ الذي يقول عنها إنّها كانت كاهنة كبرى، وحملت به سرًّا وولدتـه واخفتـه فـي صندوق[١]. وهي قصّة تذكّرنا بولادة النبيّ موسى العبرانيّ.

مفهـــــوم العفّـــــة
في المجتمعات البدائيّة

مفهوم العفّة عند الفتاة هو مفهوم متأخّر في سير التقدّم. فالعذراء البدائيّـة لـم تكـن تخشى فقدان بكارتها، إنّما أن يشيع عنها أنّها عقيم. والمرأة، إذا ما حملت قبل زواجها،

---

١ ـ ريحانا، شعوب الشرق الأدنى القديم، مرجع سابق، ص ٩٦.

كان ذلك معينًا على الزواج أكثر منه عائقًا، لأنّ ذلك الحمل يقضي على كلّ شكّ في عقمها. فالاتّصال الجنسيّ قبل الزواج كان شائعًا وطليقًا في الجماعات البدائيّة الأولى، والقاعدة قبل الزواج هي الشيوعيّة الجنسيّة. حتّى أنّ الجماعات البدائيّة، التي قامت قبل ظهور الملكيّة، كانت تنظر إلى بكارة الفتاة نظرة ازدراء لأنّ معنى ذلك عدم إقبال الرجال عليها، وفي حالات كثيرة كانت البكارة حائلاً دون الزواج. وفي بعض القبائل يُعتبر فضّ البكارة مخالفًا لأمر التحريم الذي يقضي بألاّ يريق الفرد دم أحد من أعضاء قبيلته. لذلك كان يحدث أحيانًا أن تسلّم البنت نفسها لغريب عن القبيلة ليزيل عنها هذا العائق الذي يحول بينها وبين الزواج[1].

هذا المفهوم البدائيّ جاء متابعًا لمفاهيم الجنس المقدّس إذ إنّ رجل القبيلة لم يكن يرى عارًا في ممارسة عروسته للعمليّة الجنسيّة قبل دخوله عليها. وربّما أنّ حقّ الإقطاعيّ بالليلة الأولى للعروس قد انبثق من هذه العادة القديمة. وقد نُقل عن بعض القبائل أنّ العروس تضطر لأن تسلّم نفسها لضيوف العرس قبل دخولها إلى زوجها. وفي البعض الآخر يستأجر العريس رجلاً ليفضّ له بكارة عروسه. وفي بعض قبائل الفيليبّين يقوم موظّف خاصّ يتقاضى راتبًا تكون مهمّته أن يؤدّي هذا العمل نيابة عن العريس[2].

أمّا الذي غيّر هذه النظرة وجعل البكارة فضيلة، فهو مفهوم الملكيّة. فالعفّة الجنسيّة قبل الزواج جاءت امتدادًا للشعور بالملك الذي أحسّه الرجل بالنسبة لزوجته بعد أن أصبح يُعتبر رأسًا للعائلة التي ارتسم مفهومها في الحضارات القديمة[3].

---

١ ـ ديورانت ول، تاريخ الحضارات، الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربيّة (القاهرة) ١: ٨٠ ـ ٨٢.

٢ ـ Westermarck, *Short Marriage*, P 32.

٣ ـ Sammer and Keller, *Science of Society*, P 51.

الفصل الرابع

الديانة الكنعانيّة ـ الفينيقيّة

قبل اكتشـاف أوغاريت لم يكن معروفًا عن الديانـة الكنعانيّة إلاّ القدر اليسير، وكانت المراجع عن هذه الديانة مأخوذة من كتب يونانيّة أو من العهدَين القديم والجديد. وفي الروايات اليونانيّة، عن الديانة الكنعانيّة ـ الفينيقيّـة، الكثير من المغالطات بسبب العداوة بين الشعبَين، وخاصّة ما نقله "فيلون" الجبيليّ و"لوكيانوس" السميساطيّ.

وجاءت الألواح الفخّاريّة من أوغاريت لتمحو الأخطاء عن هذه الديانـة، لا سيّما المقصودة منها، والتي جاءت في كتابات العبرانيّين وبدت عدائيّة واضحـة تجاه الكنعانيّين ومشوّهة لصورة ديانتهم.

الديانة الكنعانيّة ترتكز على عبادة قوى النموّ والتوالد التي يعتمد عليها كيان المجتمع الزراعيّ، الذي يهتمّ بالماشية في أرض قليلة المطر. وأوضحت الألواح، أيضًا، عمليّة التبادل التي حصلت بين الديانات والعبادات، وخاصّة طريقة الطقوس المقتبسة من بلاد ما بين النهرين وحوض النيل[1].

أمور كثيرة توضّحت عن الأدب الدينيّ الكنعانيّ. ومن الأساطير المكتشفة أسطورة "بعل"، هذا الإله الذي عبده الكنعانيّون في جميع المناطق وبأسماء مختلفة.

---

١ ـ أبي فاضل، حضارات الشرق القديم، مرجع سابق، ص ٢٨٢.

و"بعل" هذا، عبدته شعوب أخرى بأسماء متنوّعة[1]، فعبد المصريّون "رع" أو "أمون رع"، والسوريّون "بعل شمائيم" أي ربّ السماوات، والحثّيون "ست" أو "ستخ" وتأويله "القدير"، والآراميّون "هدد" أو "حدد" أي "الأوحد"، والبابليّون "إيلو"، والعبرانيّون "يهوه"، والفينيقيّون "بعل" وتأويله "السيّد" أو "الربّ"[2].

وهكذا نرى أنّ دين الفينيقيّين لم يختلف عن سائر أديان الشعوب في الشرق الأدنى إلاّ في أمور خارجيّة وطفيفة، ونجد هذه الأديان كأنّها صادرة عن تصوّر واحد لإله وحيد سمّته كلّ العشائر اسمًا دالاًّ على إحدى صفاته.

ويبدو "بعل" الكنعانيّ قريبًا من مفهوم "يهوه" العبرانيّ رغم أنّ "بعل" أقرب إلى الطبيعة والإنسان نظرًا لصراعه وموته وقيامته السنويّة، وذلك انسجامًا مع فصول السنة. أمّا "يهوه"، فقد ارتفع إلى المطلق وضمّ شخصيّة الإله "إيل" شخصيّة الإله "بعل" وأصبح خالدًا منتصرًا على الموت.

وبهذا المفهوم انفصل اللاهوت العبرانيّ عن اللاهوت الكنعانيّ رغم شبههما لبعضهما، ورغم أنّ فكرة "بعل" تتضمّن التوحيد رغم تعدّديته. لقد جاءت ظروف الثورة اللاهوتيّة في بروز "يهوه" لدى العبرانيّين الذي وعد يشوع بن نون في صحراء سيناء بقوله[3]:

"تشدد وتشجّع. لا ترهب ولا ترتعب لانّ الرب إلهك معك حيثما تذهب". والصفات البارزة في ديانة الخصب الساميّة هي الحزن على موت إله النبات وإقامة

---

١ ـ وهيبة الخازن نسيب، من الساميّين إلى العرب، منشورات مكتبة الحياة (بيروت) ص ٢٣.

٢ ـ ريحانا، شعوب الشرق الأدنى القديم، مرجع سابق، ص ٢٣١.

٣ ـ يشوع، ١: ٩.

طقوس لتمكينه من الفوز على خصمه إله الموت أو العالم السفليّ، وذلك لضمان كميّة وافرة من المطر لإنتاج الموسم الجديد. أخيرًا تنزل عشتار أو عشتروت إلى العالم السفليّ وتستعيده، فيعود إله النبات أدونيس منتصرًا على الموت[1].

من هنا نشأت الطقوس التي تحتفل بانتصاره وعودته، وتدوم سبعة أيّام يعمّ خلالها الفرح الجميع، حتّى أنّ الذين يعبدونه من الرجال يضحّون برجولتهم ويخدمونه كخصيان. أمّا النساء فيضحّين بشرفهنّ. ومن هنا نشأ أيضًا البغاء المقدّس الذي بقي حتّى أيّام بولس الرسول الذي تكلّم عنه في إحدى رسائله إلى أهل كورنثوس. فمومسات المعبد والإباحيّة الجنسيّة كانت مظهرًا من مظاهر الاحتفالات الزارعيّة عند معظم شعوب الشرق الأدنى القديمة. وهذا التقليد المقدّس دخل طقوس الديانات التي عرفت فكرة الإله الذي يموت ثم يُبعث حيًّا[2].

معبودات الكنعانيّين

أكثر الكنعانيون من رصد الكواكب وتحركّاتها، فأدهشتهم، فعبدوها، وأصبح "بعل" كناية عن الشمس يسمّونه بهذا الاعتبار "بعل شمائيم" أي "ربّ السماوات". وأشهر معبوداتهم أدونيس (تموز) وعشتروت (عشتار). وجعلوا السيّارات السبع بعولاً أي آلهة، وأطلقوا عليها اسم "كبيريم" جمع "كبير" ومعناه "القدير". وكان مجموع الكواكب السيّارة سبعة، يُضاف إليها العالم المكوّن من مجموعها وسمّوه "أشمون" أي "الثامن".

---

١ ـ حتّي د. فيليب، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، دار الثقافة (بيروت، ١٩٨٢) ١: ١٢٥.

٢ ـ حاتم، أساطير اليونان، مرجع سابق، ص ٢٩.

وكانت الحيّة مثالاً لـ "أشـمون" ولبـاقي الآلهـة الكوكبيّـة، كونهـا تمثّـل، بتعرّجاتهـا، حركة الكواكب في الأفق. وكانوا يربّون الحيّات في هيكل "أشمون" لتلحس جراح مَن استشفع به فتبرّئها.

والآلهة عندهم ليست ذكورًا فقط، بل كان لهم منها إناث، فكانت عشتروت زوجا لبعل، وكان للبعول الثانويّين بعـلات خاصـّة. وكلّمـا كـان للبعـل خاصـّة شمسـيّة، كـان للبعلة خاصّة قمريّة. وكانوا يعبدون ملكة "شمائيم" أي ملكة السماوات.

واعتقد الفينيقيّون بنوع من الثالوث الإلهيّ، فعبدوا، في كلّ مدينة، ثلاثة من الآلهة، فكان لهم في[1]:

- صور: ملقارت وبعل وعشتروت.
- صيدا: بعل وعشتروت وأشمون.
- قرطاجة: تانيت وبعل حمون وأشمون.
- جبيل: إيل وأدونيس وبعلة جبيل.

وكان للنار وجود في عبادتهم يُنزلونها منزلة مبدأ الحياة وينبوع كلّ فاعليّـة فيهـا، فعرفوا "بعل حمون" أي الإله المحروق، وهو أحد معبودي قرطاجة، ثمّ الإلـه "راسـف" أي الصاعقة.

وكان الفينيقيّون يرمزون لـ "ملقارت" بحجر لمّـاع يسـمونه "سـيت إيـل" أي مسـكن الإله متوهّمين أنّ اللّه يسكنها. وكانت هذه الحجارة في الغالب سوداء.

---

١ ـ ريحانا، شعوب الشرق الأدنى القديم، مرجع سابق، ص ٢٣٢.

وإذا دخلنا في تفاصيل آلهة إحدى المدن الفينيقيّة، "أوغاريت"، لجئنا بالحصيلة الآتية عن الميثولوجيا الفينيقيّة[1]:

- إيل: أبو الآلهة وخالق السماوات والأرض. وهو مسنّ متعب لا يتدخّل في مشاكل الناس إلاّ إذا لزم الأمر.

- عاشيرة: زوجة إيل أمّ الارباب، ربّة الخصب والحبّ والحرب. وهي عشتار نفسها عند البابليّين والأشوريّين.

- عليان بعل: إله المطر والعواصف. وهو الشخصيّة الرئيسيّة في الأساطير الكنعانيّة. يقع معبده في القسم المرتفع من أوغاريت، ويسمّى في بابل "مردوخ".

- عناة: أخت بعل الملقّبة بالعذراء.

- داغون: إله الحصاد والحبوب.

- موت: إله القحط والجفاف والموت.

- شبش: الربّة الشمس.

- رشف: إله الوباء والمرض.

- كوثر: إله يجسّد نشاط الحدّاد والمهندس المعماريّ والصانع الماهر.

- شلم: إله الغروب.

- يم: إله البحر.

إضافة إلى العديد من الآلهة التي كانت تخصّ الجاليات الساكنة في أوغاريت.

---

١ ـ الحوراني، البنية الذهنيّة...، مرجع سابق، ص ١٦٩.

ذبائـــــح

الكنعانيّين

إمتاز الكنعانيّون، عن سائر الأمم القديمة، بتقدمة الضحايـا البشـريّة إذ كـان الآبـاء أنفسهم يطرحون أولادهم في النار ليشتركوا بشـيء مـن الألوهيّـة أو يسترضوا الإلـه المتخضّب. وكانت الضحايا البشريّة عندهم أعظم الضحايا، ويقدّمون غالبًا أولادهـم أو أحدث مولود لديهم ضحيّة[1].

إستمرّت هذه العـادة عندهـم حتّـى النهايـة، لكنّهـم أدخلـوا طريقـة البـدل، فكـانوا يستبدلون الضحيّة البشريّة بالتضحية بحيوان أو طير أو بإقامة نصب كعمـود أو تمثـال أو الخدمـة فـي أحـد الهيـاكل، عمرهـم أو قسـمًا منـه. وقـد أدخـل الفينيقيّـون ديـانتهم وعباداتهم وعاداتهم هذه إلى حيث أوصلوا بضائعهم.

الكهنة

كانت للكهنة أهميّة كـبرى فـي أمـور المملكـة يُصغـي إليهـم الحكّـام ويستشيرونهم ويعملون بمشورتهم. وكانوا يُكثِرون من الحيل خدعة للشعب في أمر عبادة الآلهة وفي تنفيذ مآربهم. ولم يفضح أمرهم ويُنكّل بهم أحد، مثل النبيّ إيليّـا، عندمـا جعـل "آحـاب" ملك العبرانيّين يجمع ٤٥٠ كاهنًـا مـن كهنـة بعـل و ٤٠٠ كـاهن مـن كهنـة عشـتروت ويمتحنهم لفعل العجائب، فلم يفلحوا إطلاقًا. عندها قبض عليهم النبيّ إيليّا وذبحهم عن آخرهم[2] بجانب نهر قيشون في الكرمـل. وكـان الكهنـة يبيحـون أعظـم المنكـرات، بـل يجعلون بعض الرذائل فضائل لا سيّما في الشهوات الجسديّة.

---

١ ـ ديورانت، تاريخ الحضارات، مرجع سابق، ١: ٣١٥.

٢ ـ سيرة النبيّ إيليّا.

الهياكل

لم تكن، على ما يبدو، للعشائر الكنعانيّة في أقدم أيّامها هياكل ومعابد، إنّما كانوا يعبدون آلهتهم على قمم الجبال والمشارف، فيقيمون هناك عمودًا أو نصبًا أو صخرًا يسمّونها "بيت إيل" أي مسكن الربّ، ويعبدونها. وعنهم أخذ العبرانيّون ذلك. إلاّ أنّ الفينيقيّين شرعوا ببناء الهياكل بعد ولاية المصريّين عليهم. وكانت هذه الهياكل، في البداية، غرفًا ضيّقة محوطة بأسوار فسيحة ضمنها باحة مكشوفة، وقد يكون فيها أحيانًا رواقٌ من خشب[١].

وتدلّنا إلى ذلك خرائب هيكل الزُهرة في الباق في قبرص، والمعابد الباقية في مالطا التي يسمّونها "كازا الكرندي" أي البيوت الكبيرة. وكان أمام هياكلهم رواق أرفع من سائر البناء، ويليه معبد تقدّم فيه الضحايا، ثمّ معبد آخر ثمّ قدس الأقداس الذي لا يحلّ للعامة ولا لجميع الكهنة الدخول إليه، وبجوانبه مخادع للخدم.

المدافن

وُجد الكثير من المدافن الفينيقيّة في بيروت وجبيل وصيدا وصور، لا سيّما في عمريت، جنوب أرواد، وكلّها محفورة في الصخر. وكانوا يدفنون مع موتاهم أشياء ثمينة، ممّا يؤكّد على إيمانهم بالحياة بعد الموت. لكنّ المدافن سُرقت، لذلك كانت قليلة النفع للعلم[٢].

---

١ ـ حتّي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ص ١٢٩ ـ ١٣٣.

٢ ـ حتّي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ص ١٣٤ ـ ١٣٥.

واعتقد الفينيقيّون أنّ الموت رقاد وأنّ لهم بعد ذلك حياة. ووضعوا مع الموتى قارورات من زجاج وخزف أو أصنامًا صغيرة من خزف تمثّل عشتروت أو بعل، وأدرجوا الجثّة في لفائف مغطّين، غالبًا، الوجه بغشاء رقيق من الذهب. أمّا الأغنياء فكانوا يغطّون كامل الجثّة بغطاء من الذهب. كما وُجد، في قبورهم، الكثير من الحلي التي تدلّ على مهارة عجيبة في الصنع تبلغ حدّ الإعجاز في الإتقان.

المـــــرأة الآلهـــــــة
في الميثولوجيا الكنعانيّة

كانت الألوهيّة في الديانة الفينيقيّة غير محصورة بالآلهة الذكور، إنّما تعدّتها إلى الآلهة الإناث، فأصبحت الآلهات شقيقات الإله "إيل" وزوجاته ومناصرات له. ولعلّ أوّل امرأة إلهة، في تاريخ الديانة الإيليّة، هي الأرض زوجة السماء ووالدة الإله "إيل"[1].

لكنّ المرأة لم تصل إلى مرتبة الكهنوت في الديانة الفينيقيّة إلاّ بعد أن قدّسها الإله الرجل وجعلها في مقامه بحيث أصبحت الآلهات، شقيقات الإله "إيل"، زوجات أو مؤيّدات له.

والمرأة لم تُعبد فقط لأنّها أمّ، إنّما خاصّة لأنّها أصبحت كاهنة ونبيّة وحاكمة ومقاتلة وملكة وحبيبة.

ومن الممكن أن تكون أوّل امرأة ـ إلهة في الديانة الكنعانيّة ـ الفينيقيّة أي "الارض" زوجة "السماء" ووالدة "إيل"، كانت على علاقة سيّئة مع زوجها السماء الذي طردها

---

١ ـ ديورانت، تاريخ الحضارات، مرجع سابق، ١: ٣١٨ ـ ٣١٩.

وقتل أبناءها. لكنّ ابنها الإله "إيل" انتقم من والده فقتله وزوج شقيقه الإله داغون من والدته. أمّا "عليون" جدّ "إيل"، الذي كان أوّل رجل من خارج الأرض، فإنّ زوجاته كنّ من بنات الجان وليس من الآلهات. لذلك، فإنّ الإيليّين، عندما رفعوا المرأة إلى مرتب الألوهة، كانوا يرفعون شعب الجان إلى مستوى الألوهة أيضًا.

وقد يكون سبب تزاوج الآلهة الإيليين مع بنات الجان الأرضيّات أنّهم انحدروا إلى الأرض منهزمين دون أن يُحضروا معهم نساءهم وعائلاتهم، فحاولوا التحالف مع الإيونيّين والكنعانيّين، ونجحوا في ذلك.

وعندما راح الإيليّون ينغمسون في الملذّات والفجور، حصلت صدمة كبيرة لدى الكنعانيّين ممّا دفع النبيّ "أحنوخ" إلى رفض الواقع الشاذّ والتنسّك في الغابات، لأنّ نسل الآلهة القادم من خارج الأرض أفسدها. وهكذا حصلت حرب الطوفان بين الجانبَين والتي دمّرت الإيليّين ونسلهم من العمالقة.

وأنقذ نوح حفيد "أحنوخ" وذريّته من الطوفان.

أسطــورة

آدم وحواء

الأسطورة توحي بأنّ الكنعانيّين جاؤوا من نفس الكوكب الذي قدم منه الإيليّون. وآدم كان رجلاً ماردًا جاء إلى الارض من نفس الكوكب أيضًا وتزوّج "ليليت" قبل أن يتزوّج حوّاء. و"ليليت" كانت من بنات الجان وسيّئة الطبع. لذلك حسدت آدم كونه تمتّع دونها بامتيازات الآلهة فهجرته وسكنت العاصفة. حتّى حوّاء بقيت في مرتبة "أمّ الأحياء" ولم تتوصّل إلى درجة الآلهة.

ولم يبدأ تاريخ الآلهة الكنعانيّة إلاّ بعد الطوفان، أي بعد انقراض نسل الإيليّين وشعب الجان. وقد ظهر الشيطان يومًا لحوّاء بشكل حيّة فأغواها وأحبّته دون أن تدري، وحبلت منه وولدت ابنًا فرحت به وقالت:

"الآن قد اقتنيت رجلاً من عند الربّ". لكنّه لم يكن فعلاً من عند الربّ، إنّما من الجان والأرواح الشرّيرة.

أمّا الإلهة عشتروت فكانت من نسل العمالقة كجدّها "عليون" ووالدها "إيل: وإخوتها "بعل" و"عنات" و"داغون". وعندما جاءت المسيحيّة بعبادة مريم العذراء بدلا من الإلهة عشتروت، كان ذلك بداية لانتهاء عادة عبادة العمالقة. وقد لقيت عبادة مريم العذراء قبولاً من جميع الأديان نظرًا لأنّ الطهارة كانت عنوانها وكونها حبلت دون دنس بعكس حوّاء التي تزوّجت من نسل العمالقة وجاءت ذريّتها لتدمّر الأرض.

والمقصود بحوّاء جميع النساء اللواتي عشن في تلك المرحلة. ومن هنا نفهم لماذا رفض الكنعانيّون تزويج بناتهم من الإيليّين. وعندما قال السيّد المسيح: "الملائكة لا يتزوّجون"، كان ذلك نهاية الاعتقاد بإمكان زواج الملائكة، أي غير الأرضيّين، بنساء من الأرض، وبالتالي نهاية الشعور بذنب الخطيئة الأولى التي لا يمكن أن تُغتفر إلاّ بالعفاف والصوم.

وعبادة عشتروت، التي تمثّل الخصب والأمومة، نشطت بعد الطوفان، خاصّة بسبب فراغ الأرض من سكّانها، وذلك بهدف إعادة إحياء الجنس البشريّ. ويقول الأب "مارتين" اليسوعيّ إنّ الشعوب القديمة عبدت عشتروت بأسماء متعدّدة وصلت إلى ثلاثماية اسم من "هيرا" إلى "أرتميس" و"أفروديت" و"الزهرة". والسبب أنّ عشتروت استطاعت أن تسكن اللاوعي البشريّ وتترك فيه حافزًا يتلهّف على النسل والاستمرار، وبالتالي كانت أعظم امرأة في التاريخ القديم.

الفصل الخامس

الديانة عندَ المصريّين القُدَمَاء

طرحت الحضارة الفرعونيّة، أيضًا، أسئلة عن الكون وخالقه ومصير الإنسان بعد الموت. لذلك كان للدين حيّز كبير في حياة شعب مصر القديم. وما الأهرام، التي دفن فيها الفراعنة مع حاشياتهم وممتلكاتهم وأواني استعمالاتهم اليوميّة، إلاّ مظهرًا واضحًا من مظاهر الديانة عند المصريّين الأقدمين.

رأى المصريّون أنّ الآلهة خلقت الأرض وسكّانها، وأنّها هي التي تنظّم قضايا الناس والحياة والكون. حتّى الفرعون يُصبح الهًا فور تتويجه. ومن الآلهة المصريّة الحيوانات والظواهر الطبيعيّة القويّة كالشمس والقمر والسماء والأرض ونهر النيل وحتّى التمساح والهرّة والكلب والضفدع[1].

وكان لكلّ مدينة ولكلّ عشيرة آلهتها التي عُرف منها: "بتاح" إله ممفيس، "أتوم" إله هليوبوليس، "تحوت" إله الأشمونيّين، "إيزيريس" إله أبيدوس، "سبك" إله أمبوس، "أمون" إله طيبة، "حوروس" إله أدفو، "منت" إله هرمونتيس، "ماعت" إلهة العدل، "تيت" إلهة القتال، "باستت" إلهة تلّ بسطة، "حاتحور" إله وندارة[2]. والمدينة التي كانت تنتصر في الحروب تفرض عبادة آلهتها. وهذا ما سمح بتعميم عبادة "رع" إله الشمس بسبب

---

١ - Breasted, *Development*, P 215.

٢ ـ ديورانت، تاريخ الحضارات، مرجع سابق، ٢: ١٦٠ ـ ١٦٨.

سيطرة الساميّين فدُمج به عدد من الآلهة، لا سيّما "أمون" الذي أصبح يُدعى الإله "أمون رع" وأمسى أبرز آلهة المصريّين، فأضاف بعض الفراعنة اسمه إلى اسمائهم.

لقد آمن المصريون بالحياة الثانية بعد الموت، وأنّ كلّ مخلوق يحمل روحًا هي صورة مصغّرة عنه، تظلّ سعيدة ما دام جسده محفوظًا من الفناء. لذلك عمدوا إلى تحنيط الميت وبناء المقابر الآمنة لحفظ جسده. وساد الاعتقاد بأنّ الفرعون خالد وأنّه إله على الأرض وفي السماء، كذلك اعتُبر خالدًا مَن يحظى بعطف الفرعون إذ يكون أحد حاشيته في العالم الثاني. إنّما، وبعد الثورة الدينيّة، أصبحت الحياة الثانية بمتناول جميع أبناء الشعب المصريّ.

الميثولوجيا
المصريَّـة

تشابهت العبادة المصريّة مع الفينيقيّة بالنسبة لأسطورة عودة الإله إلى الحياة بعد انحداره إلى الجحيم. فقد جاء في أسطورة إيزيريس إله أبيدوس، أنّه كان ملكًا على مصر يعاونه وزير اسمه "توت" إله الحكمة الذي علّم الناس طرق الزراعة والعلوم كالكتابة والحساب والفنون وبناء المعابد. لكنّ "ست" إله الجنوب وشقيق إيزيريس خان شقيقه فوضعه في صندوق ورماه في النيل[1].

وهنا يأتي دور إيزيس، شقيقة إيزيريس وزوجته التي انحدرت إلى الأسفل فخلّصته. ولمّا عاد "ست" وقطّع جسد شقيقه إلى أربع عشرة قطعة، استعانت

---

١ ـ ديورانت، تاريخ الحضارات، مرجع سابق، ص ١٦٢ ـ ١٦٣.

إيزيس بعلمها الواسع وبولدها "حوروس" فجمعت أجزاء جسد زوجها وأعادته إلى الحياة[1].

هذه الأسطورة هي مثال لأساطير الحضارت الزراعيّة التي عرفها وادي النيل. وهي تمثّل الصراع بين الجفاف والخصب، بين الصحراء والأراضي الزراعيّة، بين جنوب مصر الخصب وشمالها. وتذكّر بنهر النيل الذي تنخفض مياهه قبل أن يعود إلى الفيضان وتلقيح أراضي مصر. كما تعكس مفهوم الحياة بعد الموت وإله النبات الذي يموت مع يباس الزرع ويعود إلى الحياة مع الربيع والأزهار واخضرار الأرض.

والمصريّ القديم طبّق نظام العائلة والمجتمع في الدين، فاعتبر الآلهة عائلة كالبشر، كالأب أوزيريس وزوجته إيزيس وابنهما حوروس. وجاء ذلك انعكاسًا لواقع البلاد ووصفًا لنفسيّة الشعب وتجسيدًا لمعتقداته وفلسفته[2].

واعتقد المصريّون بأنّ الآلهة هي التي خلقت الأرض وقاطنيها، وهي التي تنظّم الحياة عليها. ومن الآلهة مَن هو لخير البشر، ومنهم مَن يحبّ التدخّل في شؤونهم وفرض إرادته داخل مجتمعهم. مقابل ذلك تفرض على الإنسان واجبات تجاه الآلهة من الطاعة إلى التقديس والخدمة في المعابد وتقديم الأضحية والذبائح.

وساد النظام الدينيّ المصريّ عالم من الأساطير التي كانت تعكس مظاهر الحياة والصراعات داخل المجتمع. ففي عهد المملكة القديمة برزت عبادة الإله "بتاح" إله ممفيس و"رع" إله هليوبوليس. وفي زمن الدولة الوسطى برز الإله "أمون" إله طيبة، و"رع" إله الشمس بتأثير من الساميّين.

---

١ - Breasted, *Dawn of Consciences*, PP. 46 - 83.

٢ - Carpenter, *Pagan and Christian*, P 183.

ثورة أخناتون[1]

توفّي أمنحوتب الثالث سنة ١٣٨٠ ق.م وخلفه ابنه أمنحوتب الرابع الذي عُرف باسم اخناتون الذي كان شاعرًا أوصلته الأقدار لأن يصبح ملكًا.

ثار أخناتون على ديانة الإله "أمون" والأساليب التي يتّبعها كهنته. فقد كان في الهيكل بالكرنك جماعة من السراري اللواتي كنّ في الأصل لأمون، إنّما كان يستمتع بهنّ الكهنة حقيقَه. ولما كان أخناتون مثالاً للطهر، فإنّه ثار على هذه الطرق وعلى استخدام الكهنة لنبوءات الإله "أمون" للضغط على الشعب باسم الدين ونشر الفساد السياسيّ.

كلّ ذلك أدّى إلى ثورة عنيفة من جانب أخناتون الذي أعلن بشجاعة أنّ تلك الآلهة وجميع ما في الدين من احتفالات وطقوس هي عادات وثنيّة محضة، وأنّ للعالم إلهًا واحدًا هو "أتون" ويمثّل الشمس وهو ربّ العالم كلّه.

وترك أخناتون العاصمة طيبة إلى تلّ العمارنة التي أُطلق عليها اسم "أخت أتون" أي مشرق الشمس، واستبدل اسمه من أمنحوتب الذي يشمل اسم "أمون" إلى أخناتون الذي يشمل اسم "أتون" ومعناه "أتون راضٍ".

واعتبر المؤرّخون حركة أخناتون ثورة حقيقيّة في الديانة ودعوة جريئة إلى التوحيد وعبادة الإله الواحد "أتون"، والحدّ من تسلّط كهنة "أمون" والوقوف على رأي النساء الشرقيّات في مصر وعلى رأسهنّ زوجته "نفرتيتي". لنسمعه يقول في شعره، مناديًا الإله "أتون":

---

١ - Breasted, *History of Egypt*, P 278.

"أنت أوجدت العالم،

"وأقمت كلّ ما فيه لابنك

"أخناتون، ذي العمر المديد،

"ولزوجه الملكيّة الكبرى محبوبته،

"سيّدة القطرين،

"نفر - نفرو - أتون"، نفرتيتي

"الباقية المزدهرة أبد الآبدين."[1]

هذه القصيدة التوحيديّة التي فيها من التشابه الكثير مع المزمور الرابع بعد المائة، أُنشدت قبل ظهور النبيّ إشعيا بسبعماية سنة. وهذا ما يُظهر، مرّة جديدة، أنّ الحضارات أخذت عن بعضها في جميع أمور الحياة وحتّى الديانة والآلهة[2].

إلاّ أنّ ثورة أخناتون لم تدم بعده بسبب حقد الكهنة والشعب عليه، واحتلال سوريا من قِبَل الحثيّين، وانكماش دولته إلى رقعة صغيرة، وفراغ خزانة مملكته، ووقف العمل في مناجم الذهب، وتعميم الفوضى على كلّ فروع إدارته الداخليّة، واندلاع الثورة ضدّه في مختلف الولايات التي كانت تابعة لمصر، وقيام جميع القوى الداخليّة في وجهه.

وهكذا، فإنّ خليفته وزوج ابنته "توت عنخ أمون" أعاد عاصمته إلى مدينة طيبة وأعلن العودة إلى عبادة الآلهة القديمة وأزال كلمة "أتون" و"أخناتون" من جميع الآثار القديمة فزالت عبادة الإله الشمس "أتون" من بلاد مصر نهائيًا.

---

١ - ديورانت، تاريخ الحضارات، مرجع سابق، ص ١٦٨ - ١٧٩.

٢ - Capart, *Thebes*, PP 76 - 95

الفصل السادس

المعتَقَدَات الدِّينيَّة عَندَ العَرَب قبلَ الإسلام

ترتسم في تاريخ الشرق الأدنى القديم صورة عرب الجاهليّة أي المرحلة التي سبقت الإسلام في شبه الجزيرة العربيّة، وعلى صفحتها صور باهتة لروايات دينيّة وسير الأنبياء وقصص الأمم البائدة وللطغاة الذين كفروا فنزلت بهم اللعنات وبادت ديارهم. منهم "عاد" و"ثمود" و"التبابعة" وشعوب أخرى، ذُكرت أخبارهم في العهد القديم وفي القرآن الكريم. ومن هذه الأخبار ما دخل عالم الأساطير والمعتقدات الماورائيّة.

لقد عرفت القبائل العربيّة، قبل الإسلام، المسيحيّة واليهوديّة والحنيفيّة أي دين إبراهيم الخليل الذي بنى الكعبة وأقام المؤسّسة الدينيّة في بلاد العرب[١].

وكانت للجاهليّين تصوّراتهم بالنسبة للنفس والجسد والحياة بعد الموت والأرواح، وانتشرت في عالمهم معتقدات وثنيّة وخرافات وأساطير رغم عدم إغراقهم في إيمانهم هذا بسبب طبيعتهم الرحّالة وغير المستقرّة، ونظرًا لشدّة واقعيّتهم وارتباطهم بصحرائهم وإبلهم ومراعيهم وأيّام حروبهم[٢].

١- Lammens S.J H., *L'Arabie avant L'Hégire*, Imprimerie Catholique, (Beyrouth. 1928) PP. 1 - 51.

٢- Lammens. Idem, P 103

فالعربيّ الكريم الذي كان يقري ضيفه، لم يكن يفعل ذلك إرضاءًا للآلهة أو خوفًا من غضبها، إنّما تمشّيًا مع طبيعته المضيافة وروحه المحبّة للزائرين في منطقة صحراويّة غير مضيافة بجغرافيّتها التي غابت عنها أماكن العبادة وبيوتها المتنقّلة والخوف الدينيّ[1]. لقد آمن العربيّ الجاهليّ بأنّ الإنسان روح وجسد دون أن يذكر في أدبه الجنّة والنار، وانعكس ذلك في شعره الذي هو مرآة لتاريخه وحياته.

فطرفة بن العبد تحدّث عن حتميّة الموت، كذلك عمرو بن كلثوم وزهير بن أبي سلمى، كما تطرّق زهير إلى يوم الحساب أيضًا.

يقول قس بن ساعدة عن يوْم البعث والحساب[2]:

يا باكي الموت والأموات في جدثٍ	عليهم من بقايا بزّهم خرقُ
دعهم فإنّ لهم يومًا يُصاح بهم	كما ينبّه من نوماته الصَّعِقُ

ويقول زهير بن أبي سلمى[3]:

يؤخّرْ فيوضع في كتاب فيُدَّخر	ليوم حساب، أو يعجّل فينقَمِ

وعرف العرب العبادة والديانات والكهّان، وأخذوا من جانب الكعبة حجارة اعتبروها مقدّسة ونصبوها في خيامهم. وعرفوا الأصنام التي بلغ عددها ثلاثماية في الكعبة، وعُرفت بأصنام العرب. لكنّ بنو حنيفة، على سبيل المثال، كانوا يصنعون أصنامهم من تمر، ويأكلونها عندما يجوعون، حتّى قال شاعر من بني تميم عنهم[4]:

---

١ ـ بيضون إبراهيم وزكار سهيل، تاريخ العرب السياسيّ، دار الفكر (لبنان، ١٩٧٤) ص ١٢ ـ ١٣.

٢ ـ الشهرستاني، الملل والنحل، ٣: ٨٧.

٣ ـ من معلّقة زهير بن أبي سلمى.

أكلت ربها حنيفة من جوعٍ قديم بها ومن إعواز[١]

أمّا امرؤ القيس، فعندما لم تعجبه نتيجة الاستقسام بالأزلام، اتّهم صنمه المعبود بالتحيّز ورفض طاعته. كما اشمأزّ بدويّ من صنمه وتخلّى عنه عندما بال عليه ثعلبان.

لذا نرى أنّ آلهة العرب كانت بعيدة عن تلك التي تطلب الأضاحي والصلوات والعبادات والمراسم والطقوس. كما غابت اللعنات التي تصبّها العفاريت والربّ الغاضب الذي يزمجر ويتوعّد ويستشيط غيظاً، والحوريّات اللواتي يستجلبن العطف والحبّ.

وعرفت عهود عربيّة سالفة عبادة الشمس، فجاء المثل العربيّ القائل: "ذرّ قرن الشمس". ومن الممكن أن تكون الديانة التوتميّة قد سيطرت في فترات سابقة، وكان الغزال أحد التواتم المعبودة اذ وجد قصي بن كلاب في أساس الكعبة غزالين من ذهب[٢]. كما تبرّك العرب بالناقة والجمل[٣].

الجاهليّ عرف أيضًا عالمًا غيبيًّا شغل ذهنه وظهر في أدبه، وهو الجان الشبيه بعالم الأرواح عند الشعوب الأخرى. إنّه عالم مخلوقات غير منظورة تمارس حياتها اليوميّة، منها ما هو خير ومنها ما هو شرّ، وتأتي بالخوارق وتدخل إلى أماكن يتعذّر

---

١ - ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٩٩.

٢ - **التوتميّة**: يشترط فيها أن يتّفق أهل القبيلة الواحدة على حيوان أو نبات أو كائن آخر يعتقدون أنّه جدّهم الأعلى يتسمّون باسمه ويعبدونه أو يقدّسونه. لا يوافق جرجي زيدان على أنّ العرب مارسوا التوتميّة. راجع: زيدان جرجي، مؤلّفاته الكاملة، تاريخ التمدّن الاسلاميّ ٣، دار الجيل (بيروت، ١٩٨٢) ١٢: ١٦٩ - ١٧٠.

٣ - Lammens, op. cit., P.117.

على البشر دخولها وتوحي بالشعر والموسيقى والفنّ للّذين ترضى عنهم[1].

كتب المسعودي أنّ اللّه خلق الجنّيّ وزوجته كما خلق آدم وحواء، لكنّه خلق الجان من ريح السموم فحملت زوجته وباضت ٣١ بيضة خرجت منها أشكال متعدّدة، منها الأبالس الذين سكنوا البحور، والمردة الذين سكنوا الجزر، والغيلان ومسكنهم الخلوات والفلوات والهوام وسكنوا الهواء في صورة الحيّات ذوات الأجنحة وغيرهم[2].

الأساطير

العربيَّـة

كما سبق القول، تتناول الأسطورة الآلهة في أخبار وحكايات وقصص، وتكون غنيّة بالخيال والأحداث الغريبة والأخبار الملفّقة. وضمن هذا الإطار تدخل الحكايات الدينيّة والقوميّة والفلسفيّة بهدف لفت اهتمام القارئ وإشباع نهمه إلى كلّ ما هو عظيم وفائق للطبيعة من جهة، ولإعطاء تفسيرات للكثير من الظواهر التي يراها الإنسان في العالم وخاصّة ما هو مقدّس منها.

أمّا عالم الميثولوجيا، فيتعاطى بدراسة علاقة الإنسان بعالم الخوارق والأساطير. والميثولوجيا ارتبطت بتاريخ الشعوب حتّى المتخلّفة منها. وهي التي أوصلت إلينا كثيرًا من تقاليد الأمم والشعوب القديمة وعاداتها ودياناتها واجتماعيّاتها، ولعبت دورًا بارزا في صياغة تاريخها.

---

١ ـ لمزيد من التفاصيل عن الجان والعفاريت يمكن مراجعة كتاب ألف ليلة وليلة.

٢ ـ المسعودي، مروج الذهب، ص ١٣٨.

والأساطير تنتقل من شعب إلى آخر ومن حضارة إلى أخرى. فكلّ أسطورة إمّا منقولة أو مقتبسة، ونجد جذورها في أسطورة ثانية لدى شعب آخر. لذلك، وبما أنّ الأسطورة تعبّر عن أحلام الشعوب، فقد كانت للعرب أساطيرهم وخرافاتهم وعباداتهم وأممهم البائدة.

كتب الأب لامنس[1]:

"إنّه لم تكن للعرب ميثولوجيا حقيقيّة كالميثولوجيا اليونانيّة."

إلاّ أنّنا نرى في فنّ الخرافة العربيّة مواصفات الأسطورة. فالعرب نقلوا الأخبار عن القصص الخرافيّة والخياليّة التي تلعب فيها الآلهة والقوى الخارقة كالملائكة والجان أدوارًا رئيسيّة. ومن العرب مَن عبد الجان والملائكة[2]. وفي الكتب العربيّة قصص عن الجان والملائكة والناس المتوفّين والخارقين، ما يسمح لنا بالتأكيد على التراث الأسطوري الغربيّ الذي يمكننا ربطه بالتراث الأسطوري والخرافيّ الشرقيّ السامي[3].

وما قصّة "عاد" و"ثمود" إلاّ شبيهة بقصص سدوم وعامورة في العهد القديم. وهما انعكست عليهما الأسطورة فاختفت القبيلتان بسرعة فائقة وبقوّة سماويّة اكتنفتها الأسرار[4].

---

١ - Lammens H *L'Islam, Croyances et Institutions*, Imp. catholique, (Beyrouth, 1943) PP. 24 - 25.

٢ - الألوسي محمّد شكري، بلوغ الإرب (القاهرة، ١٣٤٢هـ) ص ٢٣٢.

٣ - الجوزو مصطفى، من الأساطير العربيّة والخرافات، دار الطليعة (بيروت، ١٩٨٠) ص ١١.

٤ - طربيه جرجي، الوجديّة وأثرها في جذور المجتمع العربيّ، مطابع المتني (بيروت) ص ٢٧.

سأل بنو عاد أباهم "هودا" قائلين:

"صف لنا الجنّة التي وعدتنا."

فقال لهم:

"هي جنّة بناؤها بطون العقبان، وطيفها لجين وفيها حور عين أبكار، والفواكه الدائمة والأنهار، من كلّ الاشربة، تجري بين القصور وتحتها الغرف من الياقوت على أعمدة من اللؤلؤ والزمرّد والزبرجد، وقيعانها من فتيت المسك والكافور والزعفران".

ويتوافق هذا الوصف مع أسطورة خروج قبيلة ابراهيم من "أور" الكلدانيّة إلى فلسطين. وهذه الأسطورة التي بطلها إبراهيم الخليل هي نفسها الأسطورة التي بطلها يعرب بن قحطان.

حتّى أرض العرب أرض أسطوريّة فيها مناطق مسكونة بالجان لا يدخلها إنسان إلاّ خبلوه، ومغاور مخيفة لا يجرؤ أنسيّ على اجتيازها[1]. يقول الأعشى عن اجتيازه البلاد الموحّشة المسكونة بالجان[2]:

وبلدة مثل ظهر الترس موحشة　　للجنّ بالليل في حافاتها زجل

وعن الأحاديث الخرافيّة يقول الشاعر:

حياة، ثم موت، ثم نشرٌ،　　حديث خرافة، يا أم عمرو

---

١ ـ صناوي سعدي، أثر الصحراء في الشعر الجاهليّ، دار الفكر اللبنانيّ (بيروت، ١٩٩٣) ص ٢١.

٢ ـ ديوان الأعشى، دار صادر (بيروت) ص ١٤٧.

من ناحية أخرى، قدّس العرب بعض الحيوانات والمخلوقات غير المرئيّة، وحتّى الأشجار. كما أنّهم قدّسوا القوى الغيبيّة المسيطرة على الطبيعة. فكلّما عجزوا عن تفسير ظاهرة ما، نسبوها إلى عالم المجهول.

أسطورة شِقّ وسطيح

من أساطير العرب أسطورة "شقّ" و"سطيح" اللذَين وُلدا في إحدى ليالي الجاهليّة القديمة دون أب. فعندما حضرت الوفاة الكاهنة دعتهما وأعلنتهما خليفتَيها في الكهانة فأمسيا ساحرَين[1]. ونسبت الروايات إليهما أعمالاً خارقة ومعرفة بالمستقبل.

و"شق" هو أوّل كاهن بين العرب العاربة، وهو شخصيّة أسطوريّة خرافيّة، له عين واحدة في وسط جبهته ونار تشقّها شقّين. عاش مربوطًا إلى صخرة في جزيرة كثيرة البراكين. قيل إنّه فسّر حلمًا لربيعة بن نصر أمير اليمن اللخميّ، وتنبّأ له بغزو الأحباش لليمن وتحريرها على يد ابن ذي يزن، كذلك تنبّأ بظهور النبيّ محمّد ﷺ.

أمّا "سطيح" فهو ابن ربيعة، كاهن أسطوريّ لا عظام له ولا عضلات، رأسه في صدره ويطوى كالبساط إذا أراد تغيير موضعه، أكّدت الأسطورة علاقته بشقّ. ويروى أنه قسّم ملك نزار بين أولاده: نصر وإياد وإنمار وربيعة. عاش ٦٠٠ سنة.

ومن الأساطير العربيّة نذكر أسطورة الأعور الدجّال. وهو مخلوق أعور كتب بين عينَيه كلمة "كافر". وله حمار أبتر يركبه، أذنه تظلّل سبعين ألفًا، وعرض ما بين أذنَيه أربعون ذراعًا، وما بين الحافر والحافر أربعة أميال، وخطوته مسيرة ثلاثة أيام[2].

---

١ ـ الطبري، ١: ١٦٦.

٢ ـ ابن كثير، نهاية البداية والنهاية (بيروت، ١٩٦٨) ١: ١٠٤.

إلى ما هنالك من الأساطير العربيـة التـي يصعب تصديقها إذ تنتمـي إلـى الخيـال والخرافة.

الجَـــــان والشياطين

إعتقد عرب الجاهليّة بالجان والشياطين والقوى غير المنظورة. وترافق هذا الاعتقاد مع الإيمان بالآلهة والملائكة. ربّما أنّ طبيعة الصحراء التي تثير الرعب دفعتهم إلى الاعتقاد بقوى تفوق مستوى الإدراك وتدخل في عالم الماورائيّات الغريب.

يقول طرفة بن العبد[١]:

وركـــوبٍ تعـــزِف الجـــنّ بــــه   قبل هذا الجيل مـن عهـد أَبَـدْ

فالبدويّ يردّ إلى الجان نعيق البومة أو عواء ذئب أو أصوات الحيوانات المفترسة في الليل، وترجيع صدى في الوديان والكهوف أو انتقال كثبان الرمل من مكانها بتـأثير الرياح. وهو يعتقد أنّ الجان تظهر بأشكال مختلفة. كما آمن بالشياطين الشريرة التي كان يقدّم الذبائح إرضاءً لها وإسكاتًا لغضبها. هذه العادات لم تتوقّف إلاّ مع ظهور الإسلام الذي ألغاها[٢].

وفي الذهنيّة العربيّة المتديّنة، ينتصر الخير على الشرّ فتأتي الملائكة لتسخّر الجان للنبيّ سليمان الحكيم الذي يسيطر على طوائفها التي تظهر بصور مختلفة.

---

١ ـ ديوان طرفة بن العبد، ص ٤٢.

٢ ـ Lammens, *L'Arabie Occidentale avant L'Hégire*, Op. Cit., P. 112.

يقول وهب بن منبه[1]:

"لمّا حشدت الريح الصرصر الجان لسليمان، وجدهم على صور غريبة، منهم من كان وجهه على قفاه يخرج من فيه النار، ومنهم مَن كان يمشي على أربع، ومنهم من كان له رأسان، والبعض له رؤوس الأسد وأبدان الفيلة..."[2]

كما درج العربيّ على تخيّل الغول الذي هو أنثى. ونُقلت أخبار عن أشخاص رأوا الغول وأجروا معها لقاءات جنسيّة[3].

قالت امرأة: "أعرف جنّيًا يأتيني في اليوم مرارًا، وأجد نفسي ما أجد إذا جامعني زوجي". وقالت أخرى: "إن جنّيًا يأتيني كما يأتي الرجل المرأة"[4]. وحدّث شيخ قال: "علق رجل من الجنّ جارية لنا ثمّ خطبها إلينا، وقال إنّي أكره أن أنال منها محرمًا فزوّجناها منه. قال: فظهر معنا يحدّثنا، فقلنا: ما أنتم؟ فقال: أمم أمثالكم، وفينا قبائل كقبائلكم".

وتردّد أنّه كانت هناك صلة للجان بالكهنة في الجاهليّة، وكان للكهنة العرب أتباع من الشياطين يسترقون السمع ويأتونهم بالأخبار[5]. فعند عرب الجاهليّة، وكما كان للقبيلة شيخ وشاعر، كان لها أيضًا كاهن أو عرّاف يدّعي معرفة الأسرار والمستقبل وتأويل الأحلام، ويربط معرفته هذه بعالم الجان[6].

---

١ ـ القزويني، عجائب المخلوقات، ص ٣٧٣.

٢ ـ الجاحظ، البيان والتبيين، ٦: ٤٨.

٣ ـ المسعودي، مروج الذهب، ٣: ٣١٤.

٤ ـ الدميري، حياة الحيوان الكبرى، ٢: ٢٠.

٥ ـ النويري، نهاية الإرب، ٣: ١٢٨.

٦ ـ ابن سيرين، تفسير الأحلام الكبيرة، دار نوبليس (بيروت).

ديانات العرب
قبل الإســلام

عرف عرب الجاهليّة ديانـات قبـل الإسـلام، منهـا الديـانتين السـماويّتين المسيحيّة واليهوديّة، ومنها التوحيديّة الحنيفيّة، ديانة سيّدنا إبراهيـم الخليـل، والصابئـة. والظـاهر أنّ الحنيفيّة كان لها بعض الأتبـاع فـي شبه الجزيـرة العربيّـة وأنّها كـانت خليطًـا مـن الديانات اليونانيّة والعربيّة المحليّة[1].

كتب بيضون وزكار[2]:

"وحاولت ديانات العصر، وخاصّة المسيحيّة، أن تكون البديـل، فـأخفقت، وكـلّ مـا فعلته أن ساعدت على قيام أو إحياء مفهوم مفاده أنّ الجدّ الأعلى لعرب الشـمال وأهـل الكتاب هو ابراهيم، وأنّ الديانة الحقّ هي ديانة ابراهيم الجدّ الأعلى، وهي النبـع الـذي جـاءت منـه اليهوديّـة والنصرانيّـة، وأنّ الخـلاف الواقـع بيـن أتبـاع اليهوديّـة ثـمّ أتبـاع الكنائس يعني أنّ زيفًا قد أصاب اليهوديّة والنصرانيّة، لـذا تحسـن العـودة إلـى الأصـل الإبراهيميّ ودُعيت ديانة إبراهيم باسم الحنيفيّة، وأخذ عدد من رجالات قريش يلتمسون الحنيفيّة في كلّ مكان، فكان أن رفضوا عبادة الأوثان وأكل ما ذبح لها وكان أحد وجوه التماسهم لدين إبراهيم الإنفراد والتعبّد".

هذا الإيمان تجسّد شعرًا مع "أوس بن حجر" حين أقسم بالأصنام وباللّه بقوله[3]:

وبـاللات والعـزّى ومـن ديـن دينهـا   وباللّــه أن اللــهَ منهــنّ أكــبرُ

---

1 - Lammens, op cit., PP.101 - 128.

٢ - بيضون وزكار، تاريخ العرب السياسيّ، مرجع سابق، ص ٣٨.

٣ - ديوان أوس بن حجر، دار صادر، (بيروت، ١٩٦٠)، ص ٣٦.

كما ذكر شعراء آخرون الأصنام والأوثان في شعرهم، دون أن يعني ذلك أنّ مفهوم ديانة التوحيد لم يؤمن به، كونه يذكر الشعائر الدينيّة واللّه الواحد[1].

والدين الحنيف أُطلق على مَن كان على ملّة ابراهيم الخليل. ففي الجاهليّة قالوا[2]: "مَن اختتن وحجّ البيت فهو حنيف".

لقد أخذ العرب عن ابراهيم عبادة اللّه والختان وتقديم الأضحية وإقامة المعابد والزكاة عن الممتلكات. وابراهيم بنى، مع ولده اسماعيل، مكّة والبيت لعبادة اللّه، الذي راح المؤمنون يطوفون حوله لتأدية نذورهم، وفي ما بعد راحوا يحجّون إلى مكّة من أماكن بعيدة فصارت الكعبة مقدّسة عند العرب[3].

وأصبحت مكّة مقدّسة ومُنع فيها القتال فسار الناس إليها من نصارى وفرس وأحباش وأحناف ووثّنيين.

أما الصابئة، فيقترب دينهم من الديانات السماويّة كونه يعالج الروحانيّات التي تتعلّق بالهياكل العلويّة السبعة: زحل، المشتري، المريخ، الشمس، الزهرة، عطارد والقمر[4]. وهم يعتقدون أنّهم ينتسبون إلى يوحنّا المعمدان أي يحيى بن زكريّا.

والصابئة، وفق بعض المفكّرين، فرقة ترجع في عبادتها إلى بابل وتؤمن بإله خالق لا يمكن الوصول إليه إلاّ بطرق روحانيّة. لذلك اعتُبروا أهل ديانة سماويّة. فقد ذكرهم القرآن الكريم إلى جانب أصحاب الديانات السماويّة:

---

١ - Lammens, op. cit., P. 103.

٢ - إبن منظور، لسان العرب، دار صادر (بيروت، ١٩٦٨) مادة: حنف.

٣ - Lammens, Op. Cit., P. 129.

٤ - الشهرستاني، الملل والنحل، ٢: ٦٣.

﴿إنّ الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى ومَن آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾[1].

عبـــادة الكواكـــب

والنجوم والاصنام

علاوة على عبادة الإله الواحد، انتشرت في بلاد العرب عبادات أخرى، فعبدت قبيلتا "عاد" و"كنانة" القمر، و"حمير" الشمس، و"لخم وجذام" المشتري، و"طيء" نجم سهيل، و"قيس" الشعرى، و"أسد" عطارد، و"غطفان وقريش" الزهرة[2]. كذلك درس العرب حركات النجوم والكواكب.

أمّا أصنام العرب الشهيرة فنُقل أنّها كانت مجموعة في الكعبة وعددها ثلاثماية، أبرزها:

- مناة، وعبدته غسّان والأزد والأوس والخزرج، وترمز إليه صخرة هذيل[3].

- اللات، وعبدتها ثقيف وعظمتها قريش. وكان بيتها بالطائف، ويرمز اسمها إلى الحصاد والخصوبة[4].

- العزّى، وعبدتها غطفان، وكانت أعظم الأصنام عند قريش. وقيل إنّها الزُهرة.

---

١ - سورة المائدة، ٦٩.

٢ - المعلوف شفيق، عبقر (ساو باولو - البرازيل، ١٩٤٩) ص ١٣.

٣ - ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٥: ٢٤.

٤ - Lammens, op. cit., PP. 103 - 104

ـ هُبَل، وكان لبني كنانة، كما عبدته قريش. وهو أعظم أصنام الكعبة وكبير آلهة الجاهليّين. صورّ على صورة إنسان من عقيق أحمر ومكسور اليد اليمنى.

ـ الأُقَيصر، وكان على مشارف الشام لقضاعة وجذام ولخم وعاملة وغطفان.

ـ سُوَاع، لبني هذيل ولحيّان، وكان على صورة امرأة.

ـ يَغُوث، وهو على صورة أسد، كان لمذجح في اليمن. ومعنى اسمه الغوث أي المساعدة.

ـ يعوق، وهو صنم لهمدان وخولان، وكان على صورة فرس في صنعاء.

ـ نَسْرٌ، وعبدته حمير في أرض سبأ.

ـ إساف ونائلة، وهما رجل وامرأة من جرهم مُسخا فأصبحا صنمَين فعبدتهما خزاعة وقريش[1].

ـ سعد، وهو صنم على شكل صخرة.

ـ سُعَير، وهو صنم لعنزة.

ـ ذو الشَّرى، وكان لبني الحارث من الأزد.

ـ عائم، وهو صنم لأزد.

ـ الفَلس، وهو صنم لطيء.

ـ ذو الكفين، وهو لبني دوس.

وكان بعض العرب يعبدون اللّه ويجسّدونه بصنم.

---

١ ـ الحوت محمود، في طريق الميثولوجيا عند العرب، دار النهار (لبنان، ١٩٨٣) ص ٥٤.

ولكلّ صنم قصتّه. قيل: كان لأهل مكّة في كلّ دار صنم يعبدونه. فإذا أراد أحدهم السفر، كان آخر ما يصنع في منزله أن يتمسّح به[1].

وعن هُبَل تساءل البعض هل هو كالإله الأكبر في التوراة؟.

روي أنّ عبد المطلّب جدّ الرسول ﷺ نذر نحر أحد أولاده إذا ولد له عشرة. فلمّا رزق بهم ضرب القداح أمام هبل لاختيار مَن سيذبح، فخرج قدح عبد اللّه، والد النبيّ ﷺ، وكان أحبّهم إليه. فأخذه بيده وأخذ السكين فمنعه قومه وأفتوا بافتدائه، فافتُديَ بمائة من الإبل بعد استشارة عرّافة خيبر[2].

هذا التنوّع يدفعنا إلى الاعتقاد بأنّ خيال البدويّ الضيّق كان يحول بينه وبين القوى غير الظاهرة، فيحاول تشخيصها بالماديّات، ومنها الأصنام. إلاّ أنّ تعلّقه بهذه الماديات لم يكن ثابتًا. قيل إنّ رجلاً من العرب كان يعبد صنمًا، فجاء ثعلب وبال عليه فكفر البدويّ بصنمه وأنشد[3]:

أربٌ يبول الثعلبان برأسه؟ لقد ذَلَّ مَن بالت عليه الثعالب

---

١ ـ ابن الكلبي، كتاب الأصنام، تحقيق أحمد زكي، الدار القوميّة (القاهرة، ١٩٦٥) ص ٣٣.

٢ ـ السيرة، ص ٩٧ ـ ١٠٠.

٣ ـ الدميري كمال الدين، حياة الحيوان الكبير، المكتبة الاسلاميّة، ١: ١٦٠.

البيـــوت

والكعبات

عظّم العرب الكعبة في مكّة قبل الإسلام واعتبروها مقدّسة فأحاطت بها الأساطير. كذلك بئر زمزم التي روي عنها أنّ ابراهيم ترك زوجته المسكينة هاجر وولدها اسماعيل في مكان قفر، فاشتدّ عليهما الحرّ ونفد الماء منهما، فصرخت هاجر: "إلهنا لا تهلكنا عطشًا". وراح اسماعيل ينكت الأرض بإصبعه فنبع الماء من الرمل. فصرخت هاجر بالماء: "زم...زم" أي انقبض، ووضعت الحصى حوله فانحصر. وسُمّي: زمزم.

أمّا مكّة، فقيل إنّهم وجدوا حجرًا فيها كُتب عليه: "أنا اللّه ربّ مكّة الحرام وضعتها يوم وضعت الشمس والقمر"[1]. وقيل إنّ الملائكة بنتها قبل آدم وقبل خلق الأرض بأربعين عامًا. وخلال طوفان نوح لم يمسّ الطوفان الكعبة.

وكعبة مكّة لم تكن الكعبة الوحيدة عند العرب، بل كانت لهم أخريات يحجّون إليها ويقدّمون النذور لها، ومنها:

- كعبة سندان قرب البحيرة.
- كعبة رئام في رأس جبل همذان وجاء ذكرها لدى الجاحظ[2].
- كعبة نجران.

أمّا الحجر الأسود فقيل إنّه، أثناء بناء الكعبة، بقي ينقص البناء حجر واحد للزاوية. وفيما البنّاؤون يفتّشون، نزل هذا الحجر من السماء وكان أبيض اللون. وراح المؤمنون يتبرّكون به لمسًا باليد ممّا جعل لونه أسودًا.

---

١ ـ السيرة، ص ١٣٤.

٢ ـ الجاحظ، كتاب الحيوان، ٦: ٦١.

وللمعابد أيضًا دور، إذ رُوي عن معبد أوام (حرم بلقيس) أنّه في اليمن، وأنّه دُعي باسم "حرم بلقيس" أو "محرم بلقيس" كما يسمّيه أهل اليمن. وبلقيس هي ملكة سبأ، والمعبد مكرّس للإله القمريّ "إيل مقه" أو إله سبأ الأكبر. ويقع إلى الجهة الجنوبيّة الشرقيّة لبلدة "مأرب" وعلى ميلَين منها، ويضمّ معبدًا وضريحًا ومقبرة جماعيّة.

ملحق للمعتقدات الدينيّة عند العرب

القصص الدينيّة

كباقي الشعوب القديمة جاء عرب الجاهليّة بقصص دينيّة، منها ما هو خرافيّ ومنها ما له مثيل في الكتابات لدى الشعوب الأخرى، ممّا جعله يدخل في التراث الدينيّ للديانات السماويّة. وهذه الحكايات قديمة في الأدب العربيّ حفظها الحفّاظ منذ الجاهليّة قبل أن تنتقل إلى ألسنة الرواة، وتدخل في الأدبيّات العربيّة التي يمكن تصنيفها في إطار الأساطير.

واخترنا من هذه القصص ثلاث، نوردها في هذا العمل، كنموذج يمكن مقارنته مع أساطير الحضارات الأخرى، وهي:

١) خلق آدم؛

٢) سفينة نوح؛

٣) هلاك نمرود.

أوّلاً ـ خلق آدم

قال وهبُ بنُ منبّه: خلق اللّه آدم، فرأسُه من الأرض الأولـى، وعنقُه من الثانيـة، وصدرُه من الثالثة، ويداه من الرابعة، وبطنه وصدره من الخامسة، وفخذاه وعَجزُهُ من السادسة، وساقاه وقدماه من السابعة. وسمّاه آدم لأنّه خلقه من أديم الأرض.

قال ابنُ عبّاس: خلقه اللّه تعالى من أقاليم الدنيا. فرأسه من تربة الهنـد، ويداه من تربة المشرق، ورجلاه من تربة المغرب.

قال وهب بن منبه: لمّا خلق اللّـه تعالى آدم على هذه الصورة أمر الملائكة أن يحملوه ويضعوه على باب الجنّة، عند ممرّ الملائكة، وكان جسدًا لا روحَ فيه فذلك قوله تعالى: ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا﴾[1] يعني: لم يكن شيئًا مصورًا. وكان الملائكة يتعجّبون من عجيب صفته وصورته لأنّهم لم يروا مثله. وكان إبليس يطيل النظر إليه ويقول: ما خلق اللّه هذا إلاّ لأمر عظيم. وربّما دخل في جوفه. إنه خَلْقٌ ضعيفٌ، خُلِقَ من طين، وهو أجوف، والأجوف لا بدّ له من الأطعمة. فيقال إنّه قال يومًا للملائكة: أما تعلمون أن اللّه فضّل هذا الخلق عليكم؟ فيقولون: نطيع ربّنا ولا نعصيه. وهو يقول في ذلك: إن فُضّل عليّ لأعصينّه وإن فُضّلت عليه لأهلكنّه.

أ ـ سجود الملائكة لآدم

قال وهب: فلمّا استوى آدم قائمًا، نظرت إليه الملائكة كأنّه الفضّة البيضاء، فأمرهم اللّه تعالى بالسجود. فأوّل مَن بادر بالسجود له جبريل، ثمّ ميكائيل، ثمّ

---

١ ـ سورة الإنسان، الآية الأولى.

إسرافيل، وعزرائيل والملائكة أجمعون. وأبى أبليس أن يسجد لآدم استكبارًا وحسدًا وقال اللّه له: "ما منعك أن تسجد لِما خلقتُ بيدي، استكبرت أم كنت من العالين؟" قال إبليس: "أنا خيرٌ منه، خلقتني من نار وخلَقته من طين"، والنارُ تأكل الطين، وأنا الذي عبدتُكَ في أكناف السماوات مع الكَرُوبيّين والروحانيّين والحافّين والصافين والمقرّبين". فقال اللّه تعالى: لقد علمت في سابق علمي من ملائكتي الطاعة، ومنك المعصية، فلن ينفعَك طولُ عبادتك لسباق علمي فيك. ولقد أبلستُك من الخير كلّه إلى آخر الأبد، وجعلتك ملعونًا، مغمومًا، مدحورًا، شيطانًا رجيمًا، لعينًا. فعند ذلك تغيّرت خِلقتُه إلى خلقة الشيطان فنظرت الملائكة إلى سوء منظره، وشمّت منه رائحة كريهة، فوثبت إليه الملائكة بحرابهم، وهم يلعنونه، ويقولون: ملعونٌ ملعون، رجيمٌ رجيم... فأول مَن طعن منهم جبريل، وبعده ميكائيل ثمّ ملك الموت، والملائكة في جميع النواحي، وهو هارب من بين أيديهم حتّى ألقوه في البحر المسجور بحرابهم، وهي حراب النار. فلم يزالوا يطعنونه حتّى بلغوا به الفرات وغاب من أعين الملائكة، والملائكة في اضطراب، والسماوات في ارتجاف من جرأة إبليس عليه اللعنة.

ب ـ إلهام الأسماء لآدم

وعلّم اللّهُ آدم الأسماء كلّها حتّى عرف جميع اللغات، حتّى لغة الحيتان والضفادع وجميعَ ما في البرّ والبحر. قال ابن عبّاس: لقد تكلّم آدم على أكتافهم ليكون عاليًا عليهم، وهم يقولون: قُدّوس، قدّوس لا نخرج من طاعتك. فصارت به طرق في السماوات. واصطفّت حوله الملائكة، فلا يمرّ على صفّ منهم إلاّ يقول: السلام عليكم، فيجيبونه: وعليك السلام ورحمة اللّه وبركاته يا صفوة اللّه وخيرتَهُ، وبديعَ فطرته. قال ابن عبّاس فضُربت له في الصفح الأعلى قبابٌ من الياقوت الأحمر، والزّبرْجَد

الأخضر فما مرّ آدم على ملأ من الملائكة أو مقام النبيّين إلاّ ذكره باسمه واسم صاحبه، ثم ردّته الملائكة إلى ربه جلّ جلاله.

ج ـ خطبة آدم في الملائكة

ثم أمر اللّه تعالى جبريل أن ينادي في صفوف الملائكة أن يجتمعوا على آدم ليخطب بهم. فنادى جبريل فاجتمع إليه أهل السماوات أجمعون واصطفّ حوله عشرون ألف صفّ، كلّ صفّ على زينة أخرى. وأوتي آدم من الصوت ما بلغهم. ووضع لآدَم منبرُ الكرامة في سبع مراقٍ، وعلى آدم يومئذ ثيابُ سندسٍ، في رقاقة الهواء، وله ضفيرتان مرصّعتان بالجواهر، محشوّتان بالمسك والعنبر، وعلى رأسه تاج من الذهب، مرصّع بالجواهر، له أربعة أركان، في كلّ ركن منها درّة عظيمة يغلب ضوؤها ضوء الشمس والقمر، وفي أصابعه خواتم الكرامة، وفي وسطه منطقة الرضوان، وله نور ساطع في كلّ غرفة في الجنّة.

فوقف آدم على المنبر في تلك الزينة، وقد علّمه اللّه الأسماء كلّها، وأعطاه قضيبًا من النور. فتحيّرت منه الملائكة، وقالت: إلهنا: هل خلقتَ خلقًا أفضل من هذا؟ فقال اللّه تعالى: يا ملائكتي، ليس من خلقته بيدي كمَن قلت له: كن فكان.

قال: فانتصب آدم على منبره قائمًا وسلّم على الملائكة وقال: السلام عليكم يا ملائكة ربّي، ورحمة اللّه وبركاته، فأجابته الملائكة: وعليك السلام يا صفوة اللّه وبديع فطرته. فأتاه النداء من قِبَل اللّه تعالى: يا آدم لهذا خلقتك، وهذا السلام تحيّة لك، ولذريّتك إلى يوم القيامة.

وأخذ آدم في خطبته فكان أوّل ما بدأ به أن قال: الحمد للّه. فصار ذلك سُنّةً لأولاده، ثمّ ذكر علم السماوات والأرضين وما فيهنّ من الخلق الذي خلقه اللّه بعدما

أثنى عليه بما هو أنطقه به وألهمه إيّاه. فعند ذلك قال اللّه للملائكة: أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين، يعني بأسماء الخلق الذين ذكرهم آدم. فأقرّت الملائكة بالعجز وقالوا: سبحانك لا علم لنا إلاّ ما علّمتنا! إنّك أنت العليم الحكيم. قال اللّه تعالى: يا آدم أنبئهم بأسمائهم؛ فجعل آدم يخبرهم باسم كلّ شيء خلقه اللّه تعالى في البحر حتّى الذرّة والبعوضة. فتعجّبت الملائكة من ذلك، ثم قال اللّه: "ألم أقل لكم إنّي أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون"، يعني ما كان إبليس في إضماره المعصية. قال ونزل آدم من منبره وقد زاد اللّه في حسنه وجماله، ثم قرّب إليه قطيفًا من عنب الجنّة فأكله، فهو أول شيء أكله من طعام الجنّة. فلمّا استوفاه قال: الحمد للّه تعالى، لهذا خلقتك يا آدم، فهي سُنّتك وسُنّة أولادك إلى آخر الدهر. ثم أخذته ألسِنَة فنام لأنّه لا راحة للبَدن إلاّ بالنّوم. ففزعت الملائكة وقالت: النومُ أخو الموت، وهذا يموت. فلمّا سمع إبليس أنّ آدم أكل الطعامَ فرِحَ وقال: سوف أغويه...

ثانيًا - سفينة نوح

لمّا عزم نوح على اتّخاذ السفينة، دعا بتابوتِ آدم فيه آلات النجارة مثل منشار وقدّوم وغير ذلك. وكان قد أوحى اللّه إليه أن يتّخذ السفينة وقال له: اتّخذها في ديار قومك، واجعلْها ألفَ ذراع طولاً وخمسمائة ذراعِ عرضًا، وثلاثمائة ذراع سمكًا. وكان ينشر الخشب على مثل الألواح والمسامير، كلّ واحد منها على اسم نبيّ من الأنبياء. وكانت تُضيء مثلَ الكواكب إلاّ ما كان منها باسم محمّد ﷺ، فكان ذلك على نور الشمس والقمر. وكان جبريلُ يعلّمه ببنائها، وكان هو يبني السفينة ويُعينه أولاده وقومه المؤمنون على بنائها، والناس كلّهم يسخرون منه ويقولون: يا نوح بعد النبوّة صرت

نجّارًا، وإنّما نحن نشكو للقُحط وأنت تبني للغرق، وهذا لكثرة جنونك. وكان نوحيقول: ﴿إن تسخروا منّا، فإنّا نسخر منكم كما تسخرون، فسوف تعلمون﴾[1].

وكان القوم يأتون السفينة بالليل ويُشعلون النار فيها ليحرقوها فلا يضرّها ذلك فينصرفون ويقولون: هذا من سحرك يا نوح. فأقام نوح على بناء السفينة شهرًا وجعل رأسها كرأس الطاووس، وعنُقَهَا كعنق النسر ووجهها كوجه الحمامة، وكوثلها[2] كذنب الديك، ومنقارها كمنقار الباز، وأجنحتها كأجنحة العقاب، وعلّق على كلّ طاقة من أجنحتها جواهر ملوّنة، وركّب على كوثلها مرآة عظيمة لها ضوء عظيم.

ثم غشّاها بالزفت وجعل حبالها سلاسل الحديد، وجعلها سبعة أطباق، لكلّ طبقة باب. وعلّق على تلك الأبواب قناديل. وكان عوج بن عناق يعاونه على نقل الألواح. فلمّا فرغ من بنائها وقع العُثّ فيها، فشكا ذلك إلى اللّه تعالى، فأوحى اللّه إليه: يا نوح، إنّه لا تبقى السفينةُ على صحّتها إلاّ أن تسمّر فيها أربعة مسامير، وتكتب عليها أسماء خلفاء محمّد ﷺ وهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعليّ، ففعل ذلك نوح، فصحّت السفينة. ثم أنطقها اللّه تعالى وقالت: والناس ينظرون ويسمعون: لا إله إلاّ اللّه، نوحٌ نبيّ اللّه، من ركِبني نجا ومن تخلّف عني هلك، ولا يدخُلني إلا أهلُ الإخلاص. فقال نوح للقوم: أتؤمنون الآن؟ فقال له القوم: إنّ هذا القليل من سحرك. ثم دعا نوح اللّه تعالى أن يأذنَ له في الحجّ فأذِن له في ذلك، فلمّا خرج إلى الحجّ همّ القوم بإحراق السفينة، فأمر اللّه الملائكة فاحتملوها إلى الجو، فكانت هناك معلّقة بين السماء والأرض، والقوم ينظرونها، ولا يقدرون عليها ولا يعتبرون، مع ما يرون من الآيات. فلمّا فرغ نوح من حجّه دعا اللّه تعالى على قومه هناك فأمّنت الملائكة على دعائه

---

١ ـ سورة هود، آية ٤٠.

٢ ـ الكوثل: مؤخّر السفينة.

فاستجاب اللّه دعوته وذلك قوله تعالى: ﴿ونوحًا إذ نادى من قبلُ فاستجبنا له، فنجّيناه وأهلَهُ من الكرب العظيم﴾[1]. فلمّا قضى مناسكه التفت فإذا هو بتنور آدم عن يمين الكعبة، فسأل اللّه تعالى في ذلك التنور أن ينقله إلى داره، فأوحى إلى الملائكة أن يحملوه إلى نوح، وكانت داره يومئذ في موضع مسجد الكوفة فرجع نوح من الحجّ وأنزلت السفينة من الهواء.

الغـــرق والطوفان

ثم أوحى اللّه تعالى إلى نوح أن ينادي في الطير والوحوش، والسباع والهوامّ والأنعام حتى يبلُغَها صوتُه. فوقف نوح على سطح داره، ثم نادى وقال: أيها الوحوش الراتعة والهوامّ الهائمة، والسباع الضارية والانعام المتفرّقة، والطيور الطائرة، هلّموا إلى السفينة المنجّية. فبلغت دعوتُه الشرقَ والغرب، والسهل والجبل، فأقبلت إليه هذه الخلائق زمرة بعد زمرة فقال نوح: إنّي أُمرت أن أحمل في سفينتي هذه من كلّ زوجين اثنين: ذكرًا وأنثى. فلمّا قال ذلك اقترعوا كلّهم فكلّ مَن أذن اللّه له في حمله أصابته القرعة، إلاّ مَن كان من بني آدم فإنّهم كانوا ثمانين: نساءً ورجالاً. وكانت الحيّة يومئذ عظيمة الخَلق على قدْر البعير، وكذلك العقربُ كانت كالأسد اليوم. وكان الأسد كالفيل اليوم. فضرب جبريل بجناحه على الأسد وقال له: لا زلتَ موعوكًا محمومًا، وضرب على فم الحيّة فأسقط أنيابها، وضرب على العقرب فقطّع فقراتِه حتّى لا يضرب أحد من بني آدم الذين في السفينة.

---

١ ـ سورة الانبياء، اية ٧٦.

وكان ميعاد الغرق إذا فار التنور، وكان نوح ينتظره، فلمّا كان مستهلّ شهر رجب[1] نودي من التنور: قم يا نوح فاحمل في سفينتك من كلّ زوجَين اثنَين. فحملَ في الباب الأوّل الرجال وجسد آدم، وهو غضّ لم يتغيّر منه إلاّ أظافيره، فإنّها اخضرّت من غير رائحة، وحمل فيه أيضًا تابوتَ آدم، وفيه عِصيّ الأنبياء وعدد العصي ثلاثمائة وثلاثَ عشرة عصًا، مكتوب على كلّ عصًا منها اسم صاحبها.

وحمل في الباب الثاني النساءَ وفيه امرأته وبناته، وحمل فيه جسد حوّاء. وحمل في الباب الثالث الوحوشَ والدوابّ وجميع الأنعام. وحمل في الباب الرابع الطير وأجناسها والهوامّ الطائرة وغيرَ الطائرة. وحمل في الباب الخامس السباع، وكلّ ذي ناب ومخلب. وحمل في الباب السادس الحيّة والعقرب. وحمل في الباب السابع الفيل، ذكرًا وأُنثى، والأسد ذكرًا وأُنثى؛ ونوحٌ واقف على صدر السفينة وهو يقول: "اركبوا فيها بسم اللّه مجراها ومُرساها"[2] حتّى تجري وتقف، وكان كلّ مَن ركبها يقول: بسم اللّه وعلى ملّة نوح، حتّى اتّخذوا مجالسهم وعلت الصلوات بالتهاليل والتكبير. وكان الحمار يبطئ في صعوده إلى السفينة لأنّ إبليس تعلّق بذنبه. فقال نوح: أدخل يا شيطان، فدخل الحمار ومعه إبليس، فقال له نوح: يا ملعون من أدخلَك سفينتي؟ فقال: أنت يا نوح حيث قلت: أدخل يا شيطان، ولا بدّ لك من حملي فقال له نوح: لا تغوِ أحدًا من أهل سفينتي، قال: نعم ولكنّي أغويهم إذا خرجوا من سفينتك.

وأقبلَ إبليس حتّى قعد على كوثل السفينة؛ فأوحى اللّه تعالى إلى جبريل أن يأمر خزَنَةَ المياه أن يبعثوها بغير كيل ولا وزن، وأن يضرب تلك المياه بجناح الغضب. ففعل جبريل ذلك بالمياه فانبذرت العيون والمثاقب على غير قدْرٍ ولا كيل، وفار

---

١ ـ رجب: من الشهور العربيّة بين جمادى الآخرة وشعبان.

٢ ـ سورة هود، آية ٤٢.

التنور، وهطلت السماء بوابل عظيم، "والتقى الماء على أمر قد قُدّر" فكان ماء السماء أخضرَ وماءُ الأرض أصفرَ متفجّرًا، وأخذت المياه في التدارك تُرمى، والملائكة من خلالها بالبروق الخواطف، والرعود القواصف. وابتدر الطوفان من كل جانب ومكان، وملائكة الغضب تضرب بأجنحتها، وأوحى اللّه تعالى إلى ملائكة الأرض أن يمسكوا الدنيا لئلاّ تتقلع من أصولها. وكانت الشياطين تتخلّل الأصنام وتكمن في أجوافها، فتغوي القوم على ألسنتها. فلمّا عاينت الطوفان أخذت تُنفر النارَ من أجوافها، فضربتها الملائكة بأجنحتها ومنعتها من الخروج حتّى غرقت مع الأصنام. وأمر اللّه الملائكة أن تحمل البيت الحرام إلى السماء الدنيا، وكان الحجر الأسود يومئذ أشدّ بياضًا من الثلج فيقال: إنّه سُوّد من خوف الطوفان. وفي رواية أُخرى، سُوّد من ذنوب العباد. فاضطربت الأمواجُ كما قال اللّه تعالى: ﴿وهي تجري بهم في موج كالجبال، ونادى نوح ابنه "كنعان" فقال له: يا بنيّ اركب معنا، ولا تكن مع الكافرين﴾[1]، وكان واقفًا على تلّ. وقال كنعان: ﴿سآوي إلى جبل يعصمني من الماء، فقال نوح: لا عاصم اليوم من أمر اللّه وقضائه، إلاّ من رحم. وحال بينهما الموج فكان من المغرقين﴾[2].

وكانت السفينة تجري يمينًا وشمالاً ولا تجاوزُ ديار قوم نوح، فأوحى اللّه تعالى إلى السفينة أن تحفظ مَن فيها كحفظ الوالدة للولد... وأمرها اللّه تعالى أن تطوف بنوح أقطار الأرض والدنيا. فعند ذلك أطبق نوح أبوابها وجعل يتلو صحف شيث وإدريس، وكان أهل السفينة لا يعرفون الليل والنهار إلاّ بخرزة بيضاء، مركّبة في صدر السفينة، فإذا نقص ضوؤها علموا أنّه النهار، وإذا زاد ضوؤها علموا أنّه ليل. وكان الديك يصعق عند الصباح فيعلمون أنه قد أصبح الصباح. قال وهب بن منبّه إنّ الديك

---

١ ـ سورة هود، اية ٤٤.

٢ ـ سورة هود، اية ٤٥.

إذا صعق يقول: سبحان الملك القدّوس، سبحان مَن ذهب بالليل وجاء بالنهار خلقًا جديدًا، يا نوح: الصلاةَ يرحمك اللّه، والدنيا قد صارت طبقًا واحدًا من الماء، لا يُرى حجرٌ ولا جبل ولا شجرة. وكان الماء قد علا على الجبال أربعين ذراعًا، وسارت السفينة حتّى بلغت بيت المقدس فوقفت ونطقت بإذن اللّه وقالت: يا نوحُ هذا موضع بيت المقدس الذي تسكنه الأنبياء من وُلدك. ثمّ سارت إلى موضع الكعبة وطافت سبعًا ونطقت بالتلبية. ولبّى نوح ومَن معه بالسفينة. ثم مرّت وكانت لا تقف في موضع إلاّ تناديه: يا نوح هذه بُقعة كذا وكذا. حتّى طافت بنوح المشرق والمغرب ثم كرّت راجعة إلى ديار قوم نوح فوقفت وقالت: يا بني اللّه، ألا تسمع إلى صلصلة السلاسل في أعناق قومك؟ فلم تزل السفينة كذلك ستّة أشهر أوّلها رجب وآخرها ذو الحجّة[1] ثمّ سارت حتّى استقرت على الجوديّ[2] بعد ستّة أشهر.

ثمّ إنّ اللّه تعالى أوحى إلى الأرض والسماء فقال: "يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي... يعني احبسي المطر. وغِيضَ الماء، وقُضِيَ الأمر بين الفريقَين، واستوتْ على الجودي وقيل: بعدًا للقوم الظالمين". وسكتت السماء عن المطر، وبلعت الأرض ما كان على ظهرها من الماء...

ثالثًا ـ هلاك نمرود

روت الرواة بأسانيدَ مختلفة أنّ أوّل جبّار كان في الأرض، النمرود ابنُ كنعان. وكان الناس يخرجون ويشترون من عنده الطعام، فخرج إليه ابراهيم يشتري. وكان

---

١ ـ **ذو الحجّة**: آخر أشهر السنة القمرية وهو شهر الحجّ.

٢ ـ **الجودي**: جبل بأرض الجزيرة.

النمرود إذا مرّ به الناس قال لهم: مَن ربّكم؟ قالوا: أنت. حتّى مرّ به إبراهيم، قال له: مَن ربك؟ قال: "ربّي الذي يحيي ويميت. قال: أنا أُحيي وأميت. قال ابراهيم: فإنّ اللّه يأتي بالشمس من المشرق، فأتِ بها من المغرب، فبهت الذي كفر"، وردّ ابراهيم بغير طعام. فرجع ابراهيم إلى أهله فمرّ بكثيب مقفر فقال: لآخذنّ هذا، فآتي به أهلي، فتطيب به قلوبهم حين أدخل عليهم. فأخذه ابراهيم فأتى به أهله، فوضع متاعه ثمّ نام.

فقامت امرأته إلى متاعه ففتحته، فإذا هو بأجود دقيق رأته، فأخذتْهُ وصنعت منه طعامًا. فلمّا أفاق قدّمته إليه، وكان عهده بأهله أن ليس معهم شيء، ولا عندهم طعام. فقال لهم: من أين هذا؟ فقالت من الطعام الذي جئتَ به. فعلم ابراهيم أن اللّه رزقه فحمد اللّه وشكره.

ثمّ إنّ النمرود لمّا حاجّه إبراهيم، عليه السلام، في ربّه، قال: إن كان ما يقول ابراهيم حقًّا فلا أنتهي حتّى أعلمَ مَن في السماء. فبنى صرحًا عظيمًا عاليًا ببابل، ورام منه الصعود إلى السماء لينظر إلى إله ابراهيم، في ما يزعم.

قال ابن عبّاس ووهب: كان طولُ الصرح من السماء خمسة آلاف ذراع. وقال مقاتل وكعب: كان طوله فرسخَين، ثمّ عمد إلى أربعة أفراخ من النسور فعلفها باللحم والخبز وربّاها حتّى شبّت واستفحلت ثمّ قعد في تابوت، ومعه غلام، وقد حمل قوسه ونشابه. وجعل لذلك التابوت بابًا من أعلاه وبابًا من أسفله. ثم ربط التابوت بأرجل النسور وعلّق اللحم على عصا فوق التابوت. ثمّ خلى عن النسور، فطارت وصعدت طمعًا في اللحم حتّى أبعدت في الهواء.

قال النمرود لفتاه: افتحِ الباب الأعلى وانظر إلى السماء هل قربنا منها؟ ففتح الباب الأعلى ونظر، فإذا السماء في هيئتها، ثم قال: افتحِ الباب الأسفل فانظر إلى الأرض كيف تراها؟ ففتح فقال: أرى الأرض مثلَ الحيّة البيضاء، والجبال كالدخان. وطارت

النسور وارتفعت حتّى حالت الريح بينها وبين الطيران، فقال لغلامه: افتح البابين، ففتح الأعلى فإذا السماء كهيئتها، وفتح الباب الأسفل فإذا الأرض سوداء مظلمة، ونودي: أيّها الطاغي، أين تريد؟ قال عكرمة: فأمر عند ذلك غلامه فرمى بسهم، فعاد إليه السهم ملطّخًا بالدم فقال: كفيتُ شغلَ إله السماء. واختلفوا في ذلك السهم من أيّ شيء تلطّخ؟ فقال عكرمة: من سمكة في بحرٍ معلّق في الهواء بين السماء والأرض قرّبت نفسها للّه تعالى. وقال بعضهم: اصاب السهم طائرًا من الطير فتلطّخ من دمه.

ثم أمر النمرود غلامه أن يصوّب العصا وينكس اللحم ففعل ذلك، فهبطت النسور بالتابوت، فسمعت الجبالُ حفيف التابوت والنسور، ففزعت وظنّت أنّه أمرٌ حدث في السماء وأنّ الساعة قد قامت.

ثمّ إنّ اللّه تعالى بعث إلى النمرود ملكًا أن آمنْ حتّى أتركك على ملكك. قال: فهل ربّ غيري؟ فجاءه الثانية والثالثة فأبى عليه، فقال له الملك: اجمَعْ جموعك إلى ثلاثة أيّام. فجمع النمرود جموعه وجنوده فأمر اللّه تعالى أن يفتح عليهم بابًا من البعوض ففعل، فطلعت الشمس ذلك اليوم، فلم يرَوْها من كثرة البعوض، فبعثها اللّه تعالى على النمرود وقومه، فأكلت لحومهم وشربت دماءهم فلم يبقَ منهم إلاّ العظامُ، والنمرود كما هو، لم يصبه شيء من ذلك. فبعث اللّه إليه بعوضة فدخلت في منخرة حتّى وصلت إلى دماغه. فمكث أربعمائة سنة تُضرب رأسه بالمطارق. فأرحمُ الناس به من جمع يديه ثم يضرب بهما رأسه، وكان جبّارًا أربعمائة سنة فعذّبه اللّه أربعمائة سنة كمدّة ملكه. ثم أنّ البعوضة أكلت دماغه وأهلكه اللّه، سبحانه وتعالى، وخذله.

الفصل السابع

الدِّيانَة والميثُولوجيَا اليُونانيَّة

الميثولوجيا أو علم الأساطير يهتمّ برواية رواية تقليديّـة تتكلـم عـن أحداث خارقـة للعادة أو تتحدّث عن أعمال الآلهة والأبطال. وهي عادة تعبّر عـن معتقدات الشـعوب البدائيّة وآمالها ومطامحها، وتمثّل تصوّرها لظواهر الطبيعة وأحداثها. وهذا العلم يهتـمّ بجمع الأساطير ودراستها على نحو نظاميّ ومنهجيّ. وهو نظام متكامل من الأسـاطير تدور بخاصّة على أصل شعب وتاريخه وآلهته وأسلافه وأبطاله الخرافيّين.

الدراسات الحديثة اعتبرت الأسطورة خرافة زيّنـت تسـميتها بمعـانٍ برّاقـة مختلفـة أظهـرت أبعـادًا فكريّـة غير واضحـة لأسباب اجتماعيّـة ودينيّـة. أمّـا المسـيحيّون فقـد اعتبروها بدعة وخاصّة ملحمتَي الإلياذة والأونيسّة اللتين، كتـب سـليمان البسـتاني فـي مقدّمة نسختة المعرّبة عن الإلياذة ما يلي[1]:

"... بات إغفال شـعر هومـيروس لـدى المسـيحيّين مـن بـاب لـزوم أخذهـم بدينهـم موردًا صافيًا لا تشوبه أساطير السلف من عبدة الأوثان. لكنّ بعـض الدعـاة غـالوا فـي اتّخاذ الطرق المؤدّية إلى تلك الغاية فاتّهموا هوميروس بابتداع البدع وتحريـف التـوراة ليصوغ منها مـا وافـق مذاهـب قومـه مـن القصـص المستنبطة... لهـذا كـانوا ينـادون بتحريمها خشية من أن تفسد عقيدة الناشئة المتنصّرة..."

---

١ ـ إلياذة هوميروس، المقدمة.

وهكذا رفض الفكر المسيحيّ الفتيّ الأسطورة، بحيثيّاتها اللامنطقيّة، كونها استحداث لقضايا وهميّة جماعيّة لا تنطبق مع مفاهيم العهدَين القديم والجديد.

لكنّ القراءة الصحيحة للميثولوجيا تبلورت في القرن العشرين متحرّرة من قيود الديانات ومنفتحة على حضارات العالم القديم كونها مصدرًا مهمًّا من مصادر التاريخ البشريّ. وارتدت الميثولوجيا حلّة جديدة تتناسب مع كيانها ووجودها فأضحت واقعًا حيًّا في الفكر الفلسفيّ للحضارات القديمة حتّى لو كانت مرتكزة على عالم خياليّ.

يقول "إدموند فولر" إنّ الأسطورة تعني شكلاً من أشكال الواقع التي لا تتواصل مع الإنسان إلاّ بواسطة القصّة الرمزيّة فقط. أمّا "أرنولد توينبي" فيرى أنّ التاريخ ينمو من الأسطورة. فمَن يقرأ الإلياذة، كتاريخ، يجد فيها الكثير من الخرافة، ومَن يقرأها، كخرافة، يجد فيها الكثير من التاريخ.

ونحن نرى أنّ الانسان بحاجة للأسطورة لتأكيد وجوده، وأنّ الأسطورة بحاجة للإنسان لتنمو وتحيا.

ضمن هذا المفهوم وصلت الديانة الميثولوجيّة مع الحضارة اليونانيّة إلى ذروتها متوّجة مرحلة طويلة من مراحل ما قبل التاريخ الدينيّ. لقد بلغت الديانة اليونانيّة درجة الكمال لجهة الطقوس والاحتفالات والمعابد وخدمتها والآلهة وتقسيمها ووظائفها، بشكل يدعو إلى الإعجاب، رغم أنّ هذه الديانة لم تكن من الديانات السماويّة التي عُرفت في ما بعد. وإنّ قارئ أشعار هسيودوس وهوميروس ولا سيّما الإلياذة والأوديسّة، رغم قدم تاريخهما، يفاجأ بدرجة الكمال الدينيّ والميثولوجيّ للتنظيم الدينيّ لليونان الأقدمين[١].

---

١ ـ عياد د. محمّد كامل، تاريخ اليونان، كلّيّة الآداب في جامعة دمشق (دمشق، ١٩٦٩) ص ١٠٧ ـ ١٢٣.

حضارة كريـــت

إذا عدنا ألف سنة قبل حصار طروادة لاكتشفنا عالمًا متكاملاً وحضارة متطوّرة في جزيرة كريت مع الملك "مينوس" ومقرّه "كنوسس". لقد لقّن كهنة مينوس الشعب أنّه من نسل "فولكانوس Volchanos"، وأنّه تلقّى من هذا الإله القوانين التي يصدرها. وكان الكهنة يخلعون على الملك السلطة الإلهيّة والذي اتّخذ البلطة المزدوجة وزهرة الزنبق رمزًا لسلطته. حتّى في الدار الآخرة، أصبح قاضي الموتى الذين لا مفرّ من عرض قضاياهم عليه، وفق هوميروس[1].

والكريتيّ متديّن، عبَدَ الجبال والمغاور والعدد (٣) والأشجار والأعمدة والشمس والقمر، والمعز والأفاعي واليمام والثيران وغيرها. والهواء في اعتقاده مملوء بالأرواح، منها الطيّب ومنها الشرّير. وعظّم الكريتيّ الإخصاب فصوّر الإلهة الأمّ ذات ثديين وجسم طويل مع أفاعٍ تلتفّ حول ذراعَيها وثديَيها، وتضمّ بين ذراعيها الطفل المقدّس "فولكانوس"، الذي ولدته في مغارة جبليّة والذي دعي أيضًا "زفس" الكريتيّ. وهو يموت ثمّ يقوم من الموت فيكون رمزًا للحياة المتجدّدة في النبات والحيوان والإنسان.

ويضاجع "زفس" زوجة "مينوس" واسمها "باسفيا"، فتلد له ثور "مينوس" أو الـ "مينوتور" المشهور.

والكريتيّ لم يبن معابد للآلهة، إنّما كان يقيم المذبح في بهو القصر والمغاور المقدّسة أو قمم الجبال ويزيّنه بالأصنام والقرون التي ترمز إلى الثور المقدّس، والدرع

---

١ ـ عياد، تاريخ اليونان، مرجع سابق، ص ١٨ ـ ٣٨.

التي ترمز إلى الإله المحارب، والصليب اليونانيّ الذي يحضره على جبهة ثور أو خاتم، والبلطة المزدوجة التي تمثّل التضحية، أو رمزًا لـ "زفس". وهو يعبد هذه الرموز أيضًا.

ويهتمّ الكريتيّ بموتاه فيعبدهم ويدفنهم في جرار أو توابيت وذلك كي يعودوا في ما بعد إلى الحياة ثانية. ويضع معهم الأدوات والطعام والخدم لتأمين طعامهم ومؤاساتهم[١].

أساطيـــــــــر

عصر الأبطال

اليونان أيضًا عرفت ديانة قريبة من الكريتيّة، وذلك قبل غزوات الآخيّين والدوريّين، في مدينتَي "ميكيني" و"تيرنس"، حيث نجد البلطة المزدوجة والعمود المقدّس واليمامة الإلهيّة وعبادة الإلهة الأمّ وأرباب صغار. فقد جاءت بعد "ريا **Rhea**" الكريتيّة "دمتر **Demeter**" أمّ اليونان الحزينة.

أمّا أساطير الآخيّين الذين يرى المؤرّخون أنّهم اليونانيّون الذين حاصروا طروادة، فقصصهم قصص أبطال، وهم أنصاف آلهة مثل هرقل ومينوس ونسيوس. وكان أتريوس ملك الآخائيّين، فتزوّج ابنه "زيوس" مع "بلبس" فولدا "أغاممنون" ملك الملوك في الإلياذة و"منلوس" الذي تزوّج "هلن" بطلة الإلياذة، فيما تزوّج "أغاممنون" "كليتمنسترا"[٢].

---

١ ـ عياد، تاريخ اليونان، مرجع سابق، ص ٤٥ ـ ٥٥.

٢ ـ الياذة هوميروس، مرجع سابق.

أساطير عصر الأبطال تنقل أنّ "زفس" غضب على الجنس البشريّ فسلّط عليه طوفانًا لم ينجُ منه سوى "ديوكاليون" وزوجته "برها" في فلك استقرّ على جبل بارنسس. تناسل منهما "هلن" الذي تحدّرت منه جميع القبائل اليونانيّة واشتقّ اسمها من اسمه.

"هلن" هو جدّ "آخيوس" الذي تحدّر منه الآخيّون، و"أيون" الذي تحدّر منه الأيونيّون. "اسكربس" ابن "أيون" أنشأ أثينا بمساعدة الآلهة وعلّم رعاياه عبادة الآلهة الأولمبيّة وخاصّة "زفس" و"أثينا".

وفي شمال أثينا قامت مدينة طيبة التي أنشأها قدموس الفينيقيّ وعلّم أبناءها الحروف الهجائيّة وقتل التنّين (بين ١٤٠٠ ق.م و ١٢٠٠ق.م). أحد أحفادها هو أوديب الذي تزوّج والدته.

١ ـ أسطورة هرقل

ومن أشراف طيبة رجل يُدعى "أمفتريون Amphitron" متزوّج من امرأة فاتنة اسمها "ألكميون Alcmene" أحبّها "زفس" واستولدها هرقل، فأرسلت الإلهة "هيرا" زوجة "زفس" حيّتَين لإهلاك الطفل الذي أمسك بهما وخنقهما، فسُمّي "هرقليز" لأنّه ورث المجد عن "هيرا". ولمّا شبّ "هرقل" أصبح جبّارًا وبطلاً أسطوريًّا ونصف إله. قتل أسدًا بعد أن وعده "تسبيوس" ملك "تسبيا" بتزويجه بناته الخمسين. سلّطت عليه "هيرا" جنونًا فقتل أبناءه دون علم منه.

جاء هرقل إلى مهبط الوحي في دلفي فأُشير عليه بأن يخدم ملك "أرغوس" "يورثيوس" اثنَي عشر عامًا يصبح بعدها إلهًا مخلّدًا. نفّذ المطلوب وانضمّ إلى ركاب سفينة "أرغوس" ونهب طروادة مع اليونان[1]، وأعان الالهة للانتصار على المردة

---

١ ـ كان ذلك قبل حصار طروادة إذ قتل هرقل ملكها لومدون وأبناءه كلّهم باستثناء بريام الذي كان ملكها أثناء حصارها المشهور.

الجبابرة. وبعد موته اتّخذه الشعب بطلاً وإلهًا[1].

٢ ـ أسطورة سفينة أرغوس[2]

هذه القصّة تجمع الرواية التاريخيّة مع السطورة الميثولوجيّة والمغامرات إلى الواقع والغموض إلى الحبّ والحرب.

تبدأ القصّة الملحمة بالملك "أثاماس" في "بيؤتيا" الذي حلّ ببلاده القحط فعرض على الآلهة تقدمة ولده" فركسوس" قربانًا لها. فرّ "فركسوس" مع أخته "هِلِى" وطارا في الجوّ على ظهر كبش ذي جزة ذهبيّة. لكنّ "هِلِى" سقطت في البحر في المضيق الذي سُمّي "الهلّسبنت" على اسمها.

وصل "فركسوس" إلى خلقيز حيث ضحّى بالكبش وعلّق جزته على شجرة تكريمًا لآريس إله الحرب، لأنّ نبوءة أوحت أنّ أحد الغرباء سيستولي على الجزة فيموت الملك. أمر الملك بقتل كلّ غريب يأتي بلاده. لكنّ ابنته "ميديا" حاولت حماية الغرباء وهربت من والدها وعاشت في مكان مقدّس بجوار البحر.

بالمقابل، وقبل ذلك بعشرين عامًا، حوالى ١٢٤٥ ق.م.، اغتصب بلياس بن بوسيدن الإله عرش إبسن أحد ملوك تساليا. وعندما شبّ ابن الملك المخلوع واسمه جبسن، أقنعه بلياس أن يحضر الجزة الذهبيّة فتكون ثمنًا لعرش والده. قبلَ جبسن ودعا أبطال اليونان لمرافقته فلبّى الدعوة "هرقل"، و"هيلاس" صديقه، و"بليوس" والد "أخيل" بطل الإلياذة، والعذراء "أتلنتا" السريعة العدو وغيرهم.

---

١ ـ عياد، تاريخ اليونان، مرجع سابق، ص ٩٨ ـ ١٤٠.

٢ ـ حاتم، تاريخ اليونان، مرجع سابق، ص ٣٤١ ـ ٣٧٤.

لاقى ركّاب السفينة الأهوال في رحلتهم وتعرّض لهم الطرواديّون في "الهلسبنت"، فنهب هرقل المدينة كما ذُكر سابقًا. ولمّا وصلت السفينة إلى مقصدها ساعدت ميديا ركّابها شرط أن يتزوّجها جبسن، الذي تمكن من الحصول على الجزة الذهبيّة وعاد إلى بلاده دون أن يتمكّن من الحصول على عرش والده بسبب استعمال ميديا لقواها السحريّة في التغلّب على ملك تساليا.

الغـــزو

الدوريّ

حوالى عام ١١٠٤ق.م.، اجتاحت بلاد اليونان موجة غزو جاءت من الشمال وصلت إلى البيلوبونيز وقضت على حضارة كريت ومكينا وتيرانس[١]. إستعمل الغزاة الحديد للمرّة الأولى وشادوا كورنثة الدوريّة. هؤلاء الغزاة هم الدوريّون الذين تمازجوا مع الآخيّين والإيونيّين والكريتيّين والبلاسجيّين، فأقاموا، بعد قرنَين من الزمن، الحضارة اليونانيّة الشهيرة التي تفوّقت على أمّهاتها في الآداب والفنون، وأخذت مكان الفينيقيّين في السيطرة على البحار.

الشاعر هزيود والأساطير عن الآلهة

كتب الشاعر هزيود (٨٤٦ ق.م ــ ٧٧٧ ق.م) أنسابًا للآلهة وأسر الأرباب وملوكهم. ونقل أنّ العالم كان عماء أو فراغًا **Chaos**. ثم وُلد إله بعد إله حتّى ضاق جبل الأولمب بالآلهة فولدت الأرض المقرّ الثابت لجميع الآلهة المخلّدين[٢].

---

١ ـ عياد، تاريخ اليونان، مرجع سابق، ص ٩٨.

٢ ـ يشكّك بعض الكتاب في أنّ هزيود هو كاتب هذه القصص عن الآلهة.

وُلد بعد ذلك إله العالم السفليّ طرطروس، وإيروس Eros أو الحبّ. ووُلد للعماء الظلمة والليل، ووُلد لهذَين الأثير والنهار. وولدت الأرض الجبال والسماء. ومن اقتران السماء بالأرض وُلد المحيط أي البحر.

ويعزو هزيود للآلهة أفحش العلاقات الجنسيّة، فقد وُلد من زواج السماء "أورانوس" بالأرض "جيا" جيل من الجبابرة، لبعضهم خمسون رأسًا ومائة يد. أورانوس لم يكن يحبّهم، فقذف بهم إلى طرطروس إله العالم السفليّ. لكنّ الأرض ساءها ذلك فاقنعتهم بقتل والدهم. قام أحدهم "كرونس" ببتر قضيب والده وألقى به في البحر فنشأ من نقط الماء التي سقطت على الأرض آلهة الانتقام Furias، ومن الزبد نشأت أفروديت[1].

إستولى الجبابرة على الأولمب وأنزلوا أورانوس "السماء" عن عرشه ورفعوا مكانه "كرونس" الذي تزوّج أخته "ريا Rhae". وكان أبواه، السماء والأرض، قد تنبّآ أنّ أحد أولاده سيقتله، فقام بابتلاعهم باستثناء "زفس" الذي ولدته "ريا" سرًّا في كريت. فلمّا شبّ "زفس" خلع "كرونس" وأرغمه على أن يُخرج أولاده من داخله وأعاد الجبابرة إلى باطن الأرض.

هذه هي الطريقة التي ولدت بها الآلهة، وفق هزيود[2].

خلق المرأة

قام بروميثيوس بسرقة النار من السماء، فغضب عليه "زفس" وأمر الآلهة أن تخلق المرأة لتكون هديّة للرجل. ثم أمر أثينا أن تعلّمها نسج القماش المتين، وأفروديت

---

١ ـ اللفظ مشتقّ من أفروس Aphros أي الزبد.

٢ ـ حاتم، تاريخ اليونان، مرجع سابق، ص ٣٣٣ ـ ٣٣٥.

الذهبيّة أن تنشر حول رأسها الرشاقة والشهوة والقلق، والرسول هرمس أن يمنحها عقلاً كعقل الكلاب وأخلاقًا كلّها خداع ودهاء. ووضع في جوفها صوتًا جذّابًا وأسماها "بندورا". ويذكر هزيود في كتابَيه الكبيرَين أنّ معظم الشرور في العالم هي من فعل "بندورا" الحسناء.

خلق الشرور[1]

أهدى زفس بندورا إلى ابميثيوس الذي حذّره شقيقه بروميثيوس من قبول هدايا الآلهة فرفض. وكان بروميثيوس قد ترك عند أخيه صندوقًا عجيبًا أوصاه بعدم فتحه. لكنّ حبّ الاستطلاع عند بندورا دفعها إلى فتحه فطار منه عشرة آلاف شرّ انتشرت بين الناس، ولم يبقَ فيه إلاّ الأمل وحده.

بهذه الطريقة وهب زفس الرجال نساءً ليكنّ مصدر الشر والأذى.

آلهـــة

اليونان[2]

في الدين، أنّ النزعة الانفصاليّة والقبليّة في بلاد اليونان جعلت التوحيد مستحيلاً كما حصل عند الفينيقيّين. فقد كان لكلّ قبيلة، في أيّام اليونان القديمة، إلهها الخاصّ توقد له النار التي لا تنطفئ وتقدّم له القربان من الطعام والخمر.

---

١ ـ حاتم، تاريخ اليونان، مرجع سابق، ص ١٥٤.

٢ ـ ديورانت ول، قصّة الحضارة، دار الجيل (بيروت) ٦: ٣٢١ ـ ٣٢٧.

وخلقت هالة من القداسة والطقوس أمام النار المقدّسة للولادة والزواج والموت.

مدينة أثينا عبدت الإلهة أثينا، ومدينة إلوسيس عبدت دمتر، وساموس عبدت هيرا، وأفسوس عبدت أرتميز، وبوسيدونيا عبدت بوسيدن. فإذا خرجت جيوش المدينة للحرب حملت معها صورة إلهها وشعاره. كما كانت تستشيره في القضايا الهامّة. وعليه أن يحارب في صفّها. لذلك كان نصر المدينة يشمل نصرًا لإلهها.

حاكم المدينة هو أيضًا كبير كهنتها.

وكان كلّ شيء وكلّ قوّة في الأرض أو السماء، وكلّ نقمة أو نعمة، وكلّ صفة من صفات الإنسان، تمثّل إلهًا في صورة بشريّة عادة. وكان لكلّ حرفة أو فنّ إله خاصّ أو راعٍ.

وعند اليونان شياطين ونساء مجنّحات، وآلهة انتقام، وجان، وأرباب بشعو المنظر، وإلهات جميلات الصوت، وحوريّات في البحار والغاب، وعددهنّ كعدد سكّان الأرض. ولهم قصص فتّانة وأضرحة مقدّسة.

ولكلّ إله أسطورة تشرح سبب وجوده وتفسّر طقوسه. وهذه الأساطير أصبحت عقيدة اليونان الأوائل وفلسفتهم وآدابهم وتاريخهم.

كما أنّ الآلهة تموت وتولد كالإنسان تمامًا.

سجـــلّ

الآلهـــة[1]

يمكن تقسيم الآلهة إلى سبع مجموعات:

١ ـ آلهة السماء.

٢ ـ آلهة الأرض.

٣ ـ آلهة الخصب.

٤ ـ الآلهة الحيوانيّة.

٥ ـ آلهة ما تحت الأرض.

٦ ـ آلهة الأبطال.

٧ ـ الآلهة الأولمبيّة.

١ ـ آلهة السماء

أورانوس إله السماء؛ زيوس إله الرعد والمطر؛ هليوس إله الشمس.

من الآلهة الصغرى نظرًا للطقس الحارّ في البلاد.

٢ ـ آلهة الأرض

الأرض هي موطن معظم الآلهة:

ـ الإلهة "جي" أو "جيا" هي الإلهة الأرض الأمّ التي حملت عندما عانقها أورانوس منزل المطر.

---

١ ـ معلومات مستقاة من مراجع عدّة.

ـ يسكن الأرض نحـو ألـف إلـه آخـر للمـاء والهـواء والأشـجار والبحـار والأنهـار والبحيرات والينابيع.

ـ الميندر أو الاسبركيوس إله الأنهار.

ـ بورياس إلهة الريح، كذلك زفس ونوتس ويورروس وإيوس.

ـ بان العظيم ذو القرنَين إله الغابات والرعاة.

ـ تسهر على القطعان الجنّيّات "سليني Sileni" التي نصفها معز ونصفها بشر.

ـ الهواء يغصّ بالأرواح الطيّبة والخبيثة.

٣ ـ آلهة الخصب

أقوى قوى الطبيعة هي قوّة التكاثر. لذلـك كـان قضيـب الرجـل هـو رمـز الانتـاج يظهر في طقوس دمتر وديونيـس وهرمـس، وحتّـى أرتميـس الطـاهرة. عيـد ديونيشـيا العظيم يُفتتح بموكب تُحمل فيه رموز قضبان الرجال.

ـ نتيجة اتّصال ديونيس وأفروديت كان بريابوس Priapus.

ـ الإله زيوس هو ربّ الأرباب، يرمز للانتصار علـى مبـدأ الأمومـة التـي سـادت الديانة قبل ذلك، حيث ألّهت مدن كثيرة أمّهات ليس لهنّ أزواج.

ـ أعظم الآلهة الأمّهات هي دمتر إلهة الحنطة أو الأرض المزروعة.

ومن الأساطير أنّ بلوتو، إله العالم السفليّ، اختطـف ابنـة ديميتـر ونـزل بهـا إلـى الجحيم، فبكت أمّها وبحثت عنها حتّى وجدتها وأقنعت بلوتو أن تعيش ابنتها على ظهـر الأرض تسعة أشهر في السنة، وهذا رمز لموت النبات وتجدّده سنويًا.

وهذه الأسطورة تشبه أسطورة أدونيس وعشتروت الفينيقيّة، وتمّوز وإشتار في بابل، وسيبيل وأتيس في فريجيا، وإيزيس وأوزيريس في مصر.

٤ ـ الآلهة الحيوانيّة

في تاريخ اليونان القديم عُظّمت بعض الحيوانات، وأصبحت أنصاف آلهة، لأنّ الدين اليونانيّ لا يسمح بوجود آلهة حيوانيّة، في بدايته.

الثور كان حيوانًا مقدّسًا لقوّته وقدرته، يوصف بأنّه رفيق لزيوس وديونيس. وربّما أنّ هيرا، ذات العين البقريّة، كانت بقرة مقدّسة.

الخنزير كان مقدّسًا لكثرة تناسله.

الأفعى مقدّسة لأنّها، في ظنّهم، لا تموت أو لأنّها ترمز إلى القدرة على التناسل والانتاج. والأفعى المقدّسة تقيم في هيكل أثينا على الأكروبول. وكثيرًا ما نرى الأفعى في الفنّ اليونانيّ حول تماثيل هرمس وأبّولو وأسكبيوس. وكثيرًا ما كانت الأفعى تتّخذ رمزا للإله الحارس للهياكل والمنازل أو صورة لهذا الإله.

٥ ـ آلهة ما تحت الأرض

أكثر الآلهة رهبة هي التي تعيش تحت الأرض وفي المغاور والشقوق ويعبدها الأهالي بطقوس تنمّ عن التوبة والخوف. هذه القوى غير البشريّة كانت المعبودات الحقيقيّة الأولى لبلاد اليونان.

منها الأرواح المنتقمة للحيوانات التي طردها الإنسان إلى الغابات أو إلى تحت الأرض أثناء تقدّمه وتكاثره.

أعظمها هو "زيوس"، وهو اسم نكرة لا يعني أكثر من إله، ويصوّر في صورة أفعى رهيبة. شقيقه "هاديز Hades" ربّ ما تحت الأرض. وأراد اليونانيّون استرضاءه فسمّوه "بلوتوس Plutus"، أي واهب الوفرة. أشدّ منه رهبة "هكاتى Hecate" وهو روح خبيثة تخرج من العالم السفليّ وتسبّب البؤس والشقاء بعينيها الحاسدتين الشريرتين[1].

٦ ـ آلهة الأبطال

كان الموتى في عصر الأبطال يعدّون أرواحًا يمكنها فعل الخير أو الشر للناس، لذلك كان الأحياء يسترضونها بالقرابين والصلاة. وكان في وسع هذه الآلهة مساعدة الناس أو معاقبتهم .

منها هبوداميا في الأولمب، وكسندرا في لوكتر، وهلن في اسبارطة، وأوديب في كولونوس.

ويحدث أحيانًا أن يتقمّص الإله جسد إنسان فيصبح هذا الأخير إلهًا. وقد يتّصل اتّصالاً جنسيًّا بامرأة من البشر فتلد بطلاً كما فعل زيوس مع الكمينا فولدت هرقل.

وبصورة عامّة لم يكن اليونان يفرّقون كثيرًا بين البشر والآلهة.

٧ ـ الآلهة الأولمبيّة[1]

كانت هذه الآلهة في المرتبة الثانية من الشهرة، ربّما لأنّها دخلت البلاد مع الدوريّين والآخيّين. لذلك خلا شعر هوميروس من ذكرها، إلاّ القليل. وهي زلزلت عروش الآلهة الأرضيّة وأخذت مكانها، فحلّ زيوس وأبّولو محلّ جيا. لكنّ الآلهة

---

١ ـ ول ديورانت، قصّة الحضارة، مرجع سابق، ص ٣٢٧ ـ ٣٤٠.

الأرضيّة لم تمحَ من الوجود بل أمست خاضعة للآلهة الجديدة، فنزلت إلى باطن الأرض فيما حلّت الآلهة الجديدة على عروشها في أعلى الجبال لتتقبّل عبادها الأشراف. وخضعت جنّيات الآجام لديونيس، وحُور البحار لبوسيدن، والأرواح التي تقطن الغابات لأرتميس.

على رأس هذا النظام الإلهيّ ربّ الأرباب زفس العظيم. ولقد قسّم زفس العالم ووزّعه فكانت السماء من نصيبه، والبحار لبوسيدن، وباطن الارض لهيديز.

ففي ديانة اليونان وُجد العالم قبل الآلهة واللّه هو والد، والآلهة الأولمبيّة تعارض بعضها البعض، لذلك فهي ليست عارفة بكلّ الأمور. وهي تحتشد في بلاط زفس كما يحتشد النبلاء في قصور الملوك.

زفس يكون إله السماء والأرض والحرب والآلهة والبشر، يجلس على عرشه فوق الأولمب، يعاقب المخالفين ويحمي الأملاك، وهو المصدر الأعلى للأحكام. عيبه الوحيد، أحيانًا، انزلاقه للحبّ وإعجابه بالنساء. حبيبته الأولى ديوني، وزوجته الأولى "متيس Metis" إلهة العقل والحكمة التي تلد له أثينا، والثانية "ثميس Themis" التي تلد الساعات الاثنتي عشرة. ثمّ "يورينوم" التي تلد إلهات اللطف الثلاث، ثمّ "نموسيني Mnemosyne" وتلد ربّات الشعر التسع. ثمّ "ليتو" وتنجب ولدَيه أبّولو وأرتميس. ثمّ أخته "دمتر" وتلد "برسفوني". ثمّ أخته "هيرا" التي أجلسها ملكة على الأولمب فولدت "هيبى Hebe" و"أريس" و"هفستس" و"ايليثيا".

وبعد أن عارضته "هيرا" تزوّج "تيوبي"، أولى زوجاته من الآدميّين، وآخرهنّ الكمينا التي ولدت هرقل. وربّما أنّ هذه الزيجات الكثيرة هي من اختراع البشر كي تصل أنسابهم إلى زفس العظيم.

كما أحبّ زيوس أو زفس الذكور ومنهم: جنميد الوسيم الذي اختطفه وجعل ساقيًا له على جبل الأولمب.

أبناء زفس كرّموا أيضًا وخاصّة أثينا العذراء إلهة أثينا، وأبّولون الوسيم إله الشمس وراعي الموسيقى والشعر والفن ومنشئ المدن ومشرّع القوانين. كذلك هو إله الحرب والمحاصيل النامية الذي اقترن اسمه بالنظام والاعتدال والجمال، والدته "ليتو"، التي أقامت علاقة مع "زفس"، هربت من "هيرا" وأنجبته على جزيرة "ديلزس" التي أثمرت أرضها فور ولادته.

أبولون، جميل جدًّا وموسيقي موهوب يطرب الآلهو لعزفه. أحبّ فتاة اسمها "دفنة" لم تبادله الحبّ وتحولّت إلى شجرة الغار لتهرب منه.

أخته أرتميس "ديانا" العذراء إلهة الصيد والمنهمكة في شؤون الحيوانات انهماكًا لم يترك لها وقتًا لحبّ الرجال، وهي إلهة الطبيعة، وهي رياضيّة قويّة الجسم، والمثل الأعلى للفتيات، كذلك راعية النساء في الولادات، لذلك كانت أيضًا إلهة الأمومة والإخصاب. طلبت من زفس أن تبقى عذراء فقبل.

هيرا، هي الألهة التي تحمي الزواج والزوجات الشرعيّات، زوجة زفس التي تشعر بالغيرة من علاقته وتعاقب الخيانة بالقسوة. طاردت عشيقات زفس وحولّت إحداهنّ إلى عجلة. وهي تحظى باحترام الجميع خاصّة سكّان مدينة "أرغوس" التي تحميها.

أثينا، إلهة الحكمة، إبنة زفس وميتيس، تتمتّع بالحكمة والذكاء. ساعدت العديد من الأبطال. بقيت عذراء. لها يعود الفضل بإنبات أوّل شجرة زيتون لمدينة أثينا التي أطلقت اسمها عليها.

إله آخر أعرج تسيء الآلهة معاملته هو هفستس، وهو "فولكان Vulcan" عند الرومان، وهو كثير الشبه بالإنسان، وهو ابن زفس وهيرا، وفق هوميروس. وهو الذي صنع دروع أخيل، لذلك عبده اليونان بوصفه إله جميع الصناعات اليدويّة. تزوّج أفروديت التي خانته مع أبّولون.

إزيس (المريخ)، صناعته الحرب.

هرمس، (مركوري أو عطارد) ساعي بريد الآلهة الذي كان حجرًا، وعبادته مستمدّة من عبادة الحجارة المقدّسة، أصبح حجر الحدود، يحدّد الحقول ويحرسها ويوفّر الخصب لها. لذلك صار قضيب الرجل أحد رموزه. كما أصبح إله المسافرين والتجارة والدهاء ومخترع المكاييل والأوزان، وبصفته سريع العدو اعتُبر راعي الرياضيّين. وهو الذي مدّ أوتارًا على صدفة سلحفاة واخترع القيثارة. وأرضى بذلك أفروديت واستولدها "هرمافروديت Hermaphrodite" الأخنث الذي ورث مفاتن والدَيه، واسمه مستمدّ من اسمَي والدَيه.

أفروديت إلهة الجمال والحبّ التي أخذت من الشرق. وهي أيضًا إلهة اللذّة الجنسيّة، عبدها اليونان بأنواع عديدة، من الحبّ العذريّ إلى المدنّس إلى حبّ المومسات في المعابد. يقع عيدها في أوّل نيسان (إبريل) حين كانت تُطلق الشهوات الجنسيّة والعواطف الثائرة. جعلتها التقاليد زوجة هفستس المقعد، لكنّها روّحت عن نفسها بالاتّصال مع أريس وهرمس وبوسيدن وديونيسس وغيرهم من الآدميّين مثل أدونيس وأنكيسيز.

أريس، إله الحرب، يصوّر وهو يضع خوذة ويحمل سلاحًا. كان يوجد حيثما يكون النزاع وحيثما ينزف دم. إبنته من أفروديت هي "هارموني" زوجة "قدموس" ملك "طيبة".

ديميترا، إلهة الخصوبة والزرع، تعطي النبات حياته. أنجبت من زفس ابنتها "برسيفونا".

هيبا، ابنة زفس غير الشرعيّة إلهة البيت.

شقيقها بوسيدن المشاكس، هو نبتوت عند الرومان، إله البحر، وهو ندّ زفس وشقيقه، وكان يسيطر أيضًا على الأنهار والينابيع. يصوّر بلحية وجسم ضخم، ويحمل في يده شوكة ثلاثيّة وبرفقته حوت يعبر مملكته على عربة من ذهب وسط الأمواج التي لا تستطيع ملامسته.

- هستيا، وهي فستا الرومانيّة، إلهة النار المقدّسة والموقد.
- إيريس، قوس القزح.
- هيبي Hebe إلهة الشباب.
- إيليثيا التي تعين النساء على الوضع.
- ديكى Dike أو العدالة.
- تيكى Tyche الفرصة.
- إيروس Eros إله الحب.
- هيمنيوس نشيد الزواج Hymemens.
- هبنوس للنوم Hypnos.
- أُونيروس Oneiros للأحلام.
- جيراس Geras للشيخوخة.

- ليثى Lethe للنسيان.

- ثناتوس Thanatos للموت.

وكان لهم تسع آلهات للفنّ تلهم الفنّانين والشعراء:

- كليو Clio للتاريخ.

- يوتربى Euterpe للشعر الغنائي.

- ثاليا Thalia للمسرحيات الهزليّة وشعر الرعاة.

- ملبومين Melpomene للمآسي.

- تربنسكورى Terpsichore للرقص المصحوب بالغناء وللغناء.

- إراتو Erato للشعر الغزليّ والهزليّ.

- كليوبي Colliope للملاحم الشعريّة.

- بولمنيا Polymmia للترانيم.

- أورانيا Urania للفلك.

ومن الآلهة الصغار كان:

- نمسيس الذي يوزّع الخير والشر.

- هبريس Hybris للزهو في أيّام الرخاء.

- الـ "إرينيّات Erinnyes" إلهات الغضب الرهيبة.

- الـ "يومنيدات Eumenides" مريدات الخير.

- مويرى Moirai ربّات الأقدار والحظوظ.

أمّا ديونيس فكان في البدء إله الخصب، وهو ابن زفس من أخته برسفوني، والذي حسدته هيرا وأغرت الجبابرة بقتله، والذي يعود للانبعاث مجدّدًا بعد أن حملت به الإلهة سميلى Semele فأصبح ديونيسس إله الخمر الذي تفرح النساء بانبعاثه وتصعدن إلى التلال حيث تسكرن.

تدخّل الآلهة مع البشر

درج الشعراء اليونانيّون وفلاسفتهم على نقل تدخّلات للآلهة في شؤون البشر الفانين لجهة مساعدتهم في الحروب والقضاء على أخصامهم، وحتّى دعمهم في المجازر البشريّة التي ينفّذونها، وفي غراميّاتهم أيضًا.

فالإلياذة تبدأ بالنشيد الأول، الذي يصف غضب أخيل من ملك الملوك أغاممنون الذي انتزع منه سبيته الجميلة[1]:

ربّة الشعر عن أخيل بن فيلا ... أنشدينا وأروي احتدامًا وبيلا
ذاك كيد عمّ الآخاء[2] بلاه ... فكرام النفوس ألفت أفولا
لاذيس انفذن منحدرات ... وفرى الطير والكلاب القيولا
ثم ما اشاء زفس من يوم شبت ... فتنة بالشقاق تنذر أولى
بين إتريذ سيّد القوم ثارت ... بصلاها والمجتنى آخيلا

---

١ ـ الإلياذة، النشيد الأول، ص ٩٨.

٢ ـ الأخاء يعني الأخائيين إذ إنّ هوميروس يعتقد أنّ جميع اليونانيين الذين حاصروا طروادة كانوا من الأخائيين.

هوميروس نفسه نادى، في مقدّمة هذه القصيدة، ربّة الشعر كي تساعده في تدبيج أبيات قصيدته الطويلة. وفي الإلياذة مشهد وقوع خريسييدا الفاتنة، ابنة خريس كاهن الإله أبّولون، أسيرة في أيدي اليونانيّين الذين قدّموها لملكهم الأكبر أغاممنون. وعندما حضر والدها إلى أغاممنون يبتهل إليه لردّ ابنته، عصف الغضب بملك الملوك وطرد الكاهن الذي ابتهل إلى الإله أبّولون ابن لاتونة بهذه الكلمات[1]:

"إيه، أيّها الإله الذهبيّ السهام، اصغ إلى تضرّعات خادمك الأمين وأنزل نقمة سهامك باليونانيّين على ما أنزلوه بي من مذلّة وهوان".

وما أن سمع الإله أبّولون طلب كاهنه خريس حتّى انحدر مسرعًا من قمّة الأولمب، تتألق على كتفه كنانته والسهام الذهبيّة، وتوجه إلى معسكر اليونان غاضبًا وأخذ سهمًا وأطلقه عليهم، فانطلقت السهام بسرعة تحمل الدمار إلى معسكر اليونان، وحل الطاعون بهم، وأخذت نيران المحارق تلمع، وخيّم الفناء عليهم.

وفي ذلك ينشد هوميروس في الإلياذة[2]:

فدهى جيشه بشر وباء	فغدت جنده تخر فلولا
مذ أهان المليك كاهنه الهم	خريسًا، لما أتى الأسطولا
يفتدي بنته بغرّ الهدايا	وجميع الإغريق يدعو ذليلا
اقبلوا فديتي وردّوا فتاتي	فجميع الإغريق ضجّوا قبولا
غير أنّ المقال أساء أغاممنون	أترا فردّه مخذولا

---

١ ـ حاتم، أساطير اليونان، مرجع سابق، ص ٤٢٥.

٢ ـ الإلياذة، مرجع سابق، ص ٩٩.

وبعد عشرة أيّام تدخّل أخيل، بإيعاز من الإلهة هيرا، وطلب من العرّافين كشف سبب غضب أبّولون كي يسلّط الطاعون على معسكرهم. قال الكاهن "كالخاس":

"لقد غضب علينا أبّولون بسبب العار الذي ألحقه أغاممنون بكاهنه، ولن نستطع تهدئة غضبه إلاّ بردّ ابنة الكاهن والتضحية لأبّولون بمائة ثور".

أعاد اغاممنون "خريسييدا" إلى والدها بعد أن انتزع من أخيل جَاريته "بريسييدا"، وهذا ما أغضب أخيل وهمّ بالانقضاض على أغاممنون لولا تدخّل الإلهة "أثينا بالادا"، التي أرسلتها هيرا خوفًا من نزول الخسارة باليونانيّين.

وإذ كان في ما ينتوي متردّدًا   نضا سيفه من غمده وهو لا يدري
رأى، وإذا من جنّة الخلد هبطت   أثينا وجرته باشعاره الشعر

حتّى مع أخيل تدخّلت الإلهة أثينا ومنعته من إتمام مخطّطه بالتصدّي لملك ملوك اليونانيّين.

أمّا خلافات الآلهة بسبب البشر، فلها مكان أيضًا في الميثولوجيا اليونانيّة. فبعد أن استجاب زفس لتوسّلات فيتيدا، والدة أخيل، بالانتقام من اليونانيّين بسبب خلاف أغاممنون وأخيل، تدخّلت هيرا مذكّرة زوجها زفس بوعده لها بنصرة اليونان. لكنّ زفس نظر اليها بغضب وأمرها أن تصمت إذا كانت حريصة على أن تكون بمنأى عن عقابه[1].

خافت هيرا والآلهة بسبب الخصومة بين كبيري الآلهة، وتدخّل هيفستس الأعرج يلوم الآلهة كونهم يختصمون بسبب البشر. قائلاً:

---

١ ـ حاتم، أساطير اليونان، مرجع سابق، ص ٤٣٤.

"إنّ مآرب الآلهة ستخلو قريبًا من السرور إذا كنا سنختصم دومًا من أجل الفانين".

أمّا مشهد أثينا وهيرا في نصرة الإغريق، فيصفه هوميروس في هذه الأبيات[1]:

وسارت على الأثر الربّتان ترفّان رفّ حمام الجنان

ترومان في خفّة السير عن جيوش الأغارق درء المحن

فبادرتا نحو أوفى السواد إلى حيث أبسلهم باشتداد

وحول ذيوميذ كلّ يذود ببأس، ولا بأس جيش الأسود

وفي مجلس الآلهة سجّل هوميروس تهديد زفس للآلهة بعدم التدخّل مع الفريقَين[2]:

فقال: ليعلم كلّ ربٍ وربّة بما اليوم في صدري فؤادي اضمرا

فلا ينبذنّ الأمر عاصٍ بل اذعنوا لا نفد ما أبرمت أمرًا مقدرا

لنصرة أيّ القوم من يجز منكم يؤدبنّ منكوبًا يخضبه الدم

والدة آخيل، من جهتها، هي التي جاءت لابنها البطل بأسلحته ومركبته من هيفست إله النار. لنسمع هوميروس يردّد[3]:

حتّى انبرت فوق الخلايا ثيتيس في تحف الربّ هيفست تميس

فأبصرت أخيل فوق الثرى معانقًا فطرقل واري الفؤاد

بنيّ قم وارفل أتاك السلاح من لدن هيفست زهي الصفاح

ما قط أنسيّ به قبل لاح

---

١ ـ الالياذة، ص ١١٥.

٢ ـ الإلياذة، ص ١١٦.

٣ ـ الالياذة، ص ١٥٧.

حتّى زفس رقّ أخيرًا لأخيل فأرسل أثينا تسكب في صدره عنبر العزاء والصبر على فقده صديقه[1]:

هبّي اسكبي العنبر والكوثرا في صدره الضامر كي يصبرا
فانبثقت من شم تلك الذرى
كنسر بحر في عظيم الجناح يدوي بساحات الرقيع الفساح
قد هاجها زفس وفي نفسها ودّ لآخيل فلا تستزاد

أمّا النهر، الإله زنثس، فيثور على أخيل بسبب كثرة القتلى الذين رمى جثثهم فيه، فيدخل في صراع معه، ويكاد يقضي عليه لولا تدخّل زفس[2]:

فريع أخيل وفرّ يطير إلى السهل فيه حثيثًا يسير
ولكن تقفّاه ذاك الإله بتيّاره المدلهمّ وراه
يروم له ذلة وانخذال فيكفي الطرواد شرّ الوبال

الإنيادة، من جهتها، تجسّد تدخّلات الآلهة في مصائر البشر. فبعد أن أبحر إنياس إرضاء للآلهة، وقبل أن يصل إلى ساحل أفريقيا في طريقه نحو إيطاليا، تدخّلت الإلهة "جينو" شقيقة جوبيتير وزوجته لدى الملك أوليوس، حابس الرياح، لإغراق سفينته بعد أن وعدت بإعطائه أجمل وصيفاتها زوجة له.

---

١ ـ الإلياذة، ص ١٦٣.

٢ ـ جوبيتر هو زفس عند الرومان، ودُعي هكذا لأنّ الإنياذة هي ملحمة شعريّة لاتينيّة وليست يونانيّة.

وهنا نرى أنّ مفهوم تدخّل الآلهة، في مصائر البشر، انتقل من الحضارة الإغريقية إلى الحضارة الرومانيّة، كذلك طبع هؤلاء الآلهة بصفات محض بشريّة، كرشوة أوليوس بوصيفة من قِبَل الإلهة جينو.

ودفع أوليوس برمحه أبواب السجن فاندفعت الرياح وجذبت سلاسل السفن فغرقت ستّ سفن، وكادت سفينة إنياس تغرق لولا تدخّل إله البحر "نبتون" الذي رفع رأسه فوق الأمواج، فرأى السفن تتبعثر أجزاؤها، ورأى رجال طروادة يعانون العذاب، فدعا للرياح قائلا[1]:

"أيّتها الرياح! ما الذي تصنعين بغير إذن منّي؟

"فاذهبي وقولي لمليكك أنّ سلطان البحر من شأني أنا، فليلزم هو حدود صخوره".

وهكذا توقّف الموج وهدأت الرياح.

وقام إلها البحر "سيموتي" و"تريتون" بإنقاذ السفن التي رفعها إله الرمل "أوعاس" بعصاه ذات الشعب الثلاث.

أمّا الإلهة فينوس[2] فقد سألت والدها جوبيتير نصرة إنياس، فأخبرها الإله الأكبر أنّ "إنياس الطرواديّ سيشنّ الحرب على أمم إيطاليا فيخضعها ويبني مدينة يحكمها ٣ سنوات، وبعد ذلك بثلاثين سنة يغيّر الطفل اسكانيوس مكان العرش في لافينيوم إلى ألبا. ويتداول الملوك، من نسل هكطور، حكم ألبا ثلاثمائة عام. ثمّ تحمل كاهنة ولدَين توأمَين لـ "مارس" وترضعهما ذئبة، فيبني أحدهما، واسمه روميلوس، مدينة يكرّسها

---

١ ـ الإنيادة، مرجع سابق، ص ٦٢.

٢ ـ هي أفروديت اليونانيّة.

لـ "مارس" ويدعوها روما نسبة لاسمه. ولهذه المدينة أُعطي ملكًا لا حدّ ولا نهاية له. أمّا الإلهة جينو فستعود عن حنقها، وتشترك في مجلسِي، وتُنزل رجال روما منزلة الاعزاز من نفسها، حتّى ليحوزوا حكم أرغوس ومسينا"[1].

ثمّ أرسل جوبيتير رسوله مركوري إلى "ديدو"[2] وشعبها القاطن في قرطجنة، المدينة التي بنوها، وأمره بأن يغيّر قلوبهم نحو الغرباء فلا يلقون منهم إلاّ حسن الضيافة.

ولمّا أراد إنياس الزواج من ديدو والبقاء في قرطاجة خلافًا لما حضّرته له الآلهة، أرسل جوبيتير رسوله مركوري إليه وأمره بالاتّجاه فورًا نحو ايطاليا قائلاً له[3]:

"وما مقامك هنا؟ ولمَ لم تتّجه نحو ايطاليا؟ فابرح الآن ولا تتمهّل".

ونفّذ إنياس الطلب فورًا بعد أن أغلقت الآلهة أذنَيه عن توسّلات ديدو له بالبقاء.

هذه الأمثلة التي سقناها، في هذا الفصل، كانت تهدف إلى إبراز تدخّل الآلهة في أمور البشر وصراعاتها بين بعضها في سبيلهم وتأثّرها بتوسّلاتهم. كما تُظهر أيضًا الناحية الإنسانيّة في الأحاسيس لدى الآلهة لجهة الحبّ والبغض والعطف والقسوة والبطش، وغير ذلك من الصفات التي تنطبق، عادة، على البشر الفانين وليس على الآلهة المخلّدين.

ويمكننا إكمال لائحة هذه التدخّلات. فالديانة اليونانيّة قامت على موسوعات من الأساطير الدينيّة، التي تصف علاقات الآلهة مع بعضها ومع البشر. نذكر منها

---

١ ـ الإنيادة، مرجع سابق، ص ٦٥ ـ ٦٦.

٢ ـ ديدو أو ديدون: الملكة الصوريّة التي أنشأت قرطاجة.

٣ ـ الإنيادة، مرجع سابق، ص ٩٠.

أسطورة من عصر ركّاب السفينة أرجوس، عن شاب جذّاب اسمه أورفيوس التراقي، الذي تصوّره الأساطير بالرجل الظريف، العازف على القيثارة والمغنّي الذي كانت الوحوش، عندما تسمع صوته، تخرج عن طبيعتها وتستأنس. حتّى الأشجار والصخور كانت تغادر مواضعها لتستمع إلى نغمات قيثارته.

تزوّج من يريديس الحسناء. وكاد يُجنّ عندما قضت نحبها، فقفز إلى الجحيم وسحر برسفوني بقيثارت، فسمح بعودتها إلى الحياة ومرافقته في الصعود إلى سطح الأرض شرط ألاّ ينظر إليها قبل بلوغه مقصده. لكنّه لم يطق صبرًا ونظر إليها فرآها تُختطف مجدّدًا إلى العالم السفليّ.

حقدت عليه نساء تراقية لأنّه أبى أن يسلّي نفسه معهنّ، فمزقنه إربًا في نشواتهن الديونيسيّة. وكفّر زفس ذنبهنّ بأن جعل قيثارته كوكبة في النجوم، ودفن رأسه وهو لا يزال يغنّي في لسبوس، في شقّ أصبح مهبط وحي. وقيل أنّ البلابل، في ذلك المكان، كانت أرقّ وأحلى صوتًا منها في أيّ مكان آخر[1].

وضمن الإطار نفسه، يقول علم اللاهوت إنّ الروح تذهب بعد الموت إلى الجحيم حيث تحاسبها آلهة العالم السفليّ على أعمالها، فإذا حكم عليها أنّ صاحبها مذنب عوقب عقابًا شديدًا. وهنالك فكرة أنّ العقاب أبديّ، ومنه أُخذت فكرة النار. كما تردّدت فكرة تناسخ الأرواح مرّات عدّة إلى أن تتطهّر الروح من ذنوبها. وتردّدت فكرة أنّ العقاب، الذي يلقاه الميت، يمكن أن يكفّر عنه بالتطهير. ومن هنا جاءت فكرة صكوك الغفران التي أصبحت تُباع في أثينا، والتي انتقدها أفلاطون، كما انتقدها لوثر لاحقًا.

---

١ ـ حاتم، أساطير اليونان، مرجع سابق، ص ٣١٧ ـ ٣١٩.

العبادات

كانت الطقوس الدينيّة اليونانيّة متنوّعة. فالآلهة الأرضيّة لها طقوس تخفّف غضبها، وللأولمبيّة طقوس ترحّب بها، وذلك دون الحاجة إلى كهنة. وكانت الحكومات ترعى هذه الطقوس كونها ضروريّة لاستقرار النظام الاجتماعيّ والسياسيّ. أمّا الكهنة فكانوا موظّفين في الهياكل.

ولم يكن للدولة دين موحّد لجميع أفرادها، إنّما الدين كان إقرارًا بقصائد معيّنة وطقوس رسميّة، وذلك دون رفض آلهة المدينة أو إهانتها. مكان العبادة يكون عادة موقد الدار، أو البلديّة، أو قاعة عامّة، أو شقًا من الأرض تسكنه آلهة. حرم الهيكل كان مقدّسًا كونه بيت الإله، يُنصب فيه تمثاله، ويُعتبر مكانًا أمينًا للاّجئين إليه[1].

تواريخ الأعياد كانت تُحفظ في سجلاّت الهيكل، كذلك الأحداث الهامّة في المدينة.

أمّا الإحتفال الدينيّ فيتكوّن من موكب وأناشيد وقربان وأدعية. وقد يشمل وجبات طعام وسحرًا وتمثيلاً مسرحيًّا. التراتيم والصلوات والطقوس مسجّلة في كتب تُحفظ لدى العائلات. وكانت الموسيقى عنصرًا أساسيًّا في الاحتفالات. أمّا القرابين فتشتمل على تقديمات من أثاث وأسلحة وآنية وثياب وغيرها. وكانت الجيوش تهب الإله جزءًا من غنائمها. وأحيانًا كان يُضحّى بالآدميّين ارضاءً له، فقد ذبح "أخيل"، مثلاً، اثنَي عشر شابًّا طرواديًّا على كومة حريق صديقه بتروكلوس. كما ظلّ "زفس" في أركاديا يتقبّل الضحايا البشريّة حتّى القرن الثاني بعد الميلاد. أمّا أثينا فكانت، إذا نزل بها القحط، تقدّم للإله ضحيّة بشريّة أو أكثر تطهيرًا للمدينة. وفي ما بعد استُعيض عن الضحايا البشريّة بالحيوانات، خاصّة الضأن والثيران والخنازير حيث تُقام مأدبة طعام

---

١ ـ حاتم، أساطير اليونان، مرجع سابق، ص ٣٩٦.

يشارك فيها الإله نفسه[1].

هذه التضحيات بقيت حتّى قضت عليها المسيحيّة نهائيًا.

الخرافات[2]

آمن اليونانيّ بعالم الخرافات والأرواح المتأهّبة على الدوام، والتي تعمل على أن تتقمّص الإنسان، الذي عليه أن يحذرها ويقيم الإحتفالات السحريّة لطردها.

فالمرض والجنون يعنيان أنّه حل بالجسم روح غريب، والميت كان نحسًا، لأنّ الجان استحوذت عليه. لذلك كان الخارج من بيت ميتٍ يرشّ نفسه بالماء من إبريق يوضع عند باب البيت. وكان الجماع نجسًا، كولادة الطفل الذي يكون أيضًا نجسًا عند ولادته.

وكان بإمكان الكاهن طرد الأرواح الشرّيرة بالصلاة أو السحر أو الضرب على إناء من البرونز. ولم تكن التوبة ضروريّة للتخلّص من الشرّير لأنّ الدين لم يكن قضيّة أخلاق إنّما طريقة لمعالجة أمور الأرواح.

واليونانيّون يؤمنون بالجان والعفاريت، تذكّر بها أحداث غريبة كمولد حيوانات أو أناس مشوّهين. كما يؤمنون بوجود أيّام وتواريخ مشؤومة لا يمارسون خلالها أيّ نشاط جدّيّ كالزواج أو توقيع اتّفاق، أو عقد جمعيّة أو عقد محكمة. أمّا كسوف الشمس أو القمر فقد يوقف زحف جيش أو معركة.

---

١ ـ ديورانت، تاريخ الحضارات، مرجع سابق، ص ٣٤٨ ـ ٣٥٣.

٢ ـ ديورانت، تاريخ الحضارات، مرجع سابق، ص ٣٥٤ ـ ٣٥٧.

كما كان يُعتقد أنّ بعض الأشخاص يملكون مقدرة عجيبة على إنزال الشرّ بالغير. ومنهم مَن كانوا مهرة بفنون السحر، فكانوا يصفون دواءً للعشق أو لزيادة القدرة الجنسيّة، أو إنزال العقم بالمرأة. فالخرافات كانت من أقوى الظواهر الطبيعيّة التي سادت المجتمعات خلال عقود طويلة من الزمن.

أمّا العرافون والمتنبّئون فكان الناس يلجأون إليهم لطرد الشياطين أو اتّقاء غضب الآلهة، أو لمعرفة الغيب والمستقبل من خلال النظر في النجوم وتأويل الأحلام. ومنهم مَن كانوا يؤجّرون خدماتهم للدول والجيوش التي كانت تستشيرهم قبل حملاتها الكبرى.

وكان في البلاد أشخاص يدّعون رؤية الغيب أمثال الـ "سيبيلات" "Sibyls" في إيونيا، اللواتي تُذعِنَ نبوءات يصدّقها الملايين. وكان الناس يؤمنون بأنّ النساء أكثر استعدادًا لتلقّي الوحي من الرجال.

الأعياد

كثرت الاعياد عند اليونانيّين، وكان يقوم بنفقاتها الأغنياء والدولة التي تقدّم ما يُسمّى بالـ "أموال المقدّسة Theorika".

التقويم الأثينيّ كان دينيًّا والشهور تسمّى غالبيّتها بأسماء ما يُقام فيها من أعياد دينيّة[1]. ومنها ما يُحتفل به سنويًّا، ومنها كلّ أربع سنين. وكان كلّ موسم من

---

١ ـ الشهر الأوّل "هكتمبيون Hectombaion"، الثاني "متاجيتنيون Metagcitnion"، الثالث "بوّدميون Bocdromion"، الرابع "بيانبسيون Pyamepsion"، الخامس "ميكمتريون"، السادس "بوسيديون"، السابع "جمليون"، الثامن "انثسترن"، التاسع "إلافيبوليون"، العاشر "منيكيون"، الحادي عشر "تراجليون"، الثاني عشر "سكروفريون".

مواسم الزرع أو الحصاد يُستقبل بتظاهرة. أمّا أعظم الأعياد كلّها فكانت أعياد الجامعة الهلّينية.

الديـــــن والأخلاق

البارز في الدين اليونانيّ هو التركيز على المراسم والطقوس بدلاً من الأخلاق. فالممارسات كان فيها الكثير من قلّة الأمانة والفساد الأخلاقيّ والجنسيّ.

رغم ذلك، ساهم الدين في تقويم اعوجاج المجتمع، من خلال فكرة التطهير وغضب الآلهة على الشرّير ومساعدتها للطاهر وللغريب واستجابتها لمَن يتوسّل إليها. على سبيل المثال كانت "ديكي" تعاقب على الظلم و"يومنيدس" يقتفي أثر القاتل. وكان الدين يخلع القدسيّة على أحداث الحياة الإنسانيّة كالولادة والزواج والأسرة والوفاة.

عبادة الأموات تربط الأسرة بأجدادها وبالأجيال السابقة برابط القداسة.

إنجاب الاطفال كان واجبًا مقدّسًا يفرضه الدين.

وهكذا استُخدم الدين لحماية المجتمع والشعب من الأنانيّة الفرديّة.

ملحق

الآلهة اليونانيّة

مولد الآلهة

في البدء ولدت الأرض "هيا" وإله السماء "أوران" الذي أصبح ملكًا على الكون، وتزوّج من الأرض، وأولدها ستّة أبناء وستّ بنات عمالقة هم:

ـ أوكيان: إبن أوران وهيا يحيط بالأرض كنهر عظيم. له ثلاثة آلاف من الأبناء الأنهار، وثلاثة آلاف من البنات عرائس الجداول، وكلّهم يروون الأرض.

ـ الـ "أوكيانيدات": ربّات السحر.

ـ الآلهة فيتيدا: لها، مع أوكيان، جميع أنهار الأرض.

ـ العملاقان هيبرون ونيّا: منحا العالم.

ـ هيليوس: الشمس.

ـ سيلينا: القمر.

ـ إيوس: الفجر اللازورديّ.

ـ بوريوس: ريح الشمال العاصفة.

ـ إيفر: الريح الشرقيّة.

ـ نوت: الريح الجنوبيّة.

ـ زيغير: الريح الغربيّة.

ـ الـ "سيكلونات" الثلاثة: ولدتهم الأرض، لكلّ منهم عين واحدة.

ـ المروة العظام الثلاثة: ولدتهم الأرض، ولكلّ منهم خمسون رأسًا. ولا يمكن لشيء أن يقف أمام قوّتهم.

ـ كرون: ابن أوران وهي، ووالد زفس.

ـ الآلهة المروّعين: والدهم كرون ووالدتهم ريبيا.

ـ تانات: إله الموت.

ـ إيريدا: إله الفوضى.

ـ أباتا: إله الخداع.

ـ كير: إله الدمار.

ـ هيبنوس: إله النوم المصحوب بالكوابيس.

ـ نيميسيدا: ربّة الانتقام التي لا تعرف الرحمة.

هؤلاء الآلهة حملوا الرعب والتعاسة والخداع إلى العالم.

مولد زفس

ـ أولاد كرون هم:

* هيستيا ربّة النار المقدّسة وحامية المدن.

* ديميترا آلهة الخصب.

* هيرا زوجة زفس.

* هاديس.

* بوسيدون إله البحر، يقابله نبتون أو بلوتون عند الرومان، شقيق زفس.

* زفس الذي أصبح ربّ الأرباب.

لائحة آلهة يونانيّين

نذكر اللائحة، أدناه، على سبيل المثال لا الحصر:

- زفس أوزيوس: عرفه الرومان باسم جوبيتير، هو ربّ الأرباب ومرسل الصواعق.
- هيا: الأرض.
- تارتار الرهيب: الهوّة الغارقة في الدياجير.
- إيروس: إله القوّة القادرة على إحياء كلّ شيء.
- أيريب: إله الأبعاد المظلمة الخالدة.
- نيوكت: إله الليل الحالك.
- إيثير: إله الضوء الخالد.
- هيمير: إله النهار المشرق.
- أوران: إله السماء الذي أصبح ملكًا على الكون وتزوّج من الأرض وأولدها ستّة أبناء وستّ بنات عمالقة جبابرة.
- أوكيان: ابن أوران وهيا.
- هيرا: زوجة زفس، سيّدة الآلهة والبشر.
- أبّولون: ابن لاتونا، هو إله النور ذو الشعر الذهبيّ.
- أرتميدا: أخت أبولون العذراء، الربّة القنّاصة.
- أفروديت: إبنة أوران، زوجة آريس إله الحرب، إلهة الحبّ والجمال.
- أثينا: إبنة زفس المولودة من هامته، ربّة الحكمة والمعرفة.
- هيفيست: إبن زفس، إله النار والحدادة، عُرف باسم الإله "فولكان" عند الرومان.
- إيرينا: ربّة السلام.

- نيكي: ربّة النصر المجنّحة،و رفيقة زفس التي لا تفارقه.
- ايريدا: رسولة هيرا، ربّة قوس القزح.
- هيبا: إبنة زفس الفتيّة، ربّة البيت.
- هانيميد: إبن ملك طروادة وحبيب زفس.
- الربّة فيميدا: حامية الشرائع.
- الربّة ديكي: ابنة زفس المشرفة على تطبيق العدالة.
- تيوخي: ربّة القدر والسعادة والحظ.
- أمالفيا: العنزة التي أرضعت زفس.
- امفيترينا: زوجة بوسيدون.
- نيريوس: شيخ البحر الخالد ووالد امفيترينا.
- العملاق أطلس: حامل القبّة السماويّة على منكبَيه.
- ترتيون: ابن بوسيدون الذي يثير العواصف البحريّة.
- نيريوس: شيخ البحر العرّاف، له خمسون ابنة فاتنات.
- بروتيوس: شيخ البحر الحكيم الذي يغيّر شكله إلى تنّين أو غير ذلك.
- الإله غلافك: محرّك الأرض وحامي البحّارة.
- هاديس: شقيق زفس، خازن مملكة الموتى.
- برسيفونا: زوجة هاديس.
- مينوس ورامادانت: قاضيا مملكة الموتى.
- الإلهة هيكاتا: المسيطرة على جميع الأرواح الشرّيرة.
- فيتيدا: مربّية هيرا، ربّة البحر.
- هرمز: إبن زفس، رسول الآلهة وحامي التجارة.

- هيران: إلهة السماء وحامية الزواج والأمّهات عند الوضع. عُرفت باسم الإلهة "يونانا" عند الرومان.

- بيفون: أفعوان البحار الرهيب، قهره أبّولون فأودع جسده في "دلفي" حيث أقيم معبد مقدّس.

- ايروت: إبن أفروديت، إله الحب الفتيّ.

- دافنا: الربّة الرائعة، محبوبة أبولون التي تحولت شجرة غار.

الربات التسع مرافقات أبّولون في الرقص:

١ ـ تيربسيخورا: ربّة الرقص.

٢ ـ تاليا: ربّة الكوميديا.

٣ ـ أورانيا: ربّة الفلك.

٤ ـ كاليوبّا: ربّة الشعر القصصيّ.

٥ ـ ايوتيريا: ربّة الشعر العاطفيّ.

٦ ـ ايراتو: ربّة النسيب.

٧ ـ ميلبومينا: ربّة الدراما.

٨ ـ كليو: ربّة التاريخ.

٩ ـ بوليهيمنا: ربّة الأناشيد المقدّسة.

- آريس: إله الحرب.

- منيموسينا: ربّة الذاكرة.

- اسكليبّوس: إبن أبّولون، إله الطبابة.

- ايريدا: ربّة العداء.

- هيميروت: إله الحبّ الشهوانيّ.

- كيفيسيوس: إله الأنهار.
- الجنّية إيخا: ربّة الصدى.
- الإله هيميني: مساعد أفروديت.
- بيرسيفونا: ابنة ديمييترا وزفس.
- آييد: شقيق زفس، سلطان المملكة السفلى.
- نيوكتا: ربّة الليل.
- ايوس: إله الفجر.
- ديونيسيوس: إبن زفس من ابنة قدموس سيميلا، إله الخمرة والكروم.
- بان: إله الغابات وشفيع الرعاة وحامي القطعان.
- بروميثيوس: الاله العملاق أحد العماليق، ثبّته زفس إلى صخرة في جبال القوقاز عقابًا له على معارضته له وانتزاعه النار المقدسة من الأولمب وإعطائها للبشر، خلّصه "هرقل" من عذابه.
- الغولة خيميرا: تمثّل العواصف والهزّات الأرضيّة وقوى البراكين.
- هارمونيا: إلهة الأولمب.
- آسوف: إله النهر.
- لاتونا: والدة أبّولون وارتيميدا.
- آتا: ربّة الخداع.
ديكي: ربّة الانتقام.
- أبّولون الدلفيّ: حامي الأسفار والرحلات البحريّة.
- ايول: إله الريح.
- نيفيلا: إلهة الغيوم.

الفصل الثامن

الديانَة الرومانيّة

ورث الرومان الإرث الحضاريّ والثقافيّ اليونانيّ، لا سيّما مع قيام الأمبراطوريّة وتمدّدها إلى جميع سواحل البحر المتوسّط، الذي أصبح بحيرة رومانيّة، وأضحى العالم الرومانيّ منتشرًا في قارّات أوروبّا وآسيا وأفريقيا.

وآمن الرومان بالحياة بعد الموت، وشجّع الدين على الإكثار من النسل، وأدخل في عقول المواطنين أنّ واحدهم، إذا مات ولم يكن له عقب يُعنى بقبره، تعذبّت روحه إلى أبد الدهر[1]. وكانت الأسرة الرومانيّة تنتمي إلى عشيرة تشترك معها بنفس العبادة ونفس الآلهة.

وكان الأب هو رأس العائلة، إنّما للنساء حقوق في شؤون الدين تمكّن الواحدة منهنّ من أن تكون كاهنة. كما يُفرض على الكاهن أن تكون له زوجة، فإذا ماتت عزل عن كهنوته.

الآلهة

قُدّر عدد الآلهة عند الرومان بثلاثين ألفًا. وكانت الأسرة هي الرابطة الأساسيّة في المجتمع الرومانيّ، تربط، ليس فقط بين الأشخاص، إنّما أيضًا بينهم وبين الآلهة. وهي

---

١ ـ الإنيادة، مرجع سابق، ص ١٠٢.

المركز الذي يلتفّ حوله الدين والنظام الاجتماعيّ والاقتصاديّ. لذلك سادت العلاقات، بين أفراد العائلة، رابطة روحيّة دينيّة. فالطفل يعلم أنّ نار الموقد هي رمز الإلهة "فستا Vesta"، وهي الشعلة المقدّسة التي تربط الأسرة وتؤمّن ديمومتها. لذلك كان الواجب يفرض ألاّ تنطفئ أبدًا.

وفوق الموقد كانت تُعلّق صور لآلهة الأسرة مثل[1]:

- إلار Lar، حارس الحقول والمباني.
- الـ "بينات Penates" أي الآلهة الداخليّة التي تحمي مخازن الأسرة وبيادرها.
- الإله "جانوس Janus" الذي يحوم حول عتبة الدار لمراقبة الداخلين والخارجين.
- الأب الذي هو رمز القوّة الخلاّقة.
- الأمّ التي هي رمز الحمل والخلق.
- الطفل "جونو Juno" الذي يجسّد قدرة الأب على الخلق وقدرة الأم على الحمل.
- أطياف الذكور من أسلاف العائلة الذين يكوّنون جزءًا من وحدة العائلة الروحيّة الأبديّة.

وتأتي أرواح وآلهة أخرى لمعونة الطفل كلّما كبر، منها:

- جوبيتير Jupiter، ربّ الأرباب نظير زفس اليونانيّ[2].
- كوبا Cuba، تحرسه وهو نائم.
- أبيونا Abeona، تهدي خطاه.
- فابولينا Fabulina تعلمه الكلام.

---

١ ـ ديورانت، قصة الحضارة، مرجع سابق، ص ١٢٢ ـ ١٢٤.

Livy T., *History of Rome*, Everyman library, Vol 4, P.13.- ٢

- تارتا أو تراماتر Terra Mater، الآلهة الأرض .

- المريخ Mars، الذي كان معظّمًا كإله الحرب.

- زحل Saturne، الإله القوميّ للزرع. .

- الآلهة الصالحة Bona Dea، التي تمدّ النساء والحقول بالخصب.

وفي المزرعة إله لكلّ عمل، مثل:

"بومونا Pomona" للبساتين، و"فونس Faunus" للماشية، و"بالس Pales" للمراعي، و"استركيولس Sterculus" لأكوام السماد، و"زحل Saturn" للزرع، و"سيريز Ceres" للمحاصيل، وفورناكس Fornaxe" لتحميص الذرة في التنّور، و"فلكان Vulcan" لإشعال النار، و"ترمينوس Terminus" للإشراف على الحدود. وهذا الأخير يُمثّل بالحجارة والأشجار التي ترسم حدود الأراضي.

وهكذا رأى الرومان أنّ الأرض وما عليها تشكّل محور التقوى والإيمان، رغم اعتقادهم بوجود الآلهة السماويّة أيضًا. لذلك كانوا يقيمون الاحتفالات للآلهة. ففي شهر كانون الثاني (يناير) تُقام الصلوات إلى إله الأرض "تارتا"، وتقدّم الهدايا لارضاء "تلّوس Tellus" لكي ينبت المزروعات. وفي شهر أيّار (مايو) يسير كهنة إله الحراثة "أرفال Arval" في موكب غنائيّ حول المزارع ويرشّون عليها دماء الأضاحي ويصلّون للمرّيخ لإنضاج الفاكهة.

وعرف الرومان الآلهة التي تمثّل صفات إنسانيّة مجرّدة مثل الصحّة والشباب والعفاف والوفاق والفضيلة والنصر والحظّ والشرف والأمل. ومنها أرواح الموتى وأرواح فصول السنة مثل "مايا" أي روح شهر أيّار. ومنها آلهة المياه مثل "تبتون

Neptune"، والآلهة التي تسكن الأشجار مثل "سلفانس". وبعضها يتقمّص الحيوانات المقدّسة، ومنها أرواح التناسل والولادة والإخصاب، "بريابس Priapus"[1].

وآمن الرومان بأنّ الآلهة تنحدر إلى الأرض لتحارب في صفوفهم، لذلك كانوا يتشاءمون من بعض الأحداث، وقد يؤجّلون معركة لأنّ أحد الكهنة وجد شيئًا غريبًا في ذبيحة حيوانيّة. كما اعتمدوا السحر والرقى وآمنوا بالمعجزات والخرافات والقوى الماورائيّة والتمائم والتعاويذ والطلاسم التي كانت تعلّق على أبواب البيوت لتردّ الأرواح الشريرة أو للشفاء من الأمراض واستجلاب المطر والمساعدة على دحر الأعداء[2].

وعرف الرومان الآلهة الإناث اللواتي كنّ أحبّ إلى قلوبهم من الذكور حتّى ولو أنّها أقلّ قوّة منها. ومن هذه الإلهات نذكر:

- جونو رجينا Juno Regina، ملكة السماء والأنوثة والزواج والأمومة.
- منيرفا Minerva، إلهة الحكمة.
- فينوس Venus أي الزهرة، إلهة الشهوة والإخصاب.
- ديانا Diana، إلهة القمر والنساء والولادة والصيد والغابات.

ومن الأرباب الصغرى هرقل إله الفرح والخمر، و"عطارد Mercury، راعي التجّار والممثّلين واللصوص، و"أبس Aps، إلهة الثروة، و"بلّونا Bellona" إلهة الحرب.

واستقبلت روما آلهة غريبة عنها، كانت، إمّا آلهة أحد الشعوب المغلوبة التي يعني حضورها إلى روما رمزًا لخضوعها، أو آلهة أُخذت عن اليونان

---

١ ـ الإتيادة، مرجع سابق، ص ١٠٣.

٢ ـ الإتيادة، مرجع سابق، ص ٥٩ ـ ٦٠ وديورانت، مرجع سابق، ص ١٢٣.

وغيرهم من الشعوب التي سبقت الرومان لاعتماد الآلهة والدين. ومن هذه الآلهة نذكر[1]:

- "دمتر" و"ديونيسيس" و"كاستور Castor" و"بولاّكس Pollax"؛ وهذان الأخيران أصبحا حاميَي روما.

- أبّولون الشافي الذي شُيّد له هيكل في روما عام ٤٣١ ق.م.
- اسكلوبيوس إله الطبّ اليونانيّ الذي يصوَّر بصورة ثعبان ضخم.
- "كرونس Cronus" و"بوسيدن Poseidon" الذي أُلصِق بـ "نبتون"، وارتميس التي أصبحت ديانا، وهفستس الذي مزج مع فولكان، و"هاديس Hades" الذي أصبح بلوتون، وهرمس الذي أصبح عطارد.

الكهنة

إعتمد الرومان على مجموعة من الكهّان في خدمة الآلهة بقصد استدرار عطفها ومساعدتها، على رأسها كاهن أعظم تنتخبه الجمعيّة المئويّة. هؤلاء الكهنة توصّلوا إلى أعلى درجات الغنى بسبب استعمال إيراد قسم من أراضي الدولة، علاوة على الأوقاف التي كان يقدّمها المواطنون لهم[2].

وأنشأ الرومان، منذ القرن الثالث ق.م.، مدرسة دينيّة تسجّل القوانين، ويقرّب كهنتها القرابين، ويطهّرون مدينة رومة كلّ خمس سنين. يعاونهم خمسة عشر كاهناً آخر يدعون "موقدي نيران الأضاحي"، يليهم كهنة آخرون منهم:

---

١ - Livy, T., *History of Rome,* Op. Cit., Vol 6, P. 43.

٢ - Mommsen T., *History of Rome* (London, 1901) vol. 3, P. 60.

- الـ "ساليو "Salü"، يرقصون مع بداية كلّ عام تكريمًا للمرّيخ.

- الـ "فتيالي Fetiales"، الذين يوقّعون على الصلح أو على إعلان الحرب.

- الـ "لوبرسي Luperci"، يقومون بطقوس غريبة.

أمّا الراهبات فكنّ يرتدين ثيابًا بيضاء، ومنهنّ "العذارى الفستيّة Vestal Virgins"، واللواتي تقسمن على البقاء عذارى، ثلاثين سنة، في خدمة الإلهة فستا.

ومن الكهنة أيضًا، العرّافون الذين يراقبون حركات الطيور بهدف رصد تحرّكات الآلهة. وكان كبار السياسيّين يستشيرونهم قبل اتّخاذ القرارات المهمّة. ولم يكن هؤلاء الكهنة بمعزل عن الرشوة لإعطاء تفسير مناسب للذي يستشيرهم، خاصّة عند إصدار القوانين العامّة[1].

وكان على الكهنة، أيضًا، السهر على حسن تنفيذ توصيات الآلهة في صورة حرفية، وإعادة التنفيذ في حال أيّ خروج، ولو جزئيّ، عن تفاصيل الاحتفالات المفروضة وعن تقديم الأضحية المطلوبة، التي عادة ما تكون، شاةً أو خنزيرًا أو ثورا، على أن تكون الأضحية، في المناسبات الهامّة، فرسًا أو حتّى آدميًا. إلاّ أنّ عادة التضحية بالآدميّين أُبطلت عام ٩٧م.

الصلوات والأدعية، التي كان يُطلقها الكهنة، كانت أقرب إلى التعاويذ والسحر منها إلى الصلاة. وكانت تُستجاب، عامّة، إذا وُجّهت إلى الإله الذي ينبغي توجيهها إليه وفق الأصول الصحيحة.

---

١ ـ الإنيادة، مرجع سابق، ص ٥٢؛ Coulemges F., *The Ancient city*, (Boston, 1901) P 244

الأعياد

الأعياد كانت مناسبات فرح واحتفال للرومانيّين الذين اعتمدوا ما يقارب المائة يوم مقدّس في السنة، منها لاسترضاء الآلهة، ومنها لتقديس الموتى وأرواح العالم السفليّ ومنع شرّها وأذاها. ويستغلّ الرومان الأعياد للأكل والشرب والمرح وأحيانًا للإباحيّة الجنسيّة[١].

أكثر الأيام تكريمًا هي، الأوّل والخامس عشر من كلّ شهر. منها عيد الأزهار الذي يدوم ستّة أيّام في شهر نيسان (إبريل). وفي شهر أيّار (مايو) يُحتفل بعيد الأم الصالحة وبعيد إلهة العنب. وفي شهر كانون الأوّل (ديسمبر) تكثر الأعياد، ويُحتفل بين ١٧ و ٢٣ منه بعيد البذور.

ودرج الكهنة الرومان على دعوة مواطنيهم في الأوّل من كلّ شهر للاجتماع حيث يذكّرونهم بجميع الأعياد التي سيُحتفل بها خلال الشهر المعنيّ.

أمّا السنة الرومانيّة فكانت تبدأ مع الربيع. والشهر الأوّل يُدعى "مارتيوس" باسم إله البذر، يليه "ابريلس"، أي شهر النبت، ثمّ "مايوس"، أو شهر الوفرة؛ أمّا "فيونيوس" فهو شهر النجاح، و"فكونكتلس" فـ "سكستلس"، يليها سبتمبر، فأكتوبر، فنوفمبر، فديسمبر، وينابر وفبراير.

---

١ ـ ديورانت، قصّة الحضارة، مرجع سابق، ص ١٣٥.

ملحمة الإنيادة لـ"فرجيل".

في زمن متأخّر، مع القياصرة العظماء الذين حكموا روما، وبخاصّة "أوغسطس قيصر"، عرف المجتمع الرومانيّ مأثرة ثقافيّة بارزة تأثّر فيها الرومان بالفكر اليونانيّ وخاصّة هوميروس، وهي ظاهرة الملاحم. أبرزها وأقربها إلى الملاحم اليونانيّة هي ملحمة الإنياذة للشاعر "فرجيل"، التي اعتُبرت إكمالاً لملحمة الإلياذة الشهيرة.

إعتُبر الشاعر فرجيل[١]، برز شعراء الرومان في المرحلة التي شهدت ولادة السيّد المسيح. وُلد عام ٧٠ ق.م. وربّما يكون من العرق السلتيّ، من بلاد غالة التي مُنح سكّانها حقّ المواطنيّة الرومانيّة على يد يوليوس قيصر.

وبسبب نشأته الريفيّة، تغنّى "فرجيل"، في "مختاراته"، بالطبيعة والقرية وحياة الرعي والحبّ. كما آمن بالمدينة الفاضلة وبعودة العذراء المقدّسة، أي "استرئيا"، التي كانت آخر من غادر الأرض في أسطورة عصر زحل. كما آمن بعودة حكم "زحل Saturne، حين سينزل من السماء جيل جديد، منهم" لوسينا ربّة المواليد والغلام الذي سيولد وينشيء في العالم جيلاً من الذهب يستبدل جيل الحديد السابق.

ويرى "فرجيل" أنّ المزارع على حقّ حين يسترضي الآلهة بالضحايا ويستدرّ عطفها ورضاها، لأنّ الأعمال المتأثّرة بالتقوى تساهم في تحسين الإنتاج الزراعيّ وغزارته.

١- *Virgil Poems*, Loeb library, vol 2, P 46

أطلق فكرة الإنيادة أغوسطس قيصر أو "أوكتافيوس"، بعد تغلّبه على "مارك أنطونيو" و"كليوبترا". إذ أوصى الشاعر "فرجيل" بكتابتها بهدف تأريخ معاركه وتمجيد شخصيّته. وكان "أوكتافيوس" مدفوعًا بالإيمان بأنّ خليفته يتحدّر من الزهرة Venus.

تتكلّم الملحمة عن إنشاء مدينة روما، والأحداث التي وقعت بعد ذلك، والتنبّؤ بإقامة الأمبراطوريّة الرومانيّة من قِبَل أوغسطس قيصر. أمّا بطلها فكان "إنياس" حليف هكطور الطرواديّ، الذي كان يعظّم الآلهة ويسير وفق توجيهاتها.

ورغم عدم تمكّن "فرجيل" من إتمام الإنيادة بسبب وفاته عام ١٩ ق.م، ورغم طلبه من أصدقائه إحراق المخطوطات، فإنّ قيصر أمر بكتابتها والمحافظة عليها بعد اطّلاعه على محتواها.

وخلاصتها أنّه، فيما كانت طروادة تحترق، ظهر شبح هكطور لحليفه إنياس وأمره بأن يستعيد، من اليونان، مقدّسات وآلهة طروادة. ويقول هكطور: "إنّ هذه الرموز المقدّسة ستساعدكم على الطوفان بالبحار وإقامة مدينتكم العامرة"، أي روما.

ركب إنياس وأتباعه السفينة وجالوا في البحار، لكنّ أصوات الآلهة كانت دائمًا تناديهم لمتابعة السير. ومرّ على قرطاجة حيث كانت إليساؤر، أي "ديدو"، تقوم بتأسيس المدينة. وتزوّج إنياس وديدو زواجًا لم تعترف به الآلهة التي كانت تحثّ الأوّل على متابعة السير للوصول إلى المدينة التي ستصبح عاصمة ملكه. وهكذا يخاطب إنياس زوجته قائلاً:

"إنّ أبّولون قد أمرني بركوب البحر.... إنّي لا أسعى إلى إيطاليا بمحض إرادتي".

وهنا، يُبرز "فرجيل" بوضوح إيمان الرومان بتدخّل الآلهة في حياة البشر وتوجيههم وطاعتهم لها رغمًا عنهم، اتّقاءً لنقمتها وتأثيرها.

وهذه الجملة "لا أسعى إلى إيطاليا بمحض إرادتي"، التي اعتُبرت عقدة الملحمة، تلخّص جوهر الإيمان بالآلهة وبالميثولوجيا الرومانيّة التي اعتُبرت وريثة الميثولوجيا اليونانيّة.

ويعطي فرجيل "ديدو" حقهّا إذ يمجّدها وهي تلقي بنفسها فوق كومة الحطب المشتعلة وتنتحر حزنًا على حبيبها.

ويتابع القرطاجيّون رحلتهم وينزلون في اللاتيوم بإيطاليا، حيث يخوضون صراعًا طويلاً للسيطرة على المنطقة، تشجّعهم خلاله الإلهة "سيبيل"، فتأخذ إنياس إلى بحيرة إيرنس في رحلة شبيهة برحلة أوديسيوس إلى الجحيم. وفي العالم السفليّ يعود إنياس للالتقاء بـ "ديدو" وبوالده "أنكيسيز" الذي يشرح له أسرار الجنّة والمطر والجحيم. كما تكشف له الزهرة موقعة أكثيوم[1]، وانتصارات أوغوسطس قيصر المستقبليّة.

أخيرًا يعود إنياس إلى عالم الأحياء وينتصر على أعدائه، ويرث عرش اللاتيوم، ويتزوج "لافينيا" ابنة ملكها، ويؤسس ابنه اسكانيوس مدينة "بالانجا" كعاصمة للقبائل اللاتينيّة. ومن نسله يأتي روميس وروميلوس اللذان يشيّدان روما.

وهكذا، تأثّر الأدب الرومانيّ بالميثولوجيا اليونانيّة رغم أنّ آلهة "فرجيل"، التي كانت تتحكّم بالأحداث، لم تكن قريبة إلى الشعب كقرب آلهة هوميروس. لكنّ كلّ ما في هذه الملحمة من شرّ متأتٍّ من إرادة الآلهة.

و"فرجيل" اعتبر هذه الآلهة رموزًا لشعره. وهو فضّل آلهة الزرع على آلهة الأولمب، واصفًا مجدها وطقوسها وعاداتها وعلاقاتها. كما أنّه آمن بتجسّد الروح بعد

---

١ ـ موقعة أكثيوم: هي الموقعة التي سينتصر فيها أوكتافيوس على مارك أنطونيو وكليوبترا.

الموت وبالحياة في الدار الآخرة وبفكرة الثواب والعقاب في الجنّة والنار وبيوم القيامة وعذاب المذنبين وتطهيرهم في المطهر وراحة الصالحين في الجنّة[1].

ويتّضح لنا أنّ ما آمن به "فرجيل" كان قريبًا جدًّا من الديانات السماويّة التي انتشرت قبله وبعده.

الممارسات الدينيّة

كانت الممارسات الرومانيّة الدينيّة، بغالبيّتها، احتفاليّة. فالألعاب تبدأ بالاحتفالات الدينيّة الفخمة حيث يحتلّ مراكزَ الشرف، الكهنة والعذارى، ويرأسها الأمبراطور الذي هو الكاهن الأكبر. وكان الأباطرة يؤدّون جميع الطقوس المتوجّبة للآلهة.

وعرف الشعب الرومانيّ السحر والخرافات والممارسات الماورائيّة والنبوءات الغيبيّة والتنجيم. كما استعمل الرقى والتعاويذ، وآمن بعض النسوة بأنّ جوبيتير يرغب بهنّ بسبب حلم رأينه في منامهنّ[2].

وكان الغنيّ يحتفل بالتضحية بعدد من الأبقار يقدّمها للآلهة، بسبب عودته سالمًا من الحرب، أو للاحتفال بتسلّم منصب عالٍ. وكانت الشموع تُضاء أمام تماثيل الآلهة وتقدّم لها القرابين ويوجّه اليها المواطنون الأدعية والقبلات.

حتّى الأباطرة اعتبرهم الشعب آلهة. فـ "نيرون" اعتُبر الهًا وأقام أمام قصره تمثالاً وصل ارتفاعه إلى مائة وعشرين قدمًا، يعلو قمّته رأس شبيه برأسه تحوطه هالة من

---

١ - *Virgil*, op cit

٢ - ديورانت، قصّة الحضارة، مرجع سابق، ص ١٩٦.

أشعّة الشمس. وعندما تسلّم منه "تريداتس" عرش أرمينيا، ركع أمامه واعتبره لإله "متراس".

أمّا الأمبراطور "سرفيوس جلبا" فمتحدّر من نسل "جوبيتير"، كما تتحدر أمّه من نسل "فينوس".

أمّا الأمبراطور "دوميتيان" فقد ملأ الكابيتول بتماثيله، ونادى بتأليه أبيه "فسبازيان" وأخيه وأخته ونفسه، وأنشأ طائفة جديدة من الكهنة دعاهم بالـ "فلافيال" للاشراف على عبادته، وألزم الموظّفين بمناداته بلقب "سيّدنا وإلهنا".

هذا التأليه للأباطرة اعتبره المؤرّخون مظهرًا من مظاهر تراجع التأثير الدينيّ داخل المجتمع الرومانيّ في العهود المتأخّرة. وممّا لا شكّ فيه أنّه كان للفلسفة دور في هذا التراجع. فالشبّان الأغنياء الذين تابعوا الدراسات العليا في أثينا والشرق تراجع إيمانهم بآلهة بلادهم.

علاوة على ذلك، درج الشعراء الرومان، خلال هذه المرحلة، على تقليد زملائهم اليونانيّين في السخرية من آلهة الرومان، إن بالفكاهة أو بالطرد من المسارح أو بتمثيلها تمثيلاً لا يليق بمكانتها. حتى الكتابات على القبور سادها التشكيك، فقد كتب على إحدى بلاطاتها "لا أؤمن بشيء وراء القبر"، وكُتب على أخرى "لا وجود للجحيم".

هذه الأجواء التشكيكيّة ساهمت في ظهور آلهة جدد أخذها المنتصرون عن الشعوب المغلوبة التي جاءت بآلهتها إلى روما، وأقامت لها هياكل هناك وعبدتها. لقد أقام التجّار القادمون من آسيا ومصر، هياكل نظرت إليها حكومة روما نظرة التساهل شرط خضوعهم لآلهة روما ولأمبراطورها.

وهكذا، ومنذ القرن الأوّل الميلاديّ، نافست إيزيس وعشتروت الأمّ العظمى في مفاهيم الأمومة والخصب. كذلك عرفت روما إله المصريّين القرد "أنوبيس"، "وفيثاغورس" اليونانيّ، والإلهة السوريّة "أترجاتس وأزيز Atragatis et Aziz"، و"مثرا" من بارتيا وهي إلهة من آلهات الشمس، و"يهوه" من بلاد العبرانيّين. وأخيرًا وليس آخرًا، السيّد المسيح الذي انتشرت عبادته في أرجاء الأمبراطوريّة الرومانيّة، وأصبحت في ما بعد ديانتها الرسميّة.

الفصل التّاسع

ديَانات شعُوب الشَّرق الأَقصى

عرف الشرق الأقصى، أيضًا، ديانات قديمة وفلسفات فكريّة عريقة يمكن تصنيفها ضمن إطار الديانات ما قبل السماويّة، لا سيّما في الهند والصين اللتَين عرفتا حضارات قديمة متطورة.

١ ـ التراث الفلسفيّ الهنديّ

عند دراسة الفكر الدينيّ الهنديّ القديم نلاحظ أنّه مندمج، بعمق، في المفاهيم الفلسفيّة لهذا الشعب. ومن الصعب التمييز بين الدين والفلسفة فيه. فالكتابات المقدّسة الهنديّة، مثل الـ "فيدا" أو مفهوم الـ "ريتا"[1]، تشير إلى العدالة التي تحكم الكون، مع التأكيد على الواجبات الإنسانيّة التي تستجيب لهذه العدالة.

ثقافة الهند القديمة

سبق المرحلة الفيديّة في الهند حضارة عُرفت بحضارة وادي السند، بدأت عام ٣٠٠٠ ق.م في وادي السند الجنوبيّ. وبحلول عام ٢٠٠٠ ق.م سيطرت على ثلث

---

١ ـ ريتا: هو النظام الطبيعيّ والأخلاقيّ في الكون. ووفقًا للهندوسيّة فإنّ الإله "فارونا" هو الذي يقوم على حراسة هذا النظام.

مساحة الهند بامتداد من جبال الهملايا شمالاً إلى مشارف بومباي جنوبًا، ونحو دلهي غربًا.

إنّما، لم تصلنا أيّ تدوينات عن انتشار فكر دينيّ خلال هذه المرحلة. رغم ذلك قام الدين بدور كبير في هذه الثقافة، إذ كانت للقرى والمدن مبانٍ لإقامة الطقوس. وعُثر على أقنعة عديدة، ممّا يشير إلى وجود رجال دين. وتشير التماثيل النسائيّة، التي تركز على الحمل والرضاعة، إلى عبادة آلهات إناث. كما وُجدت تماثيل للحيوانات الذكريّة، ممّا يُظهر معرفة بمفهوم ديانة الخصب. أمّا تسهيلات الاستحمام فتوحي باعتماد التطهير الدينيّ.

مرحلة العصر الفيدي[1]

بدأ العصر الفيديّ في الهند عندما انتقلت الشعوب الآريّة من آسيا الوسطى إلى وادي السند نحو عام ١٥٠٠ ق.م، وأختلط التراث الثقافيّ الذي حملوه معهم بتقاليد الشعوب التي التقوا بها. وطرح هؤلاء الآريّون الأسئلة عن العالم من حولهم وموضعهم فيه. هذه الاسئلة تلقّت، في البدء، أجوبة تعزو جميع النشاطات في الكون إلى الآلهة وإلى الأشخاص الفائقين، ممّا أدّى إلى تشجيع الفكر الدينيّ في الهند.

---

١ ـ صنّف المؤرّخون مراحل تطوّر التراث الفلسفيّ في الهند إلى:

أ ـ المرحلة الفيديّة: من ١٥٠٠ ق.م. إلى ٧٠٠ ق.م.

ب ـ المرحلة الملحميّة: من ٨٠٠ ق.م. إلى ٢٠٠ م.

ج ـ مرحلة السوترا: من ٤٠٠ ق.م. إلى ٥٠٠ م. هي مرحلة التطوّر وفق المدارس المختلفة لنصوص الفيدا.

د ـ مرحلة الشرح على المتون: من ٤٠٠ م. إلى ١٧٠٠ م.

هـ ـ مرحلة النهضة: بدأت عام ١٨٠٠ وما زالت مستمرّة.

وتضمّن كلّ نص من نصوص الفيدا تراتيل للآلهة وترتيبات لتقديم الأضحية لها، وتفسيرًا للطقوس والتأمّلات حول الأسئلة الرئيسيّة التي يتضمنها الفكر الدينيّ وممارسته.

المرحلة الملحميّة

شكّلت الكتابات الفيديّة جزءًا من تراث مقدّس اعتُبر أدبًا شعبيًّا يرتّل في قصص وقصائد تنقل كثيرًا من المثل العليا من التراث المقدّس في المجتمع. أبرز هذه الكتابات جُمعت في ملحمتَي "المهابهارتا" و "الرامايانا".

المهابهارتا، هي ملحمة طويلة جدًّا، تحكي قصّة غزو أرض الهند وتقدّم إرشادات للحياة، بما في ذلك الدين والفلسفة والاجتماع والسياسة والطبّ. وأهمّ جزء منها هو الأنشودة الإلهيّة التي تُعتبر أحد مصادر فلسفة الـ "فيدانتا"، التي تحاول إيضاح أنّ التحليل العقلانيّ للمعرفة والواقع، من شأنه أن يدعم نتائج الفكر الدينيّ وممارسته، كما تحاول إيضاح طبيعة الإنسان والكون.

أمّا الرامايانا، فهي قصيدة جميلة تُظهر المثل العليا للانوثة والرجولة.

الفكر الفيديّ

تشكّل أشعار الفيدا جوهر طقوس الهند المقدّسة، وهي تُنشَد ترتيلاً وغناءً لتمكّن الجميع من المشاركة في حكمة الواقع الإلهيّ. فالحكمة الفيديّة تتجاوز الزمن، وليس لها مؤلّف معيّن، إنّما تمتدّ إلى أشخاص عظام أوائل تجلّت لهم. وهي منبع النزعة الروحيّة الهنديّة الذي شكّل، على امتداد ٧٠٠ سنة، مصدر إلهام للتراث الهنديّ.

الأشعار موجّهة بمعظمها إلى الآلهة والإلهات كطقوس مقدّسة. وهي عميقة التفكير تقدّم رؤى دقيقة للواقع. والآلهة لها مواصفات فوق البشر منها: الخطاب والوعي والحياة والماء والنار، وهي التي تمثّل القوى التي تخلق الحياة وتدمّرها وتسيطر على وجودها.

وعرف الهنديّ آلهة نذكر منها:

- "أجني Agni"، إله النار المقدّسة، ويشكّل مع "إندرا" و"سورايا" ثالوثًا هنديًّا مقدّسًا.

- "إندرا Indra"، إله الصاعقة.

- "فاك Vac"، إلهة الحياة والموت، وهي على صورة سيّدة جميلة.

- "ريتا Rita"، إلهة الإيقاع الجوهريّ للوجود.

لا يعتقد الهنديّ أنّ هذه الآلهة هي التي خلقت الوجود، لأنّ فكرة الخلق منفصلة عن الكون ذاته. كما أنّه لا يمكن خلق الكون من العدم في رأيه.

ومن الترنيمات الفيديّة نذكر ترنيمة الوجود أو الأصول:

١ ـ "في البدء لم يكن هناك وجود ولا عدم، لا وجود للعالم ولا للسماء في ما وراءه. ما الذي أسدل عليه الستار؟ أين الذي منحه الحماية؟ أكان هناك واد عميق لا يُسبر له غور؟"

٢ ـ "آنذاك لم يكن هناك موت ولا خلود، وما من أثر لليل أو نهار، لم يكن هناك سوى الواحد الذي يتنفّس، دونما نفس، بدافع من ذاته، وعدا ذلك لم يكن ثمّة شيء على الإطلاق".

٣ ـ "كان هناك ظلام، يلتفّ بالظلام، وكلّ هذا كان طاقة لا تمايز فيها، ذلك الواحد الذي حجبه الخواء، كُشف النقاب عنه من خلال قوّة الحرارة، أي الطاقة".

٤ ـ "في البدء كان الحبّ، الذي كان البذرة الأولى للعقل. وفي سعي الحكماء الحكمة في أفئدتهم، اكتشفوا الصلة بين الوجود والعدم".

٥ ـ "لقد انقسموا بالعرض، فما الذي كان أسفل وما الذي كان أعلى؟ كان هناك حاملون للبذرة والقوى الهائلة، دافع من أسفل وحركة إلى الأمام من أعلى".

٦ ـ "مَن ذا الذي يعرف حقًّا؟ مَن ذا الذي يمكنه أن يقول هنا؟ متى وُلد هذا الخلق؟ ومن أين جاء؟ لقد جاءت الآلهة بعد خلق هذا العالم، فمَن ذا الذي يعرف من أين جاء؟".

٧ ـ "ذلك الذي من رحابه جاء الخلق، سواء كان يضمّه معًا أم لا، هو الذي يراه في السماء العلا، هو وحده الذي يعرف، أو ربّما حتى لا يعرف!".

أمّا الأساطير فترِوي، ردًّا على السؤال: ما الذي كان هناك قبل الوجود والعدم؟، أنّ الوجود كان مغطّى بالماء وتحميه قوّة عظمى لا يمكن الوصول إلى كنهها. لكنّ جذور الوجود موجودة في الحبّ الذي يوحّد الأضداد، أي العدم والوجود، بحيث تولد جميع أشياء العالم. أمّا "ذلك الواحد" الذي لا يمكن تقسيمه، فهو الذي يشكّل الأساس والطاقة لكلّ وجود.

الأوبانيشاد

الأفكار الأخيرة من الفيدا، التي تُعرف بالأوبانيشاد، قريبة أكثر إلى الفلسفة منها إلى الدين، كونها تُعنى بالمبادئ الأساسيّة للوجود. وهي تقارير عن تجربة الحكماء التي تظهر اختلافًا بين الواقع وبين المظهر الذي يطهّر فيه هذا الواقع.

لقد سعى حكماء الأوبانيشاد، بواسطة الرموز والطقوس الدينيّة، إلى معرفة الأمر والشيء الذي جعل الوجود أمرًا ممكنًا. وقد أطلقوا عليه اسم "براهمان" وتعني ذلك

الذي يُضفي العظمة. وهو لا يمكن تصوّره، ولا يتغيّر، ولا يناله أذى، ولا يمكن إدراكه أو سماعه أو رؤيته أو تذوّقه أو شمّه. وهو بلا بداية ولا نهاية، وأعظم من العظيم، وسابق للزمان والمكان.

تصفه الأوبانيشاد على النحو التالي:

"لا سبيل إلى رؤيته أو الإحاطة به، لا نسل له، ولا لون، بلا عين ولا أذن، وبلا يدٍ ولا أقدام، يتخلّل كلّ شيء، وهو كلّيّ الوجود، إنّه الواحد الذي لا يتغيّر، الذي ينظر إليه الحكماء باعتباره مصدرًا للموجودات".

ويُلاحظ بسهولة أنّ هذا الوصف قريب من وصف ربّ الأرباب، أو "إيل" الفينيقيّ أو "زفس" اليونانيّ. لكنّ المعرفة والقداسة والوجود التي تصف "براهمان" على نحو تجريديّ، تكتسب شخصيّة ولحمًا، كون الآلهة والإلهات يمكن رؤيتهم ولمسهم. ومن هذه الآلهة نذكر:

١ ـ فيشنو الذي يغذّي الحياة.

٢ ـ أكرشنا أي الحاكم والقوّة والوحدة الكامنة لكلّ الكون[1].

٣ ـ الإلهة الأنثى "كالي" التي هي تشخيص للموت والدمار. وهي الإلهة العظيمة التي تعود بجذورها إلى حضارة السند، أي إلى ٢٠٠٠ سنة ق.م.

وفي إحدى القصص تظهر "كالي" لتدمّر المردة وتنقذ الأرباب، لأنّ المردة هدّدوا بالقضاء على النظام السائد في العالم. وعجز الآلهة عن التغلّب عليهم. وقد ارتدت "كالي" جلد نمر أسود وتقلّدت قلادة من جماجم وحملت في يدها عَصا تعلوها جمجمة

---

١ ـ يقدّم أكرشنا أنشودة الرب: "إنّني الأصل والفناء، ما من شيء أسمى منّي على قيد الوجود، يا أرجونا، حولي نظم الكون بأسره، مثلما تنظّم اللآلئ في العقد".

وأنشودة الموت في اليد الأخرى. وينفتح فمها عن لسان دمويّ وأنياب حادّة مع عيون غائرة محمّرة وبشرة خشنة وصوت يملأ الآفاق خوفًا. إنّها صورة الموت والدمار فعلاً.

وتصوّرها إحدى الروايات ترقص رقصة الدمار على جثّة زوجها "شيفا"، وقد أحاطت بها العظام والجماجم وبنات آوى والنسور، أي رموز الموت. وفي نهاية الرقصة يعود شيفا إلى الحياة. لذلك اعتُبرت الرقصة رقصة الموت والحياة.

٤ ـ"شيفا"، الإله العظيم، سيّد الموت والخلق. يُرمز إليه بعضو ذكريّ. ويمكنه تأدية وظائف كلّ الآلهة الأخرى.

٢ ـ الديانة الصينيّة

رغم الأدلّة على وجود حضارة متقدّمة في الصين خلال العصور القديمة، فإنّ التاريخ الفعليّ يبدأ بأسرة "شانغ Shang" في القرن الرابع عشر ق.م. إذ كانت حضارة هذه الأسرة متقدّمة وفقًا للمعايير الحديثة.

إنتهى عهد أسرة "شانغ" مع غزو أسرة "تشو" عام ١١٢٢ ق.م لأجزاء كبيرة من الصين، وتفويضها إدارة أراضيها لزعماء القبائل والنبلاء والموالين لها، فساد البلاد نظام إقطاعيّ هادئ، فاعتُبر النصف الأوّل من عهد أسرة "تشو" العصر الذهبيّ في تاريخ الصين القديم. لكن، وعندما ضعفت هذه الأسرة، سادت البلاد حقبة من الحروب الأهليّة استمرّت حتّى عام ٧٧٠ ق.م حين تمكّن تحالف الحكّام الإقطاعيّين من السيطرة على ملوك أسرة "تشو" الذين أصبحوا ألعوبة بأيديهم.

وهكذا، وخلال القرنَين اللذَين سبقا ظهور الكونفوشيوسيّة، سادت البلاد مرحلة من الصراع والحرب والعنف والتآمر. وعندما ولد كونفوشيوس عام ٥٥١ ق.م، كانت مشكلات البلاد تنبع من السلطة الحاكمة، التي كانت تفضّل منفعتها الخاصّة على مصلحة الشعب. لذلك دعا إلى الإصلاحات الاجتماعيّة لمصلحة الناس، وإلى اختيار أعضاء الحكومة من الذين يتميّزون بالاستقامة والصلاح.

عصر كونفوشيوس

لمّا كان الشعب الصينيّ مجتمعًا زراعيًا وثيق العلاقة بالطبيعة، بدأت المدارس الفلسفيّة، خاصّة منها مدرسة "ين يانغ Yin-Yang" تتساءل عن بنية الكون وتنظيمه ونشأته. وتعدّ نظريّة العناصر الخمسة، في جوهرها، ردًّا على السؤال المتعلّق ببنية الكون وأصله. وتنصّ هذه النظريّة على أنّ قوى الكون الخمس التي تسيطر على مسار الطبيعة، يمثّلها، على نحو رمزيّ، الخشب والنار والمعدن والماء والتراب.

فالربيع يبدأ عندما تسود القوّة التي يمثّلها الخشب، والصيف يأتي مع سيطرة قوّة النار، والخريف مع صعود المعدن، والشتاء عندما يسود الماء. وفي أواخر الصيف يسود التراب.

لقد كان لنظريّة العناصر الخمسة تأثير في نشأة الكونفوشيوسيّة الجديدة.

الكونفوشيوسيّة الجديدة

مال الفلاسفة الصينيّون مع الكونفوشيوسيّة الجديدة إلى تأكيد القدرة على التغلّب على المعاناة والموت. وبدا جانب الرهبنة البوذيّة، الذي يتضمّن نبذ العائلة والمجتمع، تشبثًا بمبدأ خاطئ، إذ إنّه من الصعوبة جدًّا الهروب من المجتمع حيث يعيش الإنسان.

وانتقدت الكونفوشيوسيّة الجديدة التشدّد البوذيّ على ما يفوق الطبيعة الذي ينظر إلى الأشياء باعتبارها خاوية من الواقع. فالخلاف الجوهريّ، بين المدارس البوذيّة والفلاسفة الصينيّين، هو التأكيد على الواقع الاجتماعيّ والأخلاقيّ من قِبَل هؤلاء، باعتباره أمرًا أساسيًا في مواجهة الوعي والواقع غير المحسوس اللذَين شدّد عليهما البوذيّون.

وكونفوشيوس اتّجه إلى إصلاح حال المجتمع بعد أن عاش، شخصيًّا، حال الفقر الذي سمح له بفهم الدولة والمجتمع. لذلك كانت فلسفته اجتماعيّة تدور حول البشر وليس حول الطبيعة.

لكنّ كونفوشيوس ميّز بين النزعة الطبيعيّة والقوّة الفائقة الطبيعة، أي القدرة غير الإنسانيّة، التي ينظر إليها، أنّها مطلقة تنظّم كلاً من البشر والطبيعة وتجعلهم خاضعين لها. والفائق للطبيعيّ ينظر إليه باعتباره خالقًا لكلّ من الطبيعة والبشر. وعلى البشر اكتشاف ماذا تريد القوّة الفائقة الطبيعة أن يفعلوا. وفي ديانة التأليه ينظر إلى هذا الأمر باعتباره خاصًّا بمعرفة إرادة الإله وتنفيذها.

٣ ـ الديانة اليابانيّـــة

علاوة على مرحلة تاريخ اليابان الأسطوريّة البدائيّة، يبدأ تاريخ اليابان الفعليّ مع المرحلة البوذيّة (٥٥٢ ـ ١٦٠٣م.) حين دخلها الدين وهذّب طبائع سكّانها. وجاء في أقدم ما دُوّن عن اليابان، أنّ الآلهة كانت، منذ البداية، ذكرًا وأنثى، وكانت تولد وتموت. إلاّ أنّ أمرًا صدر عن شيوخ الآلهة، إلى اثنَين منها، أخ وأخت، هما

"إيزانامي"، و"إيزاناغي"، بأنّ يخلقا اليابان، فوقفا على جسر الماء العائم وقذفا إلى المحيط رمحًا مرصّعًا بالجواهر، ثمّ رفعاه إلى السماء، فنزلت منه قطرات أصبحت "الجزر المقدّسة"، وعددها ٤٢٢٣. ومن نسل هذَين الإلهَين، جاء الشعب اليابانيّ، ووُلدت "أماتيراسو" إلهة الشمس، ومن حفيدها "تينجي" نزل كلّ أباطرة اليابان[١].

وعندما ضربت اليابان هزّات أرضيّة سنة ٥٩٩، وابتلعت الأرض قرى بكاملها، وأعقبت ذلك مجاعة كبرى، وقُضي على آلاف اليابانيّين، تساءل اليابانيّون: "كيف ينزل هذا الخراب كلّه بأرض خلقتها الآلهة وتحكمها الآلهة؟

العقيدة اليابانيّة

تنصّ العقيدة اليابانيّة على أنّ لكلّ كائن روحًا، وتؤمن بالتوتميّة[٢]، وبعبادة الأسلاف، وتأليه العلاقة الجنسيّة. ويرى اليابانيّون أنّ الأرواح موجودة في كلّ شيء، حتّى في كواكب السماء ونجومها، وفي نبات الحقول وحشراتها، وفي الإنسان والحيوان والشجر.

وهم يرون أنّ عددًا كبيرًا من الآلهة يحوم فوق المنازل وسكّانها، ويرقص على ضوء المصابيح[٣]. أمّا الاتّصال بالآلهة فيصير بإحراق عظام غزال أو قوقعة سلحفاة. ويخافون الموتى ويعبدونهم لأنّهم يعتقدون بأنّ غضبهم يُنزل شرًّا. لذلك، كانوا يسترضونهم ويضعون أشياء ثمينة في قبورهم، كالسيف للرجل والمرآة للمرأة.

---

١ - Gowen, *History of Japan*, P. 37.

٢ - سبقت الإشارة إلى التوتميّة عند الحديث عن الدين لدى عرب الجاهليّة.

٣ - Lafcadio Hearn, *Japan: An Interpretation*, P. 53

وعمد اليابانيّون القدماء، أحيانًا، إلى التضحية البشريّة اتّقاء لغضب الطبيعة. كما تعوّدوا دفن بعض الأتباع مع الأمير والسيّد ليدافعوا عنه في الآخرة[1].

ومن عبادة الأسلاف نشأت أوّل ديانة في اليابان هي "شينتو". وفي سنة ٥٢٢ دخلت البوذيّة من الصين وانتشرت سريعًا في البلاد. وساعد على انتشارها هذا، اعتناقها من قِبَل الأمبراطور والأسرة المالكة، وتشجيعها وحمايتها من قِبَل وليّ العهد "شوتوكوتايشي".

---

١ - Gowen, Op. Cit., P. 67.

الفصل العَاشر

مُوجَز ديَانَات بَعض الشُّعوب

كما سبق القول، من المرجّع أنّ جميع الشعوب مرّت بمرحلة عرفت خلالها ديانات بدائيّة، وتساءلت عن معنى بعض الظواهر، وأُعجبت بالقوّة، وخافت من غير الطبيعيّ، وعبدت آلهة استنبطتها عقول أفرادها البدائيّين.

لذلك، وبغية إكمال الصورة التي بدأناها في هذه الدراسة عن نشأة الديانة، رأينا وجوب التطرّق إلى بعض هذه الديانات الأولى، دون أن يعني ذلك أنّنا سنتعرّض لدراستها جميعها، لأنّ ذلك يخرج عن نطاق هذا الكتاب ليدخل إلى عالم "موسوعة المجتمعات الدينيّة في العالم"، التي تقدّمها هذه الدراسة، التي ستُجري مسحا شاملاً لجميع ما عُرف من أديان في العالم.

١ - الدين والآشوريّون

إعتُبر المجتمع الآشوريّ مجتمعًا عسكريًّا كانت أكثر إنجازاته في الميادين الحربيّة والقتاليّة. لذلك كان اهتمامه بأمور الماورائيّات والديانة، مقتصرًا على القضايا الأساسيّة فقط. ولكنّه ورغم الروح العسكريّة المهيمنة واعتماد الدولة الآشوريّة الأولى على جيشها، شكّلت الديانة القوّة الثانية للملك الذي كان ينال رضى الآلهة والكهنة مقابل أثمان باهظة. فرأس الدولة هو الإله "أشور" الذي تصدر القوانين والأوامر

باسمه وتُعتبر قرارات صادرة عن الإرادة الإلهيّة. كما تُجمع الضرائب لخزانته، وتُشنّ الحروب لمجد اسمه ولإخضاع الآلهة الأجنبيّة لسلطته، كما حصل عندما تغلّب أشور على بابل فأصبح "مردوخ" العظيم خادمًا لآشور.

وكما في الديانات ما قبل السماويّة التي عرضناها إلى الآن، يجبر الملك شعبه على اعتباره إلهًا، وعلى عبادة الإله الشمس "شمش". فالآشوريّون أخذوا الديانة عن سومر وبابل، لكنّهم قاموا بتكييفها لتناسب مجتمعهم العسكريّ القائم.

حتّى في الأحكام اعتُمد التحكيم الإلهيّ إذ كان المتّهم يُلقى في النار أو الماء وهو مقيّد اليدَين والرجلَين. لذلك كانت القوانين الآشوريّة أقرب إلى الدين من شريعة حمورابي. كذلك بالنسبة للأسرى الذين نسمع أشور بانيبال يقول إنّه قتلهم جميعًا: "....وبهذه الأعمال أدخلت السرور إلى قلوب الآلهة العظام".

ومن المستغرب أنّه لم يكن للدين أيّ أثر في تخفيف العنف والوحشيّة اللذين رافقا الحروب الآشوريّة. والسبب في ذلك، أنّه لم يكن للدين من السلطان بما يسمح له بتغيير أذواق المجتمع الآشوريّ وعاداته. فأشور هو من الآلهة الشمسيّة ويتمتّع بروح حربيّة فلا يشفق على المغلوبين بل يفرح برؤيتهم يُقتلون أمام تمثاله.

والديانة الآشورية تحثّ المواطن على طلب رضى الآلهة بالرقوات والأدعية وحتّى بالمداهنة. وهي تصوّر العالم مليئًا بالشياطين الذين ينبغي تجنّب أذاهم.

معظم الألواح الأركائيّة، التي اكتُشفت في آشور، شملت تقارير ورقوات سحريّة وترانيم وأنساب الملوك والآلهة. لنسمع آشور بانيبال يقول في إحداها: "أنا آشور بانيبال، فهمت حكمة نابو "إله الحكمة"... وحباني مردوك، حكيم الآلهة، بالعلم والفهم هديّة منه..."

٢ ـ الدين والشعوب الهنـــدو- أوروبيّـــة

الشعوب الهندو- أوروبيّة، أو الآريّة، آمنت، أيضـًا، بالآلهـة والآخـرة والحيـاة بعـد الموت. وهذا الإسم أُطلق على الشعوب النازلة قرب شواطئ بحر قزوين وذلك بالنسبة للشعبة الشرقيّة منها. أمّا الشعبة الغربيّة فهي التي عمّرت أوروبّا بعد أن ضغطت على الأمبراطوريّة الرومانيّة من الشمال وأزالتها من الوجود.

الفريجيّون، الذين ينتمون إلى العرق الآريّ، فسّروا للمؤرّخين قيام دولتهم أواخر القرن التاسع قبل الميلاد في آسيا الصغرى، بأسطورة رمزيّة يقولـون فيهـا إنّ "زفـس" أمرهم بأن يختاروا ملكهم الجديد أوّل رجل يدخل الهيكل في عربة. وكان هذا الداخـل "جورديوس" الذي كانت عربته إلهيّة. وفي نبوءة أخـرى جـاء أنّ مَـن يتمكّـن مـن حـلّ العقدة التي تربط العربة هـذه، يحكـم جميـع بـلاد آسـيا. فجـاء الإسـكندر وقطـع العقـدة بضربة سيفه فتحقّقت النبوءة.

أمّا ملكهم الثاني "ميداس" فطلب من الآلهة أن يتحوّل كلّ ما يمسّه ذهبًا، فاسـتجابت الآلهة لطلبه. لكنّ طعامه تحوّل ذهبًا، ما جعله يطلب إلغاء قسمه[١].

واتّخذ الفريجيّـون إلهــة دُعيــت "سـيبيل"، وخدمـوا الآلهــة بالدعــارة المقدّســة. ومـن أسـاطيرهم أنّ "سـيبيل" أحبّـت الإلــه الشــاب "أرتيــس" وأرغمتــه علــى خصــي نفسه تكريمًا لها. لذلك كان كهنتهـا يضحّـون برجولتهم قبل الدخـول إلـى الخدمـة فـي هياكلها.

---

١ ـ للمزيد من التفاصيل حول أسطورة الملك ميداس، راجع الملحق الثالث.

٣ ـ أصول الصابئة المندائيّين

عند دخول الجيوش الإسلاميّة لفتح العراق سنة ٦٣٥م رفع أعضاء الصابئة كتابهم المقدّس "كنزا ربا" بأيديهم للدلالة على أنّهم من أهل الكتاب الذين ذكرهم القرآن أسوة باليهود والنصارى.

وكتاب "كنزا ربا" كُتب باللغة المندائيّة التي هي لهجة من لهجات الآراميّة، وتُرجم إلى اللغة العربيّة. كما كتب العديد من أبناء الصابئة المندائيّين عن ديانتهم ومنهم: عزيز سباهي الذي كتب "أصول الصابئة المندائيّين"، والشيخ رافد عبد الله، وتاجية مراني، وغضبان الرومي، ونعيم بدوي، وناصر صبحي، الذين ترجموا الأدب المندائيّ إلى لغات أخرى، وفيها الكتب المقدّسة والأناشيد والتراتيل والوصايا.

ومن هذه الكتب ما تطرّق إلى العقائد المندائيّة مع نصوص خاصّة بالكهنة وتعاليم أداء الطقوس وكتب الخليقة والكون ويوم الحساب. وفي كتاب "كنزا ربا" فصُول في الصلة بين الديانة المندائيّة والديانة البابليّة والبحث في حياة يوحنّا المعمدان، أي يحيى بن زكريّا، وعلاقته بالديانة المندائيّة.

ومن الطبيعيّ أن تتأثّر الديانة المندائيّة بالأدب الدينيّ البابليّ الذي كان سابقًا لها. فإذا تطرّقنا إلى الأسطورة المندائيّة عن خلق الكون، لوجدنا شبهًا كبيرًا بالأسطورة البابليّة في ما يخصّ الخلق والتكوين. فقد جاء في كتاب "كنزا ربا" أنّ الكون كان ظلامًا كما هو الأوقيانوس العظيم. ومنه "الروها" ملكة الظلام التي تشبه "تعامت" عند البابليّين. لكنّ ملك النور أرسل "هيبل زيوا" لمحاربة "الروها"، وهو شبيه مردوخ البابليّ وجبرائيل عند الأديان السماويّة. وينتصر رسول النور وتبدأ الخليقة.

ويعتقد المندائيّون بأنّ روح المتوفّى تتجول بين القبر ومنزله طيلة ثلاثة أيّام قبل صعودها إلى السماء. كما يعتقدون بمحاسبة الأرواح قبل دخولها منطقة "الحقّ المتسامي" أي الجنّة، بعد قياس حسناتها وسيّئاتها. ويرون أنّ "يحيى بن زكريّا" هو معلّم كبير وليس نبيًّا، لأنّ الصابئة يعتقدون بأنّ النبوّة من اختصاص عنصر روحانيّ يهبط من السماء.

ويرى البعض أنّ المندائيّين هم من عبدة الماء نظرًا لشدّة علاقتهم بها. كما يعتقد اليهود بأنّ الصابئة المندائيّين هم يهود انحرفوا عن ديانتهم الأساسيّة. وذهب مؤرّخون إلى اعتبارهم فرقة مسيحيّة منحرفة. إلاّ أنّه، ورغم هذه الاعتقادات، تبقى الديانة المندائيّة من الديانات التي سبقت الديانات السماويّة المعترف بها عالميًّا ويمكن تصنيفها في مرحلة ما قبل هذه الديانات.

٤ ـ الديَانة وحضارات أميركا الوسطى

أميركا الوسطى تعني منطقة تمتدّ من المكسيك إلى غواتيمالا والهندوراس والسلفادور ونيكاراغوا وكوستاريكا. عرفت هذه المنطقة حضارات قديمة تركت آثارًا ومنحوتات تشهد على عظمتها. وهذه الحضارات تعود إلى أعراق وأجناس بشريّة مختلفة عمّا عرفه الشرق الأدنى وأوروبّا والشرق الأقصى، برز منها شعب الأزتيك والمايا والأولماك والانكا.

لقد انتشرت، في هذه البقعة من العالم، ثقافات متنوّعة أدّت، في غناها، إلى تسريع تطوّر حضاراتها التي بدأت مع الألف الأوّل بعد المسيح، بما فيها الممارسات الدينيّة

والأساطير والآلهة ورموزها. وتمسّك كلّ من هـذه الشـعوب باسـتقلاله دون أن يتمكّـن أيّ منها من السيطرة على الشعوب الأخرى.

وحتّى اليوم ما زال تاريخ هذه الشعوب غير معروف كليًا. إنّمـا مـا هـو مؤكّـد أنّ أقدم تصاوير ومنحوتات لأشكال الآلهة في حضارات أميركا الوسطى، تعود إلى شـعب الأولماك الذي استقرّ في شرق المكسـيك بيـن عـام ١٥٠٠ق.م. و٤٠٠ ق.م. كمـا كـان لحضارة الأولماك تأثير كبير على التقاليد الدينيّة اللاحقة في أميركا الوسطى.

وأبرز تقاليد الأولماك الدينيّة المحافظة علـى صـورة الجـاغوار. والجـاغوار هيئـة تصويريّة على علاقة بأساطير وسط وجنوب أميركا، تجسّد قوّة الـ "شـامان" أي طبيـب القبيلة السحريّة في تحوّله إلى شكل الجاغوار.

وكان هؤلاء الكهنـة الـ "شـامان" المتحوّلـون إلـى جـاغوار، يخيفـون النـاس لأنّهـم يجعلونهم يعتقدون بأنّهم قـادرون علـى إحضـار الأرواح ومخاطبـة القـوى الماورائيّـة، اعتقادًا جعل الديانة تستمرّ في حضارات شعوب أميركا الوسطى.

وفي حضارات المايا والزابوتك كان يصوّر الجاغوار جنبًا إلـى جنـب مـع رمـوز آلهة الخصب والزرع.

وعرفت حضارة الأولماك هيئات من التماسيح والثعـابين والكائنـات المتحوّلـة، أي أنصاف الآلهة. كما عُرفَ إله المطر "تلالوك" وإله الذرة "كواتز لوكواتل"...الخ.

أمّـا شـعب المايـا فقـد عـرف الأحجـار الكريمـة وخاصـة اليشـب **Jade** الأزرق والأخضر، وعاش في عـالم العقيدة الدينيّـة التـي تقتضـي بوضـع هـذا الحجـر فـي فـم المتوفّى من النبـلاء كوسـيلة لدخـول العـالم السـفليّ. وهكـذا اعتُـبر هـذا الحجـر رمـزًا للديمونة .

أسطورة الشموس الخمس

عرف الأولماك عددًا من الأساطير أبرزها" أسطورة "الشموس الخمس" وموجزها أنّ إله الازدواجيّة "أوميتكو هيتلي Ometecu Hitli" الذي خلق نفسه، كان على صورة ذكر وأنثى. وعنه تولّد أربعة من الآلهة يتناسب كلّ واحد منها مع إحدى الجهات الأربع. الأحمر يتناسب مع الشرق، والأزرق مع الجنوب، والأبيض مع الغرب، والأسود، إله السماوات الليليّة، مع الشمال.

يضاف إلى هؤلاء إله المطر "تلالوك" ورفيقته الدائمة إلهة المياه.

المواجهة التي رافقت صراع هؤلاء الآلهة على السلطة، أدّت إلى تدمير عوالم خمسة متتالية عُرفت بعوالم الشموس.

الشمس الأولى عُرفت بالجاغوار الأربعة التي غلبتها الشمس الثانية بعد ٦٧٦ سنة وعُرفت بالرياح الأربعة. بعدها عادت الشمس الأولى وغلبت الثانية بواسطة إعصار مدمّر والتهمت الجاغوار الأرض.

الشمس الثالثة أي الأمطار الأربعة حكمها إله المطر وسيطرت عليها النار تحت أنظار "تلالوك" إله المطر.

الشمس الرابعة أي المياه الأربعة كانت أيضًا تحت سيطرة إلهة المياه رفيقة "تلالوك".

كلّ هذا انتهى عندما غمر الأرض طوفان مروّع فتحوّلت الأجناس البشريّة إلى أسماك، إلى أن سيطرت الشمس الخامسة خلال مرحلة من أهمّ مراحل الخلق في أسطورة الشموس. وهذه الشمس الخامسة، أي الحاليّة، وجدتها الآلهة لتوفّر للبشريّة فرصة ملائمة وأخيرة للعيش، بعد أن عرف الكون فراغًا وتزعزعًا لمقوّماته وتداعيًا لنظامه.

٥ ـ الديانـة

الزرادشتيّة

تروي الأساطير الفارسيّة قصة عن ولادة زرادشت أو "زرشسترا" قبل المسيح بمئات السنين، من فتاة عذراء حملت حملاً إلهيًا. فلمّا وُلد حاول الشيطان أن يغويه، لكنّه فشل وظلّ الصبي متمسكًا بدين "أهورا مزدا" الذي تجلّى له ووضع بين يدَيه كتاب العلم والحكمة، وأمره أن يعظ الناس. وهكذا وُلد الدين الزرادشتيّ بعد أن نشره أمير إيرانيّ عظيم دعم زرادشت.

ولمّا بدأ زرادشت بشرح دينه، كان الميديّون والفرس يعبدون الحيوانات والأرض والشمس، وكان أكبر آلهتهم "مثرا" إله الشمس، و"أنيتا" إلهة الخصب والأرض، و"هوما" الثور المقدّس الذي مات ثمّ بُعث حيًّا ووهب الجنس البشريّ دمه شرابًا وجعله خالدًا.

غضب زرادشت من هذه الطقوس فثار على "المجوس"، أي الكهنة، الذين كانوا يخدمون تلك الآلهة، وأعلن أنّه ليس في العالم سوى إله واحد هو "أهورامزدا" إله النور والسماء. وساهم في نشر هذا الدين اعتناقه من قبل "داريوس" الكبير الذي شنّ حربًا شعواء على الكهنة المجوس وعباداتهم القديمة وجعل الزرادشتية دين الدولة.

ويستعين الإله الأكبر، بصفته خالق العالم وحاكمه، بطائفة من الأرباب الصغار تستمدّ أشكالها من الطبيعة، كالنار والماء والشمس والقمر والريح والمطر. ويسهر على تطبيق الديانة الزرادشتية رجال الدين الذين يأتون في الأهمّيّة بعد الملك، والذين وهُبت لهم الأراضي والعشور. فقد تأسّس نظام الحكم على أساس دينيّ وعيّن كاهن أكبر ذو سلطان عظيم رئيسًا لطائفة المجوس الوراثيّة، التي كانت تشرف على جميع مناحي الحياة الذهنيّة الفارسيّة.

ووعد رجال الدين اتباعهم بأنّ آخرة الرجل العادل ستكون سعيدة، وأنّ قوى الخير ستتغلّب على قوى الشرّ التي يكون مصيرها الفناء بعد أن يمرّ العالم بأربعة عهود، طول كلّ منها ثلاثة آلاف سنة. ثمّ ينضمّ الصالحون إلى "أهورا مزدا" في الجنّة ويسقط الخبيثون في الظلمة إلى أبد الدهر. وكان الكهنة أيضًا يتعاطون الشأن العامّ الدنيويّ فيحمون الأهالي من تعسّف الجباة وأستبداد الحكّام.

لم يبن الزرادشتيّون هياكل وأصنامًا، إنّما أنشأوا المذابح المقدّسة على قمم الجبال وفي القصور والمدن. وكانوا يوقدون فوقها نارًا عظيمة تكريمًا لأهورامزدا، ويتّخذون من النار نفسها إلهًا يعبدونه، ويعتقدون أنّها ابن إله النور. وكان في كلّ بلدة معبد للنار المقدّسة لا تنطفئ أبدًا، وترمز إلى النور.

واستعان الأهالي في حربهم ضد الشيطان بكهنة المجوس الذين عادوا للظهور بزهدهم وتقشّفهم وطقوسهم وحكمتهم، وبما يعرفونه من عالم الغيب، وبرقاهم وسحرهم ودعواتهم. مقابل هذه الخدمات كان الناس يمدّون الدولة والمعبد بمقوّمات حياتهم، من الزرع إلى التجارة والصناعة ورعي الماشية وإصلاح الأراضي البور وأعمال السخرة المتنوّعة.

دين زرادشت لم يكن مبنيًا على أساس التوحيد.

ويرى زرادشت أنّ بناء البيت وتكوين الأسرة وكثرة النسل والاعتناء بالأرض وثمارها والجسم البشريّ وصحّته، كلّها أمور تؤدّي إلى عمارة العالم.

كما يرى وجوب تقديس العناصر الأربعة المعروفة وهي: النار والهواء والماء والتراب. لذلك فالزرادشتيّون لا يحرقون موتاهم كالهنود.

وقوام الأخلاق عند زرادشت ثلاثة: الفكر الطيّب، والكلام الطيّب، والعمل الطيّب. وأتباعه يعتقدون بالبعث والثواب والعقاب والصراط والجنّة والنار وخلود الروح.

٦ ـ الدين

البــوذيّ

البوذيّة دين حقيقيّ من وحي السماء. ظهر في الهند في النصف الثاني من القرن السادس قبل الميلاد. واعتُبر مدرسة أخلاقيّة تهدف إلى بناء الإنسان أخلاقيًّا وتخليصه من الألم والحزن والشرّ والشقاء. وهو يعلّم الفضائل السامية التي ينبغي أن يتحلّى بها الإنسان لينال الخلاص.

وبوذا لم يترك أيّ نصّ مكتوب عند وفاته. لذلك حصل اجتماع سنة ٤٧٧ ق. م. بين تلامذته في مدينة راجا من أجل تلخيص تعاليمه وتدوينها. وقد تمّ نشر مبادئه في ما بعد عن طريق تلامذته الذين انقسموا إلى مدرستين مختلفتين:

الـ"هينايانا" التي انتشرت في الهند وسريلنكا وجنوب شرق آسيا؛ والـ"ماهايانا" التي اعتمدت في الصين وكوريا ومنغوليا والتيبت واليابان.

لا ينكر بوذا الآلهة، ويؤمن بالإله "براهما" الذي تجسّد بهيئة إنسان، وهو الذي لقّن بوذا بعض التعاليم وحثّه على التبشير بدينه كي لا يدمّر العالم. ويعترف بوذا بقوى الخير وقوى الشرّ التي يترأسها الشيطان. كما يعترف بالجنّة والنار والملائكة والشياطين.

أمّا الإنسان، وفق بوذا، فيتألف من جسد وروح. الروح تنتقل في ولادات جديدة حاملة معها أعمالها الصالحة والشريرة. وعندما تتخلّص الأرواح تبلغ طور "النيرفانا" أي الاستنارة الكاملة[1].

---

١ ـ النيرفانا: هي هدف البوذيّين، حالة يكون قد تمّ فيها محو الكره والنجاسة والجهل، وهي حالة فكريّة مطلقة يسودها الهدوء المطلق وتلغى فيها الرغبات جميعًا.

كما يؤمن بوذا بالروح، ويقول إنّها موجودة في الإنسان والحيوان والنبات، لكنّ روح الإنسان عاقلة، وروح الحيوان تعيش في "الأنا" والغريزية، وروح النبات بلا وعي. وركّز على خلود الروح وعلى محبة الله والقريب والإنسانيّة.

وهو يقول إنّ اللّه لم يخلق الكون لأنّ روحه حلّت في جميع أشيائه.

يقول بوذا إنّ استقامة الإنسان تجعله كاملاً ومتحررًا من أباطيل العالم وشهواته الدنيئة. كما أنّ تقديم الذبائح للآلهة والصلوات والابتهالات والتسابيح والتوسّلات لا تهدّئ غضب الآلهة، لذلك، فإنّ استقامة الإنسان في حياته، هي خير من العبادة.

وضع بوذا وصايا عشر هي خطايا ينبغي تجنبّها وهي:

القتل ـ السرقة ـ الزنى ـ الكذب ـ الافتراء ـ الشتم ـ الكلام الباطل ـ الطمع ـ البغض ـ الضلال.

وعلّم أتباعه طريق السلام والروح والحكمة التي تؤدي إلى النيرفانا. كما علّمهم التأمّلات الخمسة الرائعة:

- التأمّل بالمحبّة للأصدقاء والأعداء.
- التأمّل بالشفقة على الكائنات الحيّة.
- التأمّل بالفرح لفرح الآخرين.
- التأمّل بالنجاسة وتأثيرات الفساد والخطيئة.
- التأمّل بطمأنينة الفكر وصفائه.

ويشير بوذا إلى وجوب التخلّص من "الأنا" ومن التعلّق بالملذّات الحسيّة وبأباطيل العالم.

واحترم بوذا المرأة وأدخلها في دينه وأسّس للراهبات أديارًا وعارض تعدّد الزوجات وحرمان المرأة من العلم. ولم يفرّق بين المرأة والرجل. وبارك الزواج الذي اعتبره مقدسًا على أن يكون الزوج والزوجة وفيّين لبعضهما.

وأمر بوذا بالرفق بالحيوان ومنع قتل أيّ مخلوق حيّ، لكنّه سمح بقتل أيّ حيوان شرس يقدم على أذيّة الإنسان.

ولم يؤمن بالقضاء والقدر، بل حمّل الإنسان تبعة أعماله.

والبوذيّة منتشرة بين ٢٠٠ مليون مؤمن يتوزّعون في بلدان العالم كلّه، من الهند إلى التيبت ونيبال وكامبوديا ومنغوليا وغيرها.

الحقائق النبيلة الأربع

ينطلق بوذا من حقائق أربع، الأولى تنصّ أنّ الحياة هي عذاب، والثانية أنّ سبب العذاب هو الرغبة، والثالثة أنّ مداواة العذاب تكون في إلغاء الرغبة، والرابعة أنّه من أجل إلغاء الرغبة يجب اتّباع طريق الثمانية أصفاف، وهذه الأصفاف الثمانية هي:

١ ـ الإيمان المستقيم؛ ٢ ـ الإرادة المستقيمة؛ ٣ ـ الكلام المستقيم وعدم الكذب أو انتقاد الآخرين بطريقة غير عادلة أو النطق بكلمات قاسية ومؤذية أو المبالغة في التصرّفات والكلمات؛ ٤ ـ العمل المستقيم واتّباع المبادئ الخمسة؛ ٥ ـ إتّباع سبل عيش مستقيمة؛ ٦ ـ إعتماد جهد مستقيم والسيطرة على الأفكار الشيطانيّة؛ ٧ ـ الانتباه المستقيم؛ ٨ ـ التأمّل المستقيم.

المبادئ الخمسة

المبادئ الخمسة التي ينبغي أن يتبعها كلّ مؤمن هي:

- لا تقتل،
- لا تسرق،
- لا تكذب،
- إبقَ عفيفاً،
- لا تتعاطَ المخدّرات والمنشّطات.

ملاحق

الأسَاطِير اليُونَانيَّة

رأينا أن نورد في آخر هذا الكتاب نماذج مختارة عن الأساطير اليونانيّة لأسباب، أهمّها:

- أنّ هذه الاساطير تعكس مفاهيم الميثولوجيا المتطوّرة عند اليونان.
- أنّها تُظهر مدى أخذ الحضارات عن بعضها بالنسبة للماورائيّات وللديانة.
- أنّ بعض هذه الأساطير تعكس مفاهيم أمست ضمن تقاليدنا وأعرافنا. كما أنّ بعضها يدخل ضمن التاريخ القديم للشعوب وضمن التيّار الحضاريّ الهادر الذي بدأ في بلاد ما بين النهرين، وعبر بلاد الشرق الأدنى وخاصّة السواحل اللبنانيّة والسوريّة والفلسطينيّة، وصولاً إلى اليونان، فروما التي فرضته على الشعوب التي سيطرت عليها أمبراطوريّتها.

الملحق الأوّل

أصل الكون والآلهة[1]

في البدء كان السديم المظلم الأبديّ اللامتناهي. فهو منبع حياة الكون. منه انبثق كلّ شيء. الكون برمّته وجميع الآلهة الخالدين. ومنه أيضًا كانت "هيبا" الأرض، التي

---

١ ـ من قصيدة "تيوغونيا" للشاعر هزيود.

انبسطت جبّارة فسيحة المدى تمنح الحياة لكلّ ما يدبّ أو يدرج فوقها أو ينمو. وفي أغوارها السحيقة، البعيدة عنّا بعد السماء الصافية العزيزة المنال، وفي عمق لا يسبر غوره ولد "تارتار" الكئيب ـ الهوّة الرهيبة الغارقة أبدًا في الدياجير، ومن السديم مصدر الحياة كان الحبّ ايروس، القوّة الجبّارة القادرة على إحياء كلّ شيء. ثم بدأ خلق الكون، فأوجد السديم الأزليّ الأبعاد المظلمة الخالدة: ايريب، والليل الحالك "نيوكت". ومن الليل والظلام كان الضوء الخالد "ايثير" والنهار المشرق الوضّاء "هيمير". وانتشر الضوء فوق العالم وأخذ النهار والليل يتناوبان.

وولدت الأرض الجبّارة الطيّبة السماء الزرقاء اللامتناهية "اوران"، وانتشرت السماء فوق الأرض، وبأنفة رفعت قممها الجبال الشاهقة، بنات الأرض، وانفسح البحر الأزليّ الخفقان. فالأرض ولدت السماء والجبال والبحر من غير أب.

وصار "أوران" ملكًا على الكون، فتزوّج من الأرض الطيّبة وأولدها ستّة أبناء وستّ بنات عمالقة جبابرة. أمّا ابنها العملاق "أوكيان"، والذي يحيط بالأرض كنهر عظيم لا شاطئ له، فقد كان له وللإلهة "فيتيدا" جميع ما على الأرض من أنهار تتدفّق بأمواجها نحو البحر، وكانت لهما الأوكيانيدات ـ ربّات السحر. أمّا العملاقان "هيبيرون" و"تيّا" فقد منحا العالم: الشمس هيليوس، والقمر سيلينا، والفجر اللازوردي أيوس القاني الحمرة. ومن أستري وايوس انحدرت جميع النجوم التي تتّقد في السماء الليليّة المظلمة، وجميع الرياح: ريح الشمال العاصفة بوريوس، والشرقيّة ايفر، والجنوبيّة الرطبة نوت، والغربيّة العليلة زيفير، وهي التي تأتي بالسحاب والمطر.

وبالإضافة إلى العمالقة، أنجبت الأرض ثلاثة من الجبابرة: الـ "سيكلونات". وكان لكلّ واحد منهم عين واحدة في جبينه. كما ولدت ثلاثة من المَرَدة العظام كالأطواد، اسم واحدهم "هيكاتونخير" أي ذو الأذرع المائة لأنّه كان له مائة ذراع، وكان لكلّ منهم

خمسون رأسًا، ولا يمكن لشيء أن يقف أمام قوّتهم الجبّارة وقدراتهم الوليدة التي لا تعرف حدًّا.

كان "أوران" يكره أولاده المردة، فحبسهم في أعماق الأرض داخل الدياميس المظلمة ومنعهم من الخروج، فضجّت أمّهم الأرض بالحمل الرهيب المدفون في أحشائها، واستدعت أولادها العمالقة وحاولت إقناعهم بالثورة على أبيهم، لكنّهم كانوا يخشون أن يرفعوا أيديهم عليه، إلا أنّ أصغرهم "كرون" الماكر استطاع أن يحتال على أبيه وينتزع السلطة من يده. وعقابًا على فعلته ولدت إلهة الظلمة جمعًا غفيرًا من الآلهة المروّعين، الذين جئنا على ذكرهم بالتفصيل في سياق البحث. وحمل هؤلاء الآلهة الرعب والفوضى والخداع والصراع والتعاسة إلى العالم الذي كان أبوهم "كرون" يحتلّ فيه عرش والده.

مولد زفس

لم يكن "كرون" على ثقة من أنّ السلطان سيؤول إليه مع الأبد. فكان يخشى أن يتمرّد أبناؤه ويلحقوه بالمصير الذي أودى بوالده إليه، لذلك أصدر أمره إلى زوجته "ريبا" أن تحمل إليه أبناءها ليبتلعهم بلا رحمة، فسيطر الرعب على "ريبا" وهي ترقب مصائر أبنائها. لقد ابتلع خمسة منهم: هيستيا ربّة النار المقدّسة وربّة نيران المواقد وحامية المدن والحكومات، وديمييترا إلهة الخصب، وهيرا وآبيد وبوسيدون، الذي يقابلهم عند الرومان: يونانا وبلوتون ونبتون. ولم ترضَ "ريبا" أن تفقد ابنها الأخير فمضت وفق نصيحة أبويها: السماء أوران والأرض هيبا، إلى جزيرة كريت فوضعت طفلها زفس في كهف هناك، وفي ذلك الكهف أخفته عن عينَي أبيه القاسي، ودفعت إلى هذا بحجر طويل ملفوف بخرقة بديلاً عن ولدها، فلم يلحظ كرون خديعة زوجته.

نشأ زفس بعد ذلك في جزيرة كريت، حيث أشرفت الحوريتان أدراستيا وإيديا على العناية به صغيرًا فكانتا ترضعانه حليب العنزة المقدسة أمالفيا، كما كانت أسراب النحل تحمل إليه العسل من المنحدرات العالية لجبل ديكتا. وكان شبّان كريت يقفون عند مدخل الكهف ويضربوا بالسيوف على المتاريس، كلّما بكى الصغير، لكي لا يبلغ بكاؤه مسامع كرون فيلحقه بإخوته وأخواته.

زيوس يزيح كرون

صراع آلهة الأولمب
مع العمالقة

شبّ الإله زفس الرائع الجبّار واشتد عوده، فثار على أبيه وأرغمه على أن يعيد إلى العالم مَن ابتلعهم من بنيه، فصار كرون يلفظ من بين شدقّيه أبناءه الآلهة الرائعين الوضّاحين، واحدًا إثر الآخر، وبدأ الآلهة صراعهم مع كرون ومع العمالقة للتربّع على عرش الكون.

كانت المعركة ضارية رهيبة وقف أبناء كرون خلالها فوق جبل الأولمب الشاهق، يؤازرهم بعض العمالقة، وفي مقدّمتهم العملاق أوكيان وابنته ستليكس وأولادها الهدير والبأس والنصر. كانت المعركة قاصمة بالنسبة لآلهة الأولمب، فقد كان أعداؤهم العمالقة أشدّاء أقوياء. إلا أنّ الـ "سيكلونات" بادرت إلى مساعدة زفس، فساقت له الرعود والصواعق، وصار زفس يرشق بها العمالقة. ودامت المعركة أعوامًا عشرة لم تمل كفّة النصر إلى أحد الجانبين. فقرّر زفس، أخيرًا، أن يحرّر من أعماق الأرض الجبابرة الـ "هيكاتونخير" ذوي الأذرع المائة، ويستصرخهم لنجدته. فخرجوا من

الأعماق رهيبي السحنات ضخامًا كالأطواد، واندفعوا نحو ميدان المعركة فكانوا يفصمون صلد الصخور عن الجبال ويكيلون بها العمالقة. وراحت الصخور تتطاير مائة مائة فوق العمالقة الطامحين نحو جبل الأولمب. وأنّت الأرض، وشحن الفضاء بقعقعة السلاح، واضطرب كلّ شيء، واهتزّ فؤاد تارتار من هول المعركة، وراح زفس يقذف بحمم الصواعق وهدّار الرعود. فمادت الأرض بالنيران المتأجّجة وغلت مياه البحار وانتشر الدخان والقار غطاء كثيفًا غطّى كلّ شيء.

أخيرًا انتصر زفس وتربّع سعيدًا على عرش الأولمب يحيط به الآلهة الخالدون.

الملحق الثاني

هاديس يخطف بيرسيفونا[1]

كان للإلهة ديمبيترا[2] ابنة ساحرة الجمال اسمها بيرسيفونا، وكان أبو بيرسيفونا هو زفس مرسل الصواعق. خرجت الإلهة الصغيرة يومًا إلى وادي نيس[3] الجميل لتلهو مع صويحباتها الأوكيانيدات. وراحت الفاتنة تتنقل من زهرة إلى زهرة، فلم يخطر ببالها أنّ زمنا طويلاً سيمضي قبل أن ترى ثانية أشعّة الشمس الصافية وتتمتّع بمرأى

---

١ ـ عن نشيد لـ "هوميروس"؛ تذكّرنا هذه الاسطورة بأسطورة أدونيس وعشتروت، ويباس الزرع في الصيف والخريف حزنًا على أدونيس، وعودته في الربيع احتفاءً بعودته من العالم السفليّ. وهذا ما يُظهر أخذ الحضارات للاساطير عن بعضها.

٢ ـ ديميبترا، وهي تسيريرا لدى الرومان، واحدة من أكثر آلهة اليونان قداسة، فهي إلهة الخصب والزراعة، والمعبودة من قِبَل المزارعين. كانت بلاد اليونان بأسرها تحتفل بأعيادها الكثيرة العدد. وممّا يشار إليه أنّ هذه الإلهة كانت ثانويّة المرتبة في قصائد هوميروس، فاليونانيّون لم يبدأوا بتقديسها كإلهة سامية الأمجاد إلاّ بعد أن فقد الرعي أهمّيته لديهم وصارت الزراعة شغلهم الأهمّ.

٣ ـ **وادي نيس**: واد في منطقة ميجارا على شاطئ خليج سارونيك.

الزهور وتستنشق عبيرها الشذي. فقد زوّجها زفس لأخيه هاديس الكالح الوجه، سلطان مملكة أشباح الموتى، فكان عليها أن تشاركه حياته في ظلام المملكة السفلى المحرومة من أشعّة شمس الجنوب الدافئة.

لمح هاديس بيرسيفونا تلهو في ذلك الوادي فقرر اختطافها. وطلب من إلهة الأرض هيا أن تخرج زهرة بديعة الجمال، فاستجابت له الأرض، وانشقّ صدر الوادي عن زهرة فتّانة حمل النسيم شذاها العَطر إلى كلّ الأرجاء. وشاهدت بيرسيفونا الزهرة فامتدّت يدها فقطفتها. وفجأة انشقّت الأرض وانغلقت أحشاؤها عن هاديس الكالح، سلطان مملكة الأشباح فوق مركبته الذهبيّة. وأطلقت بيرسيفونا صرخة واحدة كانت كلّ ما استطاعت أن تفعله، فردّدت الصرخة جنبات الوادي ولم ير أحد كيف اختطفها هاديس فلم تقع عليه عين هيليوس - إله الشمس.

سمعت ديميترا استغاثة ابنتها فهرعت إلى الوادي لتبحث عنها في كلّ مكان، وسألت صديقاتها عنها، لكنّها لم تعثر لها على أثر، فلم تكن الأوكيانيدات عالمات بمكان اختفائها. وأثقل الحزن قلب الأمّ التي راحت تضرب في الأرض متسربلة بالسواد، ذارفة الدمع، شاردة ذاهلة عن كلّ شيء مدة أيّام تسعة. وبحثت عن ابنتها في كلّ مكان، وطلبت العون من كلّ مَن لقيته في طريقها. لكنّ أحدًا لم يستطع أن يمدّ لها يده في محنتها. ولمّا كان اليوم العاشر، وصلت إلى هيليوس ـ إله الشمس، فأخذت تبتهل إليه والعبرات تتناثر من مقلتَيها.

فأجاب هيليوس الساطع بالنور:

- "أيتها الإلهة السامية الجلال. إنّك تعرفين مقامك في نفسي وترين كم يشقيني أن أراك فريسة الأحزان. اعلمي أنّ زفس، مطارد السحب، قد زوّج ابنتك لأخيه هاديس الملك. لقد خطف هاديس بيرسيفونا ومضى بها إلى مملكته الطافحة بالأهوال. اقهري

حزنك المضني أيّتها الإلهة، فزوج ابنتك واحد من الأماجيد. إنّـه الأخ الأعظـم لزيـوس العظيم".

زادت أحزان الإلهة ديميبترا لدى سماعها ما قاله هيليوس، وحنقت على زفس لأنه زوّج ابنتها دون أن يستشيرها في ذلك، فهجرت مجالس الإلهة وغادرت جبل الأولمـب المشرق، واتّخذت هيئة واحدة مـن الفانيـات، واتّشـحت بالسـواد، وراحـت تطـوف بيـن البشر ذارفة مرّ الدموع.

وكفّت الأرض عن الخصب، وذوت الأوراق على أغصـان الشـجر ثـمّ تسـاقطت، فانتصبت الأشجار عارية في الغابات والبساتين، وذبل العشب، ولوت الأزهار تيجانهـا الفاقعة الألوان وذوت، وخلت الحدائق مـن الثمـار، وخـوت حقـول الكرمـة الخضـراء، واختفت عناقيدها الكبيرة الشهيّة، ويبست وجوه الحقول فلم تنبت فوقهـا عشـبة واحـدة. وجمدت الحياة فوق الأرض وخيّم الجوع، وارتفع البكـاء مـن كـلّ جنـب وأحـدق نذيـر الفناء فوق الجنس البشريّ، لكن ديميبترا لـم تـر شـيئاً مـن ذلـك فقـد كـانت غارقـة فـي أحزانها على ابنتها الحبيبة.

وأمرت ديمينترا أن يُبنى لها معبد في ايليفسين عند نبع كاليخورا حيث بقيت مقيمة هناك، وقريبا من ذلك المعبد صارت الإلهة تحتفل بأعيادها المتوالية.

لكنّ أحزان ديميبترا لم تفارقهـا، ولـم يفارقهـا حقدهـا علـى زفـس، فبقيـت الأرض مجدبة مثلما كانت، واشتدّت قبضـة الجـوع إذ لـم تنبـت الحقـول عشـبة واحـدة. وعبثـا راحت الثيران تشدّ المحاريث الثقيلة لتشقّ الحقول فلم تكن لأعمالها ثمرة. وهلـك كثيـر من الشـعوب، وتصـاعدت أنّـات الجيـاع إلـى السـماء، لكـنّ ديميبـترا لـم تكـن لتفهمهـا. وأخيرا توقّفت أبخرة الضحايا الأرضيّة إلى الآلهة الخالدين، وخيّم نذير الفناء فوق كـلّ مخلوق. ولم يكن مطارد السحب زفس العظيم ليقبل بهلاك البشر فأنفذ ايريـدا، رسـولة

الآلهة إلى ديميبترا، فصفّقت الرسولة بجناحَيها القزحيّ الألوان وطارت إلى مدينة ايليفسين، نحو معبد ديمييترا، فدعتها وابتهلت إليها أن تعود إلى أسرة الآلهة فوق الأولمب، ولم تفد ديمييترا توسّلاتها، فبعث زفس إليها آلهة آخرين لكنّها رفضت العودة إلى الأولمب قبل أن تعود ابنتها إليها.

إذ ذاك أرسل زفس رسوله هرمز إلى أخيه هاديس، فانحدر هرمز إلى الجحيم الطافح بالأهوال ومثل أمام سلطانه لينقل إليه رغبة زفس.

قبل هاديس بأن يسمح لبيرسيفونا بالخروج إلى أمّها، لكنه أعطاها حبّة من الرمّان، رمز الوثاق الزوجيّ فابتلعتها قبل خروجها. وصعدت بيرسيفونا إلى عربة زوجها الذهبيّة، برفقة هرمز، وانطلقت جياد هاديس المخلّدة فطوت كلّ العقبات وكانت في ايليفسين بعد ومضة عين.

ذهلت ديميتترا عمّا حولها في غمرة السعادة وهرعت إلى لقاء ابنتها ولفّتها بأحضانها، وعادت معها إلى جبل الأولمب. اذ ذاك قرّر زفس العظيم أن تقضي بيرسيفونا ثلثَي العام مع أمّها وأن تعود إلى زوجها هاديس لتقضي الثلث الثالث من العام.

وأعادت الإلهة المجيدة الخصب إلى الأرض، فأزهر كلّ شيء وأخضر من جديد، واكتست أشجار الغابات بالبراعم الدقيقة الخضراء، وازدانت الأزهار فوق المروج الزمرّديّة. وبعد قليل مالت أعناق السنابل المليئة فوق مروج القمح الخصيبة وأزهرت البساتين ونشرت شذاها وتفتّحت خضرة الكروم تحت ضوء الشمس. لقد استيقظت الطبيعة بأسرها وابتسم كلّ حي وراح يهتف بمجد الإلهة ديمييترا وابنتها بيرسيفونا.

لكنّ بيرسيفونا كانت تفارق أمّها في كلّ عام، فتغرق ديمييترا في أحزانها وتتسربل بالسواد، ويكفهرّ وجه الطبيعة كلّها حزنًا على الفقيدة، فتصفرّ الأوراق على الأغصان وتتساقط لتتلاعب بها ريح الخريف، وتذبل الزهور، وتقفر الحقول، ويحلّ الشتاء، وتنام الطبيعة لتستيقظ من جديد في حلّة الربيع الباسم عندما تعود بيرسيفونا إلى أمّها، خارجة من مملكة هاديس المظلمة. فإذا ما عادت نشرت ربّة الخصب هباتها السخيّة على البشر وباركت أعمال المزارعين بمحصول وفير.

الملحق الثالث

أسطورة الملك ميداس

الذي طلب أن يتحوّل كلّ ما يلمسه ذهبًا

كان ديونيسيوس يلهو، مرّة، مع ثلّة الميناد والساتير الصاخبة فوق سفوح "تمول" المغطّاة بالغابات في فريجيا. وكان الجميع حضورًا ما عدا "سيلين" الذي تأخّر عن الموكب وراح يجول في حقول فريجيا، وهو يتعثّر في خطواته ثملاً آخذًا منه السكر مأخذه. ولقيه المزارعون فأوثقوه بأكاليل الزهور، واقتادوه إلى الملك ميداس. وعرف الملك مربّي ديونيسيوس فرحّب به في قصره وأكرمه وأقام المآدب الفاخرة على شرفه مدّة أيّام تسعة. وفي اليوم العاشر خرج ميداس بضيفه وأوصله إلى ديونيسيوس، فسرّ الإله المجيد برؤية "سيلين" وجزى ميداس بأن ترك له أن يعيّن الهبة التي يتمنّاها فهتف ميداس:

"أي ديونيسيوس، أيّها الإله المجيد. مرْ بأن يتحوّل كلّ ما تلمسه يداي ذهبًا خالصًا".

وأنجز ديونيسيوس مطلب ميداس آسفًا على أنّه لم يتلمّس لنفسه هديّة أفضل.

وانصرف ميداس سعيدًا مغبوطًا. إذ إنّ ما كاد يلمس شيئًا حتّى يستحيل ذهبًا. إنّه يقتطع من البلّوطة غصنًا أخضر فيستحيل الغصن الأخضر ذهبيًّا في يده، ويقطع باقة من سنابل القمح فتستحيل السنابل ذهبيّة في يده ويصير حبّها ذهبًا، ويقتطف تفّاحة فتستحيل التفّاحة ذهبيّة وكأنّها جنيت من بساتين الهيسبريد. إنّ كلّ ما يلمسه ميداس يستحيل إلى ذهب على التوّ. وإذ عاد إلى قصره أعدّ له الخدم وليمة الغداء فجلس إلى المائدة باسم الثغر مطمئنّ النفس، وإذ ذاك أدرك أيّ هديّة رهيبة أرادها لنفسه، إذ صار الخبز والخمرة وجميع المآكل ذهبًا في فمه. وأدرك الملك، الذي تعذّر عليه الطعام، أنّه مقضيّ عليه بالهلاك جوعًا، ففتح ذراعيه ونظر إلى السماء وابتهل:

"رحماك، رحماك يا ديونيسيوس! اغفر لي جشعي واشفق عليّ واستعد هبتك التي منحتنيها".

وتجلّى ديونيسيوس أمام الملك وقال له:

- إمضِ إلى منابع باكتول[1] فتطهّر في مياهها من هذه الهبة وتخلّص من خطيئتك.

ومضى ميداس وفق إشارة ديونيسيوس، إلى منابع باكتول، فغمس نفسه في مياهها الطاهرة، فجرت المياه خيوطًا من ذهب وطهّرت جسد الملك من هبة ديونيسيوس، وغدا لون باكتول ذهبيًّا منذ ذلك الحين.

---

١ ـ **باكتول**: نهر في ليديا يصبّ في نهر غيرم، الذي هو نهر غيديس حاليًا.

الملحق الرابع

أسطورة الطوفان

تذكّرنا بأسطورة طوفان نوح وملحمة جلجميش. وهاكم التفاصيل:

أمعن أصحاب العهد النحاسيّ في ارتكاب المعاصي، وكانوا فجّارًا متكبّرين لا يرعون للآلهة عهدًا ولا يقيمون لهم شأنًا، فغضب عليهم مرسل الأعاصير. وكان أشدّ مَن أثار حنقه فيهم هو "ليكاوونس"، ملك ليكوسورا في أركاديا[1]. فقد نزل مرسل الصواعق إليه مرة في صورة إنسان وأعطى لأهل المدينة علامة لكي يعرفوه، فخرجوا جميعًا ليقدّموا إليه آيات الإجلال والاحترام. أمّا ليكاوونوس فقد استكبر عن تقديم فروض التكريم لزفس وسخر ممّن فعل ذلك، بل وأراد اختبار قدرة زفس فقتل أسيرًا كان في قصره، وطهى جزءًا من لحمه وقلى جزءًا آخر وقدّمه طعامًا للإله، فهاجت نفس زفس بالغضب ورشق قصر ليكاوونوس بصاعقة دمّرته وأحال صاحبه ذئبًا هائجًا.

ومضى البشر في غيّهم، فقرّر زفس أن يقطع دابرهم من أصله، فأرسل على الأرض وابلاً من المطر يغرق فيه كلّ شيء، وحبس، من أجل هذه الغاية، جميع الرياح، وأجاز ريح الجنوب الرطبة لوحدها فحشدت الغيوم السحماء في صفحة السماء وهطلت الأمطار مدرارة فيّاضة، وتعاظمت المياه وتكاثرت في البحار والأنهار، فأخذت صفحتها ترتفع شيئًا فشيئًا فتحتضن المدن بأسوارها ومبانيها ومعابدها، حتّى تلاشت رؤوس الأبراج واختفت الهضاب المغطّاة بالغابات، ثمّ انغمرت قمم الأطواد

---

١ ـ تحدثنا هذه الأسطورة عن الطوفان الشهير الذي غمر الأرض وعن نجاة ديوكاليون وبيرا في صندوق كبير الحجم. ونلتقي بأسطورة الطوفان هذه لدى البابليّين أيضًا وذلك في أسطورة بيرنابيشتيم أو أوتنابيشتم والتي لقيت انعكاسها في ملحمة جلجميش.

المشمخرة فلم تبقَ إلاّ قمّة بارناس ذي الرأسَين نافرة فوق المياه. أمّا السهول التي كانت تحفّ فيها سنابل القمح أو تتمايل فوقها أغصان الكرمة فأمست مراتع للأسماك، كما صارت الدلافين تمرح في بطون الغابات التي غمرتها المياه.

وهكذا انقرض أبناء العهد النحاسيّ ولم ينج من بينهم إلاّ اثنان هما: "ديوكاليون" ابن بروميثيوس وزوجته "بيرا"، فقد أوعز إليه والده فصنع صندوقًا كبيرًا من الخشب حشد فيه طعامًا وشرابًا كثيرًا، ودخله برفقة زوجته، فأخذ الصندوق يتهادى فوق الأمواج التي غمرت اليابسة كلّها مدة أيّام تسعة. وأخيرًا دفعته الرياح فألقته على قمّة جبل بارناس ذي الرأسَين. وكفّت الأمطار الداهمة عن النزول، فخرج ديوكاليون وبيرا من الصندوق وقدّما قربانًا لزيوس الذي رعاهما بعنايته في مضطرّب الأمواج. وأخيرًا انحسرت المياه بأمواجها المتلاطمة فانكشف بساط الأديم المقفر من كلّ حياة.

إذ ذاك أرسل حامل الترس الأعظم ابنه هرمز، رسول الآلهة، إلى ديوكاليون، فانطلق الرسول فوق الأرض الجرداء ومثل أمام ديوكاليون وخاطبه بقوله:

"لقد رضي عليك زفس لتقواك وبرّك فأنفذني إليك لتختار لنفسك أمنية ينجزها من أجلك".

فأجاب ديوكاليون:

"أي هرمز، أيّها الإله المجيد، إنّني أتّجه إلى زفس بطلب واحد فقط هو أن تكون مشيئته فتعمر الأرض ثانية بالبشر".

وعاد هرمز السريع ثانية إلى الأولمب المشرق وأبلغ زفس رغبة ديوكاليون. فأمر زفس ديوكاليون وزوجته أن يجمعا حجارة كثيرة وأن يرمياها من خلف أكتافهما دون

أن يلتفتا إليها. وعمل ديوكاليون بمشيئة الأعظم فاستحالت الحجارة، التي رمتها يداه رجالاً، والحجارة التي رمتها زوجته نساءً، فعاد البشر إلى الأرض بعد الطوفان، وعمرت بجنس البشر الأخير الذي خرج من الجلمود.

الملحق الخامس

أسطورة باندورا الحسناء

التي أهداها زفس للبشر

والتي أطلقت الشرور في العالم

غدت الحياة على الأرض أوفر متعة بعد أن سطا بروميثيوس على النار المقدّسة وأعطاها للبشر، وبعد أن علّمهم الفنون والصنائع ووهبهم المعرفة. واستبدّ الغضب بزفس، لهذا فأنزل عقابه الشديد ببروميثيوس، أمّا البشر فابتلاهم بالنوائب والمحن. فقد أوعز إلى "هيفست"، إله الصناعة المجيد، أن يجبل ترابًا وماء ويصوغ منه فتاة بديعة الجمال وينفث فيها رشاقة الحركة وجمال الصوت ورقّة النظرات. كما أوعز إلى ابنته "أثينا ـ بالادا" أن تحيك، من أجلها، أبهى الحلل، وإلى "أفروديتا" أن تؤتيها أسمى درجات الفتنة والبهاء، وإلى "هرمز" أن يهبها المكر والدهاء.

إمتثل الآلهة لرغبة زفس. فجبل "هيفست" من التراب امرأة بديعة البهاء ونفخ الآلهة فيها الحياة، وألبستها "أثينا" والهاريات الحلل الزاهية زهاء الشمس وحلّين جيدها بالأطواق الذهبيّة. ورصعت الأورات شعرها الأجعد الغزير بإكليل من الزهور الفوّاحة

العبير. وعقد "هرمز لسانها" على عبارات المكر والدهاء. وسمّى الآلهة صنيعتهم هذه "باندورا"[1]، لأنّها نالت هدايا جميع الآلهة. وكان عليها أن تحمل التعاسة إلى بني البشر.

ولمّا فرغ الآلهة من إعداد هذه المصيبة لبني الأرض، أمر زفس الإله هرمز أن يحملها إلى الأرض ويقدّمها إلى أبيميثيوس الغرير، الذي طالما نهاه أخوه عن قبول هدايا زفس، مرسل الصواعق. فقد كان يخشى أن تجرّ هداياه الوبال على الأرض. لكنّ إبيميثيوس لم يصغ إلى نصيحة أخيه، فقد أسرته باندورا بجمالها وفتنتها، فتعلّق بها وتزوّجها. ولم يمض إلاّ القليل حتّى أدرك الوبال الذي جاءت به إلى بني البشر.

كان لـ "إبيمثيوس"، في منزله، إناء كبير الحجم محكم الغطاء، لا يعلم أحد ما يحتويه. كما أنّ أحدًا لم يقدم يومًا على فتحه إذ كان معلومًا أنّ فتحه ينذر الكون كلّه بشرّ مستطير. لكنّ الفضول كان أقوى من "باندورا"، ففتحت الغطاء سرًّا، وإذا بالشرور التي كانت محبوسة في داخله تطير وتنتشر على الأرض، فلم يتبقّ بداخله إلاّ الأمل، إذ أعادت باندورا الغطاء قبل أن ينجح الأمل في الخروج. وهكذا بقي الأمل في بيت "إبيميثيوس" ولم يكن زفس راغبًا في ذلك.

هانئة كانت حياة البشر في الماضي، فما كانوا يعرفون المحن ولا المصائب ولا عناء العمل ولا فاتكات الأمراض. أمّا بعد ذلك، فقد انتشرت أسراب المحن بينهم وامتلأت الأرض والبحار بالشرور. فالمصائب والأتراح تنزل بالبشر في الليل وفي النهار، ومن غير دعوة، وتحمل اليهم صروف العذاب والألم، وهي تسير بكماء صماء الخطى، فقد منعها زفس هبة الكلام، فجميعها خرساء الكلام واللسان.

---

١ ـ باندورا: تعني حاملة جميع الهبات.

الملحق السادس

أسطـــورة بيريسيـــوس ابـــن زفـــس

الذي يخلّص ابنة الملك أندروميدا من الوحش البحريّ[1]

طوى بيرسيوس بلدانًا كثيرة قبل أن يصل مملكة كيفيا الواقعة في أثيوبيا[2] على شاطئ المحيط "أوكيان". وهناك لقي اندروميدا الفاتنة، ابنة الملك كيفيوس، وقد غلّت إلى إحدى صخور الشاطئ الملامس للبحر، لتكفّر عن خطيئة أمّها "كاسيوبيا"، التي كانت شديدة الاعتداد بجمالها، فأعلنت أنّها أجمل مَن في الكون. وبذلك أغضبت عرائس البحر فمضين إلى إله البحار بوسيدون، وتوسّلن إليه أن يقتصّ من كيفيوس وكاسيوبيا. فامتثل الإله لرغبتهنّ وأرسل، إلى الملكين، وحشًا في صورة سمكة هائلة الحجم خرجت من لجّة البحر وصارت تلقّف كلّ ما في مملكة كيفيا. فتصاعدت الآهات والزفرات في المملكة الواسعة، ما جعل الملك يمضي إلى معبد آمون[3] ويسأل عن طريقة يتخلّص بها من تلك المحنة فكان جواب الكاهن:

"قدّم ابنتك ضحيّة للوحش البحريّ ليفترسها فينقشع بذلك غضب بوسيدون".

ولمّا سمع الشعب جواب الكاهن، أرغم الملك على تقييد ابنته إلى صخرة بجوار البحر، فوقفت الفتاة عند أسفل الصخرة مكبّلة بالسلاسل الثقيلة، بيضاء من شدة

---

١ تذكّرنا هذه الأسطورة بقصّة مار جرجس من العهد القديم.

٢ ـ كان اليونانيّون يتصوّرون هذه البلاد واقعة في أقاصي جنوب الأرض، ثمّ أخذوا يُطلقون اسم "أثيوبيا" على جميع الأراضي الواقعة جنوبي مصر وجاراهم الرومان في ذلك.

٣ ـ كان هذا المعبد يقوم في صحراء ليبيا غربي مصر.

الخوف، تترصّد البحر بعينَين يفيض منهما الرعب، وهي، في كلّ لحظة، تتوقّع أن يخرج الوحش البحريّ ليلتهمها. وانهمرت الدموع من مقلتَيها وتمزّق قلبها هلعًا وهي تنتظر توديع الحياة في أوج نضرتها، وقبل أن يلمس روحها شعاع من مباهج الحياة. ولمحها بيرسيوس آنذاك فكاد أن يحسبها تمثالاً بديعًا من المرمر الباروسيّ الأبيض، لولا أن عبثت بشعرها أنسام البحر، وانهمرت من عينَيها الدموع الكبيرة. ونظر الفتى إلى الصبيّة بإعجاب شديد، وأحسّ بقلبه يتّجه نحوها حبًّا وغرامًا، فانحدر نحوها مسرعًا وخاطبها بقوله:

"إيه، أيّتها الصبيّة الفاتنة، أخبريني، لمَن هذه البلاد وأخبريني ما اسمها؟ وما الذي جنيت حتّى قيّدوك إلى هذه الصخرة؟"

أخبرته "أندروميدا" بأيّ ذنب أُخذت، فقد ساءها أن يظنّ أنّه قد جيء بها لتكفّر عن خطيئة ارتكبتها. وما كادت الفتاة تتمّ كلامها حتّى انشق صدر الماء وبرز من بين أمواجه وحش هائل الحجم، رفع رأسه عاليًا وفغر شدقه الرهيب، فأطلقت "أندروميدا" صرخة رعب عالية، فهرع أبواها إلى الشاطئ وقد طارت نفساهما شعاعًا من شدّة الحزن، وأخذا يضمّان ابنتهما والدموع تتسابق على خدَّيهما.

هتف بيرسيوس ابن زفس قائلاً:

"سيكون لكما من الوقت ما يكفيكما لذرف الدموع، أمّا الآن فالوقت يهيب بنا للعمل. إنّني بيرسيوس، ابن زفس، وسأنقذ ابنتكما إذا ما وعدتماني بإعطائها لي زوجة".

وافق الأبوان بفرحة شديدة إذ كانا مستعدَّين للتضحية بأيّ شيء لقاء خلاص ابنتهما، فوعد الملك بيرسيوس بالتنازل له عن سرير الملك إن هو أنقذ ابنته. واقترب

الوحش وراح يصدّ عباب الموج بصدره العريض كسفينة تنطلق فوق المياه مسرعة بفضل المجاذيف التي تحركها أذرع فتيّة. وارتفع بيرسيوس في الفضاء وقد أصبح الوحش على مرمى القوس منه، فانقضّ عليه من عليائه، وأنفذ سيفه المعقوف عميقًا في ظهره، فانتفض الوحش عاليًا في الفضاء، وراح يتخبّط في البحر كخنزير بريّ أحاطت به ثلّة من الكلاب وهي تهرّ هريرًا شديدًا، وصار يغوص، تارة إلى أعماق البحر، وطورًا يطفو على سطحه، بينما راح ذيله يصفع الماء بقوّة جنونيّة، فارتفعت الأمواج عالية حتّى لامست قمم الصخور المجاورة. وغطّى الزبد وجه البحر، وهجم الوحش على البطل فاغرًا شدقه. لكنّ بيرسيوس حلّق في السماء كالطائر محمولاً على صندلية المجنّحين، وانهال على الوحش بطعناته فصارت الدماء تتدفّق من شدقه لتختلط بالمياه، حتّى أُصيب بيرسيوس بالبلل وكاد جناحاه أن يهبطا به وقد نالهما البلل. لذلك اتّجه نحو الصخرة البارزة من الماء وأحاطها بيده اليسرى، وأنفذ في صدر الوحش العريض طعنات ثلاثًا. وانتهت المعركة الرهيبة، فتردّدت صيحات الفرح فوق الشاطئ، وهتف الجميع بتمجيد البطل الأعظم. وحُلّت أغلال أندروميدا الفاتنة فسار بيرسيوس بها إلى قصر أبيها فرحًا مزهوًّا بانتصاره.

الملحق السابع

أسطورة أوروبّا وقدموس الفينيقيّين[1]

كان لـ "أغينور"، ملك صيدا الفينيقيّ الواسع الثراء، ثلاثة أبناء، وابنة جميلة كإلهة من الآلهات الخالدات، اسمها "أوروبّا"، كانت قد رأت، ذات ليلة في نومها، قارّة آسيا

---

١ ـ هذه الأسطورة تظهر التأثير الشرقيّ على الميثولوجيا اليونانيّة.

في هيئة امرأة مهيبة الطلعة تختصم، من أجلها، مع امرأة أخرى هي القارّة التي تنفصل عن آسيا بواسطة البحر. وكانت كلّ من المرأتَين/ القارتَين تحاول أن تختصّ نفسها بأوروبّا. وشاهدت الفتاة أنّ قارّة آسيا قد انهزمت في تلك الخصومة، وكان عليها، وهي التي أرضعت أوروبّا وربّتها وأنشأتها، أن تتزل عنها لندّتها. فهبّت الفتاة مذعورة من نومها وخشيت مآل حلمها، فأخذت تصلّي خاشعة إلى الآلهة ليبعدوا عنها المصائب، إذا كان الحلم ينذر بوقوعها. ثمّ ارتدت ثوبًا قرمزيًّا مطرّزًا بخيوط الذهب، وخرجت مع صديقاتها، بنات صيدا، إلى مرج أخضر زاهر على شاطئ البحر، وأخذن يقطفن الزهور، مرحات صاخبات، ويضعنها في السلال الذهبيّة. فجمعن الكثير من أزهار النرجس الأبيض والجلنار القرمزيّ والفلّ والسوسن. أمّا أوروبّا المتألّقة بين صويحباتها تألّق "أفروديتا" بين وصيفاتها الهاريات، فلم تكن تقطف غير الورود الفاقعة الحمرة. ولمّا انتهى قطاف الزهور أخذت الفتيات يرقصن ضاحكات فتردّدت أصواتهنّ بعيدًا في الحقول الخضراء وفي البحر العريض، فغطّين همساته الهادئة الرقيقة.

لم تهنأ أوروبّا الفاتنة طويلاً بحياتها اللاهية، فقد وقعت عليها أنظار زفس الجبّار، مطارد السحب، فحزم أمره على اختطافها وقد أسرت فؤاده. ولمّا كان يخشى أن يثير خوفها بمنظره، تشكّل في هيئة عجل بديع المنظر يتألّق جلده كالذهب، ويتلألأ جبينه بقرص مدوّر كالقمر. أمّا قرناه الذهبيّان فكانا معقوفَين كالهلال أول ظهوره من أحضان أشعّة شمس المغيب القرمزيّة. وأخذ العجل الجميل يسرح فوق المرج ويتقدّم من الصبايا بخطوات رفيقة لا تكاد تلمس العشب، فلم تهلع بنات صيدا لرؤيته، بل أحطن به وأخذن يربتن عليه بلطف ورقّة، فاقترب من أوروبّا وصار يلحس يدَيها ويتململ أمامها، وكانت أنفاسه محمّلة بعبير الامفروزيا والنكتار، حتّى امتلأ الفضاء

بروائحها العطرة، فمسحت أوروبّا بيدها الرقيقة وبر العجل الجميل، وأحاطت رأسه، وقبّلته، فركع عند قدمَيها وكأنّه يطلب منها أن تعتلي متنه.

إعتلت أوروبّا ظهر العجل العريض ضاحكة مستبشرة. ولمّا همّت بقية الصبايا بالركوب إلى جانبها نهض العجل فجأة، وانطلق مسرعًا نحو البحر وقد فاز بمبتغاه، فأطلقت بنات صيدا صرخات مدويّة، بينما مدّت الفتاة الضحيّة نحوهنّ ذراعَين مستغيثتَين، ولكنهنّ كنّ عاجزات عن إغاثتها. فقد انطلق الثور الذهبيّ مسرعًا يسابق الريح، وألقى بنفسه في البحر ومضى يمخر عباب أمواجه الذهبيّة كالدلفين، وأخذت الأمواج تتباعد مفسحة له السبيل، وكان رذاذها ينزلق عن ظهره حبّات من الماس. وخرجت النيريدات من أعماق البحر فتحلّقن حول العجل ولحقن به سابحات. وخرج الإله بوسيدون بنفسه محمولاً على مركبته يحيط به سرب من آلهة البحر، ومضى أمام الحشد يلامس الأمواج بخطافه المثلّث الشعب، ليهدّئ من تلاطمها ويفسح السبيل أمام أخيه الأعظم. وهدأت أوروبّا على ظهر العجل فأمسكت إحدى يدَيها بقرنه وثنت الأخرى طرف ثوبها القرمزيّ كيلا تبلّله الأمواج. لكن عبثًا ما تفعله، فالبحر هادئ هامس الصوت يعبث هواؤه بضفائرها الطويلة ويداعب منديلها الرقيق، وهي أسيرة رعب لا يوصف. فقد غاب عن ناظرها الشاطئ وتلاشى في زرقة الأبعاد، فلم يبقَ غير البحر والسماء الزرقاء.

وأخيرًا لاحت جزيرة كريت في أحشاء الفضاء البحريّ السحيق، فأسرع زفس بحمله الثمين إليها، وخرج إلى الشاطئ. وهناك غدت أوروبّا زوجته وأقامت على تلك الجزيرة، وأنجبت لزفس ثلاثة أبناء هم:

مينوس، رادامانت وساربيدون. وكانوا أبطالاً أماجيد تتناقل الكون بأسره أحاديث حكمتهم وأمجادهم.

قدموس[1]

حزن أغينور حزنًا شديدًا على ابنته التي اختطفها زفس بعد أن تمثّل لها في هيئة ثور جميل، وأخفق كلّ شيء في تخفيف أحزان الملك، فاستدعى إليه أبناءه الثلاثة: فوينيكس وكيليكس وقدموس، ووجّههم للبحث عن أختهم وتوعّدهم بالموت إذا هم عادوا بدونها. فاتّجه الأبناء الثلاثة لتنفيذ ما شاءه أبوهم. وبعد قليل من الزمن افترق فوينيكس وكيليكس عن أخيهما قدموس، فأسّس فوينكس مملكة فينيقيا[2] كما أسّس كيليكس مملكة كيليكيا[3] وأقام كلّ منهما في مملكته.

أمّا قدموس فمضى لوحده يبحث عن أخته، وطاف كثيرًا في أنحاء الأرض سائلاً عن أوروبّا في كلّ مكان. ولكن كيف له أن يلقاها وقد اخفاها زفس بنفسه عن أعين الجميع. وفقد قدموس كلّ أمل في العثور على أخته وخشي عاقبة العودة إلى قصر أبيه، فذهب إلى "دلفي" المقدّسة يستطلع كاهن أبّولون عن الأرض التي ينزل فيها ويؤسّس فوقها مدينته، فأجابه الكاهن بقوله:

"امض في طريقك، وستلتقي، فوق مرج منعزل، ببقرة لم تعرف رقبتها النير، فسر وراءها وأقم أسوار مدينتك حيث تقيل تلك البقرة فوق العشب، وسمٍّ تلك البلاد باسم "بيونتا".

غادر قدموس ونفّذ ما أمره الكاهن وأقام معبدًا لزفس. وبعد أن قتل أفعوانًا ضخمًا سمع صوتًا يردّد:

---

١ ـ عن منظومة أوفيد "ميتامارفوز"؛ نعود ثانية لنلتقي في هذه الأسطورة بالتأثير الفينيقيّ على الأساطير اليونانيّة، كما نلمس فيها آثار التوتميّة القديمة التي يؤكّدها انحدار المحاربين من التنين، أو من أسنانه بكلمة أدقّ، واستحالة قدموس وزوجته إلى ثعابين.

٢ ـ **فينيقيا**: كانت في أول عهدها تمتدّ على الشاطئ الشرقيّ للبحر المتوسّط، وكانت طرابلس وصيدا وصور وجبيل من أشهر مدنها.

٣ ـ **كيليكيا**: في الجنوب الشرقيّ من آسيا الصغرى.

"ما لك واقف تمتّع نظرك بالثعبان الذي قتلته بيدَيك يا ابن اغينور. قريبًا يقف الناس ليمتّعوا أنظارهم بمرآك وقد استحلت بذاتك أفعوانًا مثله".

ردّد قدموس نظره في ما حوله، حائرًا في مصدر ذلك الهاتف، واضطرب قلبه من شدة الذعر وهو يصغي إلى تلك النبوءة، وانتصب شعره فوق رأسه وهو ينظر إلى الأفعوان القتيل، وكاد يهوي أمامه فاقد الوعي.

عند ذاك ظهرت أمامه "أثينا ـ بالادا"، ابنة زفس وصفيّة فؤاده، وأمرته أن ينتزع أنياب الأفعوان وينثرها كالبذور في حقل بعد أن يحرثه.

عمل قدموس بإشارة الربّة المحاربة، وما كاد أن ينتهي من زراعة الأنياب حتّى حدثت المعجزة. فقد شقّت الأرض، بادئ الأمر، أسنّة رماح، وبرزت من بعدها زعانف الخوذ، ثم نفرت من بطن الأرض الحريث رؤوس المحاربين، ونهضت إثرها أكتافهم فصدورهم المغطّاة بالدروع، فأذرعهم الممسكة بالتروس. وهكذا خرجت كتيبة من المحاربين من أنياب الأفعوان، فهبّ قدموس ليجرّد سيفه ويتصدّى للعدوّ الجديد الغامض، لكنّ أحد أولئك المحاربين، أبناء الأرض، ابتدره بقوله:

"لا تنتض حسامك أيها البطل، وقِف بعيدًا عن حومة المعركة التي ستنشب بيننا".

وبعد قليل التحم المحاربون في معركة ضروس، وأخذوا يصطرعون بالسيوف والرماح، ويتساقطون صرعى فوق الأرض التي ولدتهم منذ قليل. ولمّا انتهى عددهم إلى خمسة فقط، رمى أحدهم بسلاحه وفق إشارة من "أثينا ـ بالادا" دلالة على السلام، فتآخى الرجال الخمسة الصناديد وغدوا أتباع قدموس ومعاونيه في بناء كادميا، قلعة طيبة ذات البوّابات السبع.

شيّد قدموس مدينة طيبة العظيمة، وشرّع للناس القوانين، ونظّم لهم شؤون مملكتهم، وقدّمت له إلهة الأولمب هارمونيا، ابنة آريس وأفروديتا، فاتّخذها زوجة، وأقام لذلك احتفالاً فاخرًا حضره جميع الآلهة حاملين معهم أثمن الهدايا.

ومنذ ذلك الحين أصبح قدموس واحدًا من أغنى ملوك الأرض وأوفرهم قوّة ومنعة، فكانت خيراته لا تحصى ولا تعدّ، وكانت جيوشه كثيرة وفيرة لا تُقهر في القتال. وكان يرأسها أولئك المحاربون الخمسة الذين أنبتتهم الأرض من أنياب الأفعوان، فكان لبيته أن يظلّ حافلاً بالمسرّات غامرًا بالأفراح، لولا أن خالطت هبات آلهة الأولمب ألوان من المحن والمصائب، وقدّر عليه أن يتذوّق صروفًا من الأحزان والآلام. فقد ماتت ابنتاه "سيميلا" و"اينو" أمام عينَيه فحزن عليهما حزنًا شديدًا لم يخفّف من لوعته أنّهما رُفعتا إلى السماء لتصبحا من الآلهة. كما قضى حفيده اكتيون، نجل ابنته اتونويا، ضحيّة لغضب ارتيميدا. وفوق ذلك كلّه رزئ بأحفاده.

الملحق الثامن

أسطورة أورفيوس[1]

عاش المغنّي الأشهر أورفيوس، ابن إله النهر ياجر وربّة الفنّ كاليوبا، في تراقيا. وكانت الحوريّة الفاتنة يوريديكا زوجته التي يحبها حبًّا لا نهاية له. لكنّه لم يستمتع بالحياة طويلاً إلى جوارها. فلم تكن قد مضت على زواجهما إلاّ أيّام معدودة عندما

[1] ـ أسطورة أورفيوس الذي يخلّص زوجته من العالم السفليّ لكنّه ينظر إليها قبل وصولها إلى سطح الأرض فتعود إلى باطنها تذكّر بأسطورة سادوم وعامورة من العهد القديم وتحوّل امرأة لوط إلى عمود ملح.

خرجت مع ثلّة من صويحباتها الصبايا الجميلات، إلى واد أخضر ليقطفن منه زهور الربيع، وإذا بحيّة سامة تلسعها، فأطلقت يوريديكا صرخة استغاثة وهوت بين أذرع صديقاتها، ثمّ شحب لونها، وغشت الظلمة عينيها. فقد أودت اللسعة السامّة بحياتها. وأخذت صديقاتها يندبن ويبكين، وردّدت جنبات الوادي نواحهنّ فسمعهنّ أورفيوس وهبّ اليهنّ مسرعًا ليرى بين أيديهنّ جسد زوجته الفتيّة المحبوبة، فمزّقت اللوعة فؤاده، وفاضت بالدمع مقلتاه، وراح يبكيها كلّ صباح ومساء. ولم يتمكّن أيّ شيء من أن يسليه عنها، فراح يغنّيها ويبكيها بصوت شجيّ حزين جعل الطبيعة كلّها تشاركه بكاءه وهي تنصت إلى غنائه الحزين.

وبرح الحزن بقلب الثاكل الولهان، فهبط إلى مملكة الظلام السفليّ يتوسّل إلى ملكها العظيم "هاديس" وإلى زوجته بيرسيفونا.

وتقدّم أورفيوس من عرش هاديس حتّى وصل إليه وهو يعزف، ومثل أمام الإله العظيم، وتململت أصابعه على الأوتار السحريّة فصدرت أعذب الأنغام، وتنفّس صدره عن أغنية حزينة صعّدتها أعماق فؤاده المكلوم، فغنّى حياته السعيدة الماضية وربيع أيّامه المشرقة إلى جانب زوجته، التي اختطفتها يد الموت، وغنّى فراقها له إذ قضت في زهرة العمر مخلّفة له الحرقة والعذاب، تاركة لقلبه مرارات سعادة لم تتمّ. واستغرق جميع سكّان العالم السفليّ مصغين إلى غنائه بافتتان ودهشة، فنكس الملك هاديس رأسه مسحورًا، وطرحت زوجته بيرسيفيونا رأسها على كتفه وقد ارتجفت عبرات الحزن في أهدابها. وأخيرًا فترت أنغام القيثارة، شيئًا فشيئًا، ووهن الغناء الشجيّ وضعف حتّى تلاشى تلاشي آهة الحزن التي لا تكاد تسمع.

وخيّم على المملكة صمت عميق قطعه الإله هاديس بسؤاله عمّا حدا بـ "أورفيوس" إلى زيارة مملكة الموتى وعن الأمنية التي يتمنّاها إليه وأقسم له، بمياه ستيكس الخالدة،

القسم الذي لا حنث لأحد من الآلهة أو الفانين فيه، بأنّه منجز رغبة المغنّي الأعظم مهما عظمت. فردّ أورفيوس عليه بقوله:

"أي هاديس المجيد، يا من تستقبلنا في أرجاء مملكتك الشاسعة عندما تتمّ حياتنا. لا لأمتّع ناظري بما تحف به مملكتك من آلام وفواجع جئت إليك، ولا لأقوم بما قام به هرقل فأحمل كلبك ذا الرؤوس الثلاثة، نزلت على مملكتك. لقد جئت إليك ضارعًا متوسّلاً أن تعيد إليّ زوجتي الحبيبة، فقد أشقاني فراقها وأوردني أشدّ صنوف العذاب. أما كنت لتحزن وتلتاع لو حرمت زوجتك الأثيرة بيرسيفونا وأنت الإله القويّ ذو الجبروت؟ إنّ زوجتي لن تغادر مملكتك إلى الأبد، فهي عائدة إليها دون ريب، فحياتنا وجيزة أيّها الإله المجيد. أجز لها أيّها الإله الغاشم بالعودة إلى الحياة لتنهل، ولو قليلاً، من لذّاتها، فقد قضت صغيرة فتيّة في ميعة الصبا".

أطرق الإله المجيد طويلاً ثمّ قال:

"حسنًا، يا أورفيوس! إنّي معيد إليك زوجتك فامص بها إلى ضوء الشمس المشرقة. ولكنّي أشترط عليك أمرًا واحدًا وهو أن تمضي في سبيلك دون أن تلتفت إلى الوراء. فيسير هرمز أمامك ليهديك سبيل الخروج وتكون زوجتك من ورائك. إحذر أن تلتفت إليها، فإنّك، إذا فعلت، أعدتها من جديد إلى مملكتي لتقيم فيها أبد الآبدين".

أعلن أورفيوس قبوله بشرط هاديس وبادر إلى الإسراع بمغادرة المملكة القائمة، وجاء هرمز السريع بطيف يوريديكا فنظر إليها مبهورًا مفتونًا وهمّ بمعانقتها، لكنّ هرمز أوقفه بقوله:

"أورفيوس، عد إلى رشدك، فأمامك طيف لا حياة فيه. هيّا بنا لنخرج فطريقنا محفوف بالمخاطر".

وانطلقوا، فكان هرمز يسير في المقدّمة وأورفيوس من ورائه ويوريديكا من خلفهما. وعبر خارون بهم نهر ستيكس حتّى أدركوا بداية الدرب الذي يصير إلى وجه الأرض. غير أنّ ذلك الدرب وعر شاقّ، يرتفع صعدًا نحو الأعلى مليئًا بالأحجار والصخور. وخيّمت عتمة الغسق على كلّ شيء حتّى كاد هرمز أن يختفي بين طيّاتها. ولاحت في البعيد ذؤابة واهنة من ضوء يشير إلى باب الخروج، وازداد الضوء وضوحًا، فرفرفت على المكان أضواء باهتة رقيقة ما كانت لتسمح لـ أورفيوس" برؤية زوجته لو أنّه استدار نحوها. واضطربت في نفسه تساؤلات غريبة: فهل تبعته زوجته الحبيبة أم هي لا تزال أسيرة المملكة الدنيا؟ لا!، لعلّها بقيت هناك، فالطريق وعر لا طاقة لها بعبوره. لا!، إنّها هناك، وقد قضي عليها بالطواف الأبديّ في مملكة الدياجير. وتباطأت خطى العاشق الولهان وأخذ يصيخ بسمعه إلى خطى حبيبته. ولكن متى كانت الأطياف محسوسة مسموعة الخطى! وتعاظم القلق في نفس البطل فأخذ يتوقّف كلّما تقدّم بضع خطوات. وغمر الضوء المكان فزاد في إغرائه بأن يستدير ليرى زوجته، وأخيرًا أعياه التوجّس والقلق، ونفذ مخزون صبره، فتوقّف واستدار، فرأى طيف حبيبته بجانبه يكاد أن يلامسه، فمدّ نحوه ذراعَيه يريد عناقه. لكن سرعان ما انفصل الطيف عنه وراح يبتعد شيئًا فشيئًا إلى أن واراه الظلام. وتوقّف الشاب في مكانه وقد اعتصره الحزن وأهمد جوانحه حتّى لكأنه استحال صخرًا لا أحاسيس فيه. فقد عاش موت زوجته مرتَين وكان هو المسؤول عن موتها في هذه المرّة.

الملحق التاسع

أسطـــــورة أتامانـــت الملـــك

الذي كاد يقدّم ولده ضحيّة وأرسل الله بدلاً منه كبشًا[1]

كان أتامانت، ابن إله الريح "أيـول"، ملكًا علـى مدينـة أرخومين المسينيّة القديمـة الواقعة في بيوتيا[2]. وقد تزوّج بإلهة الغيوم "نيفيلا"، وأنجب منها طفلَين هما "فريكس" و"هيلا". لكنّه خان زوجته وتزوّج من "لينو"، ابنة قدموس؛ فكرهت "اينو" ولدَي زوجها كرهًا شديدًا وصمّمت على قتلهما. فدعت إليها نساء مدينتها وأوعزت إليهنّ أن يسلقن الحبّ، الذي أعدّه أزواجهن للبذار، ويجفّفنه بعد ذلك، ففعلن. وزرع الأرخومينيّون ذلك الحبّ في الحقول فلم تخرج منه نبتة واحدة، حتّى أحدقت المجاعة بالسكّان وطاف شبحها في جميع أنحاء المملكة. فأنفذ الملك رسله إلى "دلفي" المقدّسة ليستطلعوا، من كهنة أبّولون" عن سبب القحط والمجاعـة. غير أنّ "اينو" رشت الرسل عند عودتهم فكتموا عن زوجها ردّ الكهنة ولفّقوا له جوابًا كاذبًا قائلين:

"أجابتنا الكاهنة بقولها أن لا زوال للكارثة عن مملكتك إلا إذا ضحّيت للآلهة بابنك فريكس".

وقرّر الملك أن يقدّم ابنه الغالي قربانًا للآلهة. ففرحت "إينو" بنجاح خطتها في قتل ابن زوجها.

---

١ ـ تذكّرنا بأسطورة النبيّ إبراهيم من العهد القديم.

١ ـ بيوتيا: مقاطعة تقع في اليونان الوسطى وأعظم مدنها طيبة.

وأُعدّ كلّ شيء لتقديم القربان واقتيد الفتى للذبح واقتربت السكين لتحزّ عنقه، لكنّها ما كادت أن تلامسه حتّى هبط من السماء كبش ذهبيّ الجزّة، أرسلته الإلهة "تيفيلا" هديّة من الإله هرمز، لتفتدي به ولدَيها. وانحنى الكبش فاعتلى فريكس وأخته متنه، فصعد بهما في الفضاء وطار بسرعة نحو الشمال.

وطبّقت الآفاق شهرة الجزة الذهبيّة فانتشرت في جميع أصقاع اليونان؛ وعرف أسلاف أتامانت، أب فريكس، أنّ سلالتهم لن تذوق الهناء والطمأنينة إلاّ إذا كانت الجزة الذهبيّة بحوزتها، فحزموا أمرهم على الظفر بها مهما كانت السبل.

NOBILIS
بيروت